عبد الكريم فرحان

أسرى الحرب عبر التاريخ

دار الطليعة - بيروت

أسرى الحرب
عبر التاريخ

جميع حقوق الطبع محفوظة
لدار الطليعة ــ بيروت

ص.ب ١١١٨١٣
تلفون ٣٠٩٤٧٠ ــ ٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى

آب (اغسطس) ١٩٧٩

عبدالكريم فرحان

أسرى الحرب عبر التاريخ

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

مقدّمة

عرف الانسان القتال منذ وجد على الأرض وقد جره الى هذا حب السيطرة والتغلب الذي كان يقابل بالاباء وعدم الخضوع ، فلقد ابى الانسان ان يذعن او يخضع لانسان آخر ولا مفر من القتال الذي يتمخض في الغالب عن قتل احد من المتخاصمين او اصابته ثم تطور القتال بين الفرد والفرد واتخذ مظهرا جماعيا واصبح قتالا بين الاسر والقبائل ، ولا بد من اختيار اشجع المقاتلين واقواهم للقيادة واطاعته طاعة عمياء وهكذا ظهرت الحرب التي خلقت الزعيم والرئيس والملك (١) واصبحت حربا بين المدن والمقاطعات والاقاليم ثم انتهت الحرب الى قيام الدولة واخيرا تحولت الى حرب عصرية شاملة امتدت الى جميع القارات والمحيطات ولم تقتصر على دولتين او ثلاث بل خاضها عدد كبير من الدول وشملت جميع السكان وتناولت جميع المرافق ومصادر الثروة والانتاج وستكون حربنا القادمة ــ وقانا الله شرها ــ حربا نووية ماحقة لا تبقي ولا تذر .

ومهما قيل في الحرب وويلاتها ومآسيها وبصرف النظر عما الحقته بالانسانية من دمار وخراب فقد كانت الاداة المختارة

(١) ول ديورانت قصة الحضارة ١ ــ الطبعة الثانية ١٩٥٦ ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ص ٤١

للانتخاب الطبيعي بين الامم والجماعات كما كانت عاملا قاسيا في اهلاك الشعوب الضعيفة ، ورفع مستوى الانسان من حيث الشجاعة والذكاء والمهارة . لقد حفزت الانسان ودفعته الى الاختراع وادت الى صنع آلات ومعدات ووسائل اصبحت فيما بعد ادوات نافعة (٢) .

ظهرت قضية الاسرى كاحدى نتائج الحرب الحتمية ، فقتل الاسرى وذبحوا ومثل بهم واكلت لحومهم في عصر الهمجية الاولى بدافع الانتقام والقضاء على الخصم .ولم يكن الغزاة في ايام الانسان الاولى يبقون على اسراهم من الرجال الا لغرض تعذيبهم او ذبحهم في معابد الآلهة وكان الاسرى يقتلون عادة في ساحة المعركة تخلصا من اطعامهم وارهابا لاقوامهم ، وكان السبايا من النساء والاطفال يضمون الى القبيلة ليزداد عدد سكانها ويتكاثروا بسرعة . ثم رأى الغالب ان يستفيد من الاسير ولعل نشوء الزراعة هو الذي نبه المنتصر الى ابقاء الاسير حيا ، فقلت المجازر والمذابح ، وقل اكل الناس بعضهم لحوم بعض وهكذا ابتدأ الرق واصبح الاسير عبدا للظافر وجزءا من متاعه وثروته وكان الملوك والزعماء والقادة أول من لجأ الى ذلك للانتفاع بمواهب الاسير وطاقاته واستغلال قوته . وسخر الاسرى في اشق الاعمال واصعبها كاقامة الجسور وشق الجداول وفتح الطرق وبناء المعابد والاهرام والعمل في المناجم ثم اصبح الرق عاملا على شن الحروب . لقد ادى القتال بين القبائل والجماعات البدائية الى ظهور اعراف وعادات تحدد القتل فعينوا اياما واشهرا لا يجوز القتال بها ، كذلك حددوا بعض القواعد لا يجوز عصيانها ومنعوا الاعتداء في بعض الاماكن كالاسواق ودور العبادة واخيرا ادخلت الحرب النظام والقانون .

---

(٢) ول ديورانت ـ قصة الحضارة ١ ـ الطبعة الثانية ١٩٥٦ ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ص ٤٣

وقبيل ظهور المسيحية وفي ايامها الاولى اصبح فداء الاسرى وتبادلهم في الحروب مألوفا باستثناء الحروب التي تجري مع القبائل البربرية والكفار، فليس سوى القتل او الاسترقاق في احسن الاحوال وغدت غايات الحروب واسبابها هي التي تتحكم في معاملة الاسرى، ففي الحروب الدينية تقضي الفضيلة بقتل الاسرى والكفار بينما نجد (روما) في عهد الامبراطور (يوليوس قيصر) تعج بالاحرار من الاسرى .

ثم تغيرت الحروب في القرون الوسطى وتبدلت بنتيجتها معاملة الاسرى ، وبدأ ظل الاسترقاق ينحسر في اوربه واتسع نطاق المفاداة وتبادل الاسرى وقل تعرض المدنيين للاسر اذ ليس من العدل اخذهم بجريرة المقاتلين ، وحدث تطور آخر مهم في معاملة الاسرى اثر ظهور نظام الجنود المرتزقة في الجيوش ، حيث جنح هؤلاء الى معاملة الاسرى بتساهل ولين خوفا من تعرضهم هم بالذات للاسر في معارك مقبلة ، فالغلبة ليست مؤكدة في جميع الاحوال .

وبدأت معاملة الاسرى تتحسن في اواخر القرن السادس عشر وكان للتعاليم الدينية وكتابات الفلاسفة الفضل الاول . فلقد اوصى (كروشيس) في كتابه (قانون الحرب والسلام) عام ١٦٢٥ م باحلال الفداء وتبادل الاسرى محل الاسترقاق وجاءت معاهدة (وستفاليا) عام ١٦٤٨ م فاطلق سراح الاسرى من دون فدية وهكذا انتهى عهد استرقاق اسرى الحرب وظهر نظام تبادلهم وتوالت كتابات المفكرين والمصلحين في القرن الثامن عشر وكتب (مونتسكيو) في كتابه (روح القوانين) عام ١٧٤٨ م ان الحق الوحيد الذي يملكه الغالب هو منع الاسير من الاضرار وليس من حقه ان يعامله كمال او متاع انما ينبغي ان يسعى الى ابعاده عن ميدان القتال فقط كما دافع عن الاسرى كتاب آخرون امثال (روسو) و (دي فاتيل) وفي منتصف القرن التاسع عشر اتسع نطاق القانون الدولي العام وتطورت قواعده وابتدأت الدول تعقد المعاهدات والتصريحات

والاتفاقات لتنظيم مركز اسرى الحرب وتقرير انواع من الحماية القانونية لاشخاصهم واموالهم بغية القضاء على القسوة وسوء المعاملة التي كان يلقاها الاسرى كما في تصريح (بروكسل) عام ١٨٧٤ م واتفاقية (لاهاي) عام ١٨٩٩ و ١٩٠٧ م واتفاقية جنيف لاسرى الحرب عام ١٩٢٩ واخيرا اجمع مندوبو (٦٣) دولة في (جنيف) عام ١٩٤٩ م ووقعوا في ١٢ آب اتفاقية جديدة لحماية ضحايا الحرب لازالت سارية المفعول .

لقد بحثت في كتابي هذا الذي سميته (اسرى الحرب عبر التاريخ) قضايا الاسرى من مختلف النواحي وما لاقوه من قتل واسترقاق وتعذيب واذى عبر العصور والازمان لتكون القصة كاملة رغم بشاعتها ، ولولا ان العادة جرت ان يسمى الكتاب بما يحتويه ويضمه او بعضه لسميته (مأساة انسانية) او (المسرحية الخالدة) والحقيقة فانها مأساة ازلية تدمي الافئدة والقلوب ، مسرحها الارض وبطلها (مارس) اله الحرب .

اما خاتمتها فمرعبة لا تحمل غير الدمار والموت والقتل والتشويه وستظل البشرية ما بقيت في حالة حرب او اصلاح لآثار الحرب او استعداد لشنها . انها كالجحيم وقودها الناس ، الاخيار والاشرار ، وبخاصة الشبان ، هكذا تدمر الانسانية ما تبني وتنفق كل ما لديها على البناء ثم على التخريب بالحروب وقد تنتحر الانسانية في حرب قادمة شاملة فتكون نهاية الحضارة والعالم .

البـــــاب الاول

الاسرى في العصور الاولى
وتبدأ من اقدم عصور التاريخ
حتي امتداد سلطان روما على العالم المتمدن

الفصل الاول

الاسرى في بلاد مـــا بين النهرين

يطلق المؤرخون اسم بلاد ما بين النهرين على الاقليم المحصور بين دجلة والفرات . وتؤلف ارض بـــابل او سهل شنعـــار القسم الجنوبي من هذا الاقليم . اما القسم الشمـــالي فيطلق عليه بـــلاد اشور (١) . ولم يكن شط العـــرب الموجود الآن في تلك الازمـــان العابرة بل كان النهران المباركان يصبان في البحر منفصلين ثم ارتد البحر نحو الجنوب تاركا وراءه بقعة من اخصب البقاع مكتظـــة بالبطائح والاهوار .

في ارض بابل الخصبة هذه وعلى ضفاف دجلة والفرات ، وفي مصر وعلى ضفاف نيلها ، نشأت اقدم مدن العالم ، ومنها بزغ فجر الحضارة الاولى ، وفيها نشأ فن الزراعة الذي لم يهتد اليه الانسان الا بعد كفاح استغرق حقبا طويلة قضاها في الصيد والقنص وجمع الاقوات من ضفاف الانهر وسواحل البحار ، وكانت الزراعة بداية لعدد من المخترعات كمـــا احدثت تغييرا كبيرا في النظم الاجتماعية وهي التي دعت الانسان الى الاستيطان والاستقرار واقامة المساكن والاسوار فتكاثر الناس ونشأت الجماعـــات التي بدأت تتنازع فيما

....

(١) الرافدان ص ٢٣ تأليف سيتون لويد ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس .

بينها ، فظهرت الحاجة الى الزعماء والقواد ليحموا الديار ويردوا الاعداء .

وادرك الانسان قيمة العمل ، فبدت حاجته الى الرجال في فلاحة الارض والعناية بالزرع ، فاقلع الزعماء عن قتل الاسرى وبدأ المنتصر يسترقهم لينتفع بهم في خدمته واخذ الرق يكتسب طابعه الاجتماعي المعروف .

ان التاريخ المدون قد بدأ فيما بين النهرين حوالي النصف الثاني من الالف الرابعة قبل الميلاد ، اما قبل ذلك فغامض مجهول ويرجح بعض المؤرخين سكنى الارض البابلية منذ ستة آلآف سنة قبل الميلاد ، مستدلين على ذلك ببعض الآثار السابقة للتأريخ المدون وبعض القصص القديم . ان الاقوام الاولى التي استوطنت سهل شنعار كانت خليطا متنافرا من شعوب سامية واقوام سومرية يصعب معرفة السابق منها ويرجح ان الاخيرين جاؤا من الشرق من ارض جبلية واحتلوا الارض التي سميت باسمهم ، اما الساميون فجاؤا من الجزيرة العربية على شكل موجات في حقب مختلفة فأقاموا المدن وفلحوا الارض وبدأوا يتبادلون الحاصلات واهتدوا الى النحاس وكانت لهم الغلبة في القسم الشمالي من السهل الذي سمي ببلاد اكد (٢) فيما بعد .

خاضت المدن السومرية والاكدية المعارك والحروب للسيطرة على طرق التجارة،لكن الآثار التي خلفوها من الواح ومسلات اقتصرت على تدوين انتصارات الملوك وتخليد امجادهم (فلوحة العقبان) خلدت ذكرى انتصار (كلح) السومرية على جارتها (ادما) في المعركة التي نشبت حوالي ٢٩٠٠ ق. م. ولم تنقش عليها سوى صورة الملك وجنوده وكتائبه ، اما الاثر المعروف (بلوحة النصر) فقد خلد انتصار احد ملوك اكد على اعدائه واسره ثلاثة ملوك وتكبيلهم

....

(٢) تاريخ العالم — المجلد الاول — الفصل السادس عشر . الناشر خون . ا . هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

بالاغلال . وكان السومريون يبيعون من يغلبونهم عبيدا او يذبحونهم في ميدان المعركة عند كثرة عددهم وقلة من يشتريهم ، كما اعتادوا ذبح عشر الاسرى في المعابد قربانا للآلهة ، وكان الاسرى يقتلون بان يوضعوا في شباك يتعذر الافلات منها (٣) .

اما الاسرى من الملوك فكانوا يرافقون المنتصر وهم مقيدون بالاغلال زيادة في اذلالهم ورغبة في اظهار قوة الزعيم وبأسه ولارهاب من تسول له نفسه التمرد والعصيان من الامراء والحكام .

كان الرق عند السومريين نظاما معترفا به واستخدم الكثير من العبيد في المعابد والحقول والقصور وكان اغلبهم من اسرى الحرب ومن سكان مدن سومرية هزمت في القتال .

كان العبد ملك سيده يستغله كما يشاء كأي مال منقول ويستطيع السيد وشمه وجلده ومعاقبته بقسوة اذا حاول الهرب ،لكن مصلحة السيد قضت ايضا ان يظل العبد قويا قادرا على العمل لذلك عومل بلطف وترتبت له حقوق قانونية فله ان يدخل في معاملات تجارية ويستدين النقود ويشتري حريته من سيده وكان سعر العبد حوالي عشرين (شيقلا) وهو سعر يقل عن سعر الحمار (٤) .

لقد انقسم المجتمع السومري الى طبقات ومراتب كثيرة وانتشرت فيه تجارة الرقيق وكان حق الملكية مقدسا لديهم (٥) .

ونرى العبيد في اور في عهد الاسرة الثالثة حوالي ٢٤٠٠ ق.م يؤلفون الطبقة الثالثة وكان العبد ملكا لسيده يتصرف فيه كما يهوى سواء اسره في الحرب او اشتراه او ولد من عبد في خدمته ، وللعبد

....

(٣) قصة الحضارة ــ الجزء الاول ــ المجلد الاول ١٩٥٦ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٢٧ تأليف ول ديورانت .

(٤) السومريون ص ١٥ تأليف صموئيل نوح كريمر ترجمة الدكتور فيصل الوائلي وكالة المطبوعات ــ الكويت ١ ــ ١١ ٩٧٣

(٥) قصة الحضارة الجزء الاول ــ المجلد الاول ص ٢٥ تأليف (ول ديورانت) ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة ١٩٦٠

ان يشتري حريته وللسيد ان يعتقه او يبيعه . واباح القانون للعبد أن يعترض على بيعه ويعتبر ايواء العبد الهارب من الجرائم الكبيرة ولا بد من تمييزه عن غيره بالوشم او بارتداء لباس خاص اما اذا اصابه اذى فالتعويض يدفع لسيده .

وللعبد حق امتلاك الارض والمتاع كما تسمع شهادته امام المحاكم . ولعل ذلك كان محاباة للطبقات العليا ، فقد يضطر الحر الى تسليم زوجه او ولده للاسترقاق وفاء لدينه ، وقد تتزوج المرأة الحرة بعبد وحينئذ يمنح بعض الحقوق تيسيرا لامرها (٦) .

وازداد عدد الاسرى لكثرة المعارك والحروب واصبحوا يؤلفون قسما كبيرا من طبقة العبيد التي اخذت تنموا في العهد البابلي ، وكان ثمن العبد يختلف من عشرين ريالا الى خمسة وستين ريالا بالنسبة للمرأة ومن خمسين ريالا الى مائة ريال بالنسبة للرجل ، وكانوا يؤدون معظم الاعمال العضلية في المدن .

كانت معاملة العبيد في بابل بعيدة عن العنف والارهاق . والظاهر ان علاقتهم بسادتهم كانت حسنة ودية ، فقد يشرك السيد بعض عبيده في اخص شؤونه او يضم جاريته الى حريمه وله ان يكوي عبده او يشمه تمييزا له عن غيره وان يبيعه او يرهنه وفاء للدين واذا هرب العبد فان القانون لا يبيح لاحد ان يحميه ، ويكافأ من يقبض عليه . وللدولة ان تجنده كما يجند الفلاح الحر للخدمة العسكرية ولها ان تسخره للقيام ببعض الاعمال العامة كشق الطرق وحفر القنوات .

وفي عهد (حمورابي) المشرع المشهور حصل العبيد على بعض الحقوق والضمانات وكان علي السيد أن يؤدي عن عبده اجر الطبيب ، وتقديم الطعام اليه ، اذا مرض او تعطل عن العمل او

....

(٦) تاريخ العالم — المجلد الاول — الفصل السادس عشر . الناشر جون هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٤٨ .

بلغ سن الشيخوخة . وكان من حق العبد ان يتزوج بحرة فاذا ما رزق منها ابناء كانوا احرارا وله ولزوجته ان يقتنيا املاكا فاذا مات ورثت زوجته واولاده نصف التركة . واذا مات السيد الذي ضم جارية الى حريمه وانجبت له اولادا ، اصبحت هي واولادها احرارا (٧) ، وكان للسيد ان يوكل الى عبيده عملا من الاعمال التجارية ، وللعبد ان يحتفظ ببعض ارباح العمل وان يبتاع بها حريته ، وكان بعض السادة يعتقون عبيدهم احيانا اذا ما ادوا خدمات ممتازة ، او خدموا فترة طويلة باخلاص وامانة ، لكن هذا النوع من الحرية لم ينله الا القليلون ، وكان اغلب العبيد يقنعون من حياتهم بكثرة الابناء الذين صاروا اكثر عددا من الاحرار وغدت طبقة الارقاء اكبر طبقات المجتمع البابلي (٨) ، لكن هذا لا ينفي قيام بعض الملوك والقادة والزعماء في بعض الاحيان بقتل اسراهم والتمثيل بهم وهم احياء بسبب مقاومتهم الشديدة واستبسالهم في القتال او تحريضهم اقوامهم المغلوبة على الثورة والانتفاض .

وكانت تؤخذ الفدية من اسرى المعركة في حالات نادرة اذ كان الاسرى يفتدون بالمال من مواردهم الخاصة وعند عدم كفايتها فعلى العبد المحلي تدبير المال والا فالدولة هي المسؤولة عن تدبيره (٩) .

اما في (اكد) فكان المغلوبون يباعون ليكونوا عبيدا ، فاذا لم يكن في بيعهم ربح ذبحوا في ميدان القتال ، وكان يحدث احيانا ان يقدم عشر الاسرى قربانا الى الآلهة .

اما الاشوريون فكانوا قساة غلاظ الاكباد ، يدمرون المدن التي يفتحونها بعد حصارها ويتفننون في القتال والتعذيب والتمثيل ، وكان

....

(٧) تاريخ العالم – المجلد الاول – الفصل ١٢ الناشر جون ٠ ١ ٠ هامرتن ترجمة وزارة التربية المصرية القاهرة ٠ مطبعة مصر ١٩٤٨

(٨) قصة الحضارة ٠ ج ١ المجلد الاول تاليف ول ديورانت ترجمة محمد بدران ص ٢٠٦ الطبعة الثانية ١٩٦٠

(٩) شريعة الحرب في الاسلام (مخطوط) تاليف الرئيس محمد المعراوي .

الاسير يوهب عبدا ، ويكافأ الجنود عن كل رأس مقطوع يحمل من ميدان المعركة، وقد يعمدون في بعض الاحيان الى قتل جميع الاسرى في ساحة المعركة عند كثرتهم لكيلا يستهلكوا الكثير من الطعام ، او يكونوا خطرا على مؤخرة الجيش ، وكانت طريقة قتل الاسرى ان يركعوا متجهين بظهورهم للغالبين ثم تضرب رؤوسهم بالهراوات او تقطع رقابهم بالسيف بينما الكتبة يحصون عدد القتلى ليعرفوا مقدار خسائر العدو ويقدروا حصة الجنود من الانفال التي كانت تزداد تبعا لازدياد عدد اسراهم . وكان الملوك يرأسون هذه المجازر الفظيعة في بعض الاحيان ويبدأونها بفقأ عيون بعض الاسرى أو قطع رقابهم، اما الاسرى من الامراء والاشراف فكانوا يعذبون قبل القتل، فتعلم آذانهم ، وتجدع انوفهم وتقطع السنتهم وايديهم وارجلهم او تسلخ جلودهم وهم احياء او تشوى اجسامهم فوق النار او يلقى بهم من ابراج عالية (١٠) .

ويحدثنا التاريخ أن ملوك اشور قد اشتهروا بالقسوة فالملك (اشور ناصربال الثاني) الذي تربع على العرش عام ٨٨٤ ق. م استخدم الاسرى في اعادة بناء عاصمته (نمرود) وشيد لنفسه قصرا فخما وكان يسلخ جلود الاسرى وهم احياء . اما المدن التي تتحداه وتصمد بوجهه فتستباح بعد فتحها ، وتتعرض لمجازر وحشية ثم ينفي بقية السكان . وكان الملك (تغلات فلاسَّر) الذي ارتقى عرش اشور عام ٧٤٥ ق. م يصلب الاسرى على الخوازيق بينما يقوم الرماة بقتلهم بالسهام والمدقاة (١١) واتبع هذا الملك سياسة خاصة في البلاد التي فتحها اذ كان يأخذ من كل مملكة مغلوبة ما يقرب من نصف سكانها ويوطن في محلهم اسرى غرباء

....

(١٠) قصة الحضارة — جزء ٤ — الفصل الثاني — تأليف ول ديورانت ترجمة محمد بدران ، الطبعة الثانية ١٩٦١

(١١) تاريخ العالم — المجلد الثاني — الفصل ٢٩ الناشر جون ١٠ هارتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية القاهرة مطبعة مصر

من ممالك مغلوبة اخرى وسار خلفاؤه على هذه السياسة وبذلك تسنى للاشوريين اضعاف السكان الأصليين ، وسهل عليهم اخماد الثورات وكان (سرجون الثاني) الذي ارتقى عرش اشور عام ٧٢٢ ق.م يستعمل منتهى القسوة مع العصاة بعد اسرهم ، اذ كان يسلخ جلودهم وهم احياء . وعندما نشبت الثورة في فلسطين بزعامة السامريين ، هاجم الثائرين بعنف وقسوة واخذ منهم ما يزيد على السبعة وعشرين الف اسير من اقوى الرجال واشدهم بأسا من (بابل) و (كوثى) و (عوا) و (سيقاريم) (١٢) واتبع الطريقة نفسها ــ اي ترحيل السكان ــ عندما قهر الكلدانيين فأخرج الكثير من اسراهم ووطن مكانهم (حيثيين) من الجبال ، ويزعم الملك الاشوري (سنحاريب) الذي قاد جيشه الى فلسطين لقمع ثورة اليهود عام ٧٠١ ق.م انه استولى على ست مدن مسورة واسر اكثر من مائتي الف ولعل هؤلاء الاسرى هم سكان المدن التي احتلها اذ يستبعد ان يكون جيشا في مثل ذلك الزمن يبلغ اسراه مثل هذا العدد ناهيك عن القتلى والهاربين . وقد استخدم هذا العدد من الاسرى عمالا وفعلة لتعمير عاصمة ملكه ببناء القصور والمعابد وغرس الاشجار وشق الجداول والترع . وهذا الملك هو الذي دمر (بابل) وسواها بالارض وحول مجرى احد جداول الري الكبيرة وسلط مياهه على الانقاض ليزيل معالم المدينة . وفي عهده استخدم الاسرى لجر العربات المحملة بالخشب بدلا من الدواب (١٣) . ولما استولى (اسرحدون) على (صيدا) دمرها بكاملها وعاد بموكب مهيب يتبعه الآف الاسرى والكثير من الاسلاب والغنائم يتقدمهم نبيل من (صيدا) علق على رقبته رأس ملكه المقطوع .

وكان (اشور بانيبال) يفخر انه حرق بالنار ثلاثة الآف اسيرا وهم احياء ، ولم يبق على واحد منهم حيا ليتخذه رهينة ويدون في

....

(١٢) الرافدان ــ الفصل الثالث ــ سيتون لويد ــ ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس

(١٣) تاريخ العالم ــ المجلد الثاني ــ الفصل ٣١ ــ الناشر جون ١٠. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية القاهرة مطبعة مصر

مكان آخر (ان اولئك المحاربين الذين أذنبوا في حق اشور وائتمرو بالسوء علي ... فقد انتزعت السنتهم من افواههم المعادية واهلكتهم . ومن بقي منهم على قيد الحياة قدمتهم قرابين جنائزية ، واطعمت باشلائهم المقطعة الى الكلاب والخنازير والذئاب ... وبهذه الاعمال ادخلت السرور على قلوب الآلهة العظام) (١٤) ولقد اقام هذا الملك حفلا في (نينوى) عام ٦٤٢ ق. م احتفاء بامجاده وانتصاراته وشد اربعة من الملوك الاسرى في عربته الحربية وقطع رأس ملك (عيلام) الثائر وابنه (١٥) وربط في عربته عند عودته بعد اخماد ثورة عيلام عددا من الامراء الثائرين لجرها بدلا من الخيول .

ويسجل احد ملوك اشور في نقوشه (ان حملاتي الحربية تهلك الانسان والحيوان .... ان الآثار التي اشيدها قد اقيمت من الجثث الآدمية ، التي قطعت منها الرؤوس والاطراف ... ولقد قطعت ايدي كل من اسرتهم احياء) .

خلفت لنا اشور نقوشا تصور الرجال يسلخون او تقطع السنتهم وهم احياء .

والحقيقة فان اشور ذات الامجاد العسكرية والفتوحات الواسعة كانت شديدة القسوة في معاملة الثائرين والعصاة لاسيما الملوك والزعماء اذ كانوا يلاقون ضروبا من الاهانات والوانا من التعذيب الوحشي قبل ان تزهق ارواحهم . وكان نظام الحكم خاليا من الرحمة والانسانية معتمدا على القوة الهمجية المدمرة . وكان الجيش الاشوري كالاعصار المدمر والسيل الجارف ، ينشر الخراب والدمار ، ويهلك الحرث والنسل فهابته جميع الاقوام والممالك وعاش جيران اشور في خوف دائم .

....

(١٤) تاريخ العالم ـ المجلد الثاني ـ الفصل ٣١ ـ الناشر جون ٠ ا ٠ هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ـ القاهرة ـ مطبعة مصر .

(١٥) تاريخ العالم ـ المجلد الثالث ـ الفصل ٣١ الناشر جون ٠ ا ٠ هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ـ القاهرة ـ مطبعة مصر .

اما الكلدانيون الذين دام حكمهم زهاء سبعين سنة فكانوا اخف قسوة من الاشوريين واقل رغبة في التوسع والفتوح ، انصرفوا بالدرجة الاولى الى البناء والتعمير وتوسيع (بابل) وتجميلها وانشأوا فيها الجنائن المعلقة احدى عجائب الدنيا السبع واستردت (بابل) مكانتها من جديد وعادت تساهم في الحضارة الانسانية التي اضاف اليها الكلدانيون الكثير من المعارف والفنون والصناعات وبلغوا مرحلة متقدمة في علم الفلك واهتموا اهتماما بالغا بالادب والدين فانشأوا المعابد وزينوها بالذهب بدلا من الفضة (١٦) ولقد اكتفى (بختنصر) بعد اخماد ثورة (يهودا) عام ٥٩٦ ق.م باخذ سبعة الآف اسير مسلح الى (بابل) مع ملكهم (يهوياقين) والف عامل مقيدين بالاغلال ، لكنه لجأ الى القسوة والعنف عندما ثارت ثانية عام ٥٨٧ ق. م في عهد ملكها الجديد (صدقيا) واتفاقه مع مصر و (صور) و (صيدا) فخرب (اورشليم) واحرق الهيكل ونقل نفائسه الى (بابل) وساق معه اربعين الف اسير يهودي وذبح اولاد (صدقيا) امام عينيه ثم فقئت عينا الملك ولجأ بقية السكان الى مصر .

....

(١٦) الرافدان — الفصل الثالث — سيتون لويد — ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس

الفصل الثاني

الاسرى في بلاد الفراعنة

يحدثنا التاريخ ان وادي النيل وبلاد الرافدين كانا مهد المدنية، وان اقواما بدائية استوطنت مصر خلال العصر الحجري القديم تنتهي آثارها حوالي ٥٠٠٠ ق.م او قبل ذلك (١) ثم غزتها اقوام من (ارتيريا) و (الصومال) و (جنوب بلاد العرب) فأسست مملكتين احداهما في الشمال والاخرى في الجنوب قبل عهد الاسر ببضعة قرون(٢) وتوحدت المملكتان لاول مرة في عهد الملك (مينا) وابتدأ الدور المعروف باسم (الدولة القديمة) وبلغ أوجه في عهد الاسرة الرابعة التي قام ملوكها بتشييد الاهرام . وانقضى (عصر الاهرام) وتلاه (عصر الاقطاع)(٣) وفي هذا العصر غزت مصر قبائل من الساميين الرحل ، اسست فيها اسرة من الرعاة المعروفين بـ (الهيكسوس) واستطاعت مصر طرد الغزاة ومرت في عهد (الامبراطورية الحديثة) واصبحت امبراطورية واسعة ذات جيش

(١) تاريخ معالم الانسانية ـ الجزء الاول ص ١٦٦ ـ هـ ـ ج ـ ويلز ترجمة عبد العزيز توفيق

(٢) تاريخ العالم ـ المجلد الاول ـ الجزء الاول ـ الناشر جون ٠١٠ هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ـ القاهرة ـ مطبعة مصر ١٩٤٨ .

(٣) Ancient World. Breasted. Section 7.

جبار واسطول قوي ، امتدت حدودها من (النوبة) حتى (الفرات) . ثم حدث بعد ذلك غزو سوري لمصر قصير الامد . وفي عام ٦٧٠ ق.م سيطر الاشوريون لاول مرة على وادي النيل ثم عاد الحكم الوطني الى مصر ولم يكد ينقضي النصف الاول من القرن السادس قبل الميلاد حتى بدأت مصر تفقد مكانتها ودب فيها الضعف فاحتلها الفرس في عهد (قمبيز) عام ٥٢٥ ق.م ومكثوا فيها فترة طويلة حفلت بالثورات من اجل التحرر والانعتاق . وظلت مصر على الدوام شوكة دامية في جنب الامبراطورية الفارسية ومصدر متاعب لها ، ففي عام ٤٨٦ ق.م ثارت مصر على الاحتلال الفارسي وتمكن الفرس من اخماد الثورة بعد عامين من نشوبها . وفي عام ٤٦٠ ق.م ثارت مصر ثانية وعاونتها اليونان ، واحتلت الحملة الاثينية (ممفيس) . وتمكن الفرس من احتلال مصر من جديد بقيادة (ميجابازوس) عام ٤٥٥ ق.م واستمرت الثورات في مصر للتحرر من السيطرة الفارسية وتم (للاسكندر) فتحها عام ٣٣٢ ق.م بعد مقاومة ضعيفة قام بها الحاكم الفارسي . وبعد وفاة (الاسكندر) اصبحت حصة (بطليموس سوتر) احد قواده المشهورين وبه ابتدأت سلالة (البطالسة) المقدونيين وكان عهدهم عهد رخاء واصبحت (الاسكندرية) مقر العلوم والفنون وامتد نفوذهم في بعض الاحيان الى سورية الداخلية وبعض اجزاء الساحل الآسيوي وكانوا على علاقات حسنة مع (روما) التي بدأت تتسع وتنموا بسرعة عجيبة ثم اصبحت مصر حليفة (لروما) اسما وتابعة لها فعلا واخيرا ضمت الى (روما) واصبحت ملكا خاصا للقيصر (اكتافيان) بعد انتصاره في معركة (اكتيوم) البحرية الفاصلة(٤) ، وعين لها واليا مسؤولا اتامه مباشرة وبقيت مصر في حوزة الرومان حتى حررها (عمرو بن العاص) في عهد عمر بن الخطاب الخليفة

(٤) قصة الحضارة — الجزء الاول من المجلد الثالث — الفصل الثالث تأليف ول ديورانت — ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة ١٩٦١ .

الثاني فدخلها الاسلام واصبحت احدى قلاعه الحصينة ، ولعبت دورا خطيرا في وقف الغزاة وقدمت الآف الشهداء فحافظت على تراث العروبة والاسلام .

وبالرغم من تاريخ مصر الطويل الحافل وتدوين اخبار الفراعنة في النقوش والكتابة ووجود سجلات دائمة للمجتمعات تناولت التنظيم والقوانين والمعاهدات والعبادات وجباية الضرائب وشؤون الري وتوزيع المياه ، فاننا لم نجد ما يكفي لارواء ظمأنا لمعرفة احوال الاسرى وشؤونهم وقد يكون المصريون آثروا السلام شأن كثير من الامم ، لكن موقعهم الجغرافي حرمهم متعة السلام الدائم فخاضوا الحرب لا من اجل الحرب بل باعتبارها ضرورة دفاعية لا غنى عنها لصد الغزاة والمعتدين من الاجانب . وكانوا يباهون باعمالهم الحربية ، وتنبىء آثارهم ورسومهم المحفورة ، التي زخرت بها المعابد المصرية ، عن تمجيد لانتصارات ملوكهم ومعاركهم(٥) ففي (لوحة الزرافة) التي تعود الى ما قبل الاسر حوالي ٣٥٠٠ ق.م نرى محاربين مهزومين من الجنس الافريقي مجندلين في ساحة القتال وكأنما تنهشهم الاسود والعقبان ومنهم اسير يقوده رجل لعله مصري(٦) وهناك لوحة مشهورة رسم على وجهها منظر تدمير مدينة مسورة ورسم على الوجه الآخر صورة ارتال من الثيران والحمير والغنم وصفوف من شجر الزيتون مصحوبة بالعلامة الخاصة (بليبيا) . ويبدو ان المدينة تقع في ليبيا وان ارتال الحيوانات تمثل الغنائم والاسلاب . وفي حلية تزين صدر الملك (امنحتب الثالث) تظهر صورة محفورة تمثل الملك وهو يضرب آسيوين بائسين بقضيب من حديد . وقد

....

(٥) تاريخ العالم ـ المجلد الاول الفصل ١٧ الناشر جون ١٠ هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ـ القاهرة ـ مطبعة مصر ١٩٤٨ .

(٦) تاريخ العالم ـ المجلد الاول الفصل ١٥ الناشر جون ١٠ هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ـ القاهرة ـ مطبعة مصر ١٩٤٨ .

وجد في قبر الملك (كع) من ملوك الاسرة الاولى حوالي ٣٤٠٠ ق.م رقيقة من العاج حفر فيها رسم اسير مشدود الوثاق ونـــرى صورة للملك (ني . اوسر . رع .) من ملوك الاسرة الخامسة يطأ بقدميه اجانب من ثلاثة اجناس مختلفـــة وهناك كثير مـــن صور الحملات التأديبية التي قاموا بها في (بلاد الشام) و (ليبية) و (النوبة) و (منطقة الصومال) و (سيناء) وغيرها لضمان سلامة الطرق مـــع هذه البلاد التي كانت تمد مصر بـــالذهب والعـــاج والجلود وريش النعام (٧) وقد رافق الحملات عند عودتها كثير من الاسرى الذين تحولوا الى عمال وفعلة شأن جميع الاسرى في تلك العهود الغابرة فاستخدموا في بناء المدن والقصور والمعابد وكانوا يعاملون معاملة سيئة واستخدموا في الزراعـــة وشق الطرق وبناء الاهرام . وقد وجد منقوشا علـــى احد الاهرامات القديمة (ان مصريا واحدا لم يشتغل بها)(٨) ولكي ندرك مدى الجهد الذي قدمه الاسرى في بناء الإهرام والتعب الذي تحملوه نذكر علـــى سبيل المثال ان بناء هرم (خوفو الاكبر) استغرق عشرين عاما واستخدم فيه مائة الف عامل وان عدد احجـــاره يبلغ (٢٫٣٠٠٫٠٠٠) وان معدل وزن الحجارة يبلغ طنين ونصف وان ارتفاعه فوق الهضبة (٤٨١) قدما .

وكان بناء الاهرام في الحقيقة مصدر بلاء عظيم اذ هلك بسببه آلآف البشر ولم يكن الباعث على انفاق هذه الجهود الجبارة والاموال الطائلة سوى امل الفراعنة في الخلود ، اذ اعتقد المصريون ان حياة ثانية تعقب الموت وان هذه الحياة لا تختلف عن الحياة الدنيـــا ، ولم يكتف الفراعنة بتشييد هذه الصروح الفخمة لتخليدهم بل لجأوا الى عادة اشد قسوة وفظاعة تتصل بفكـــرة غامضة عـــن الدم والعالم الروحي وهي ذبح الاسرى حتى يعيش هؤلاء الزعماء الى الابد .

(٧) تاريخ العالم ـــ المجلد الاول الفصل ١٧ الناشر جون . ١ . هامرتن ترجمـــة وزارة التربية والتعليم المصرية ـــ القاهرة ـــ مطبعة مصر ١٩٤٨ .

(٨) شريعة الحرب في الاسلام ص ٣٤٦ ـــ مخطوط ـــ الرئيس محمد المعراوي

واحدث فتح مصر للبلاد المجاورة تغيرات اساسية في المجتمع المصري واصبح استرقاق الاجانب سنة متبعة وكان أسرى الحرب الاجانب يعتبرون رقيقا للدولة تستخدمهم في اعمالهـا ومشاريعها اما الرق الخاص أي استرقاق فرد لآخر فقد ظهر بعد الاسـرة الرابعة(٩) وكان الملوك يهبون للمعـابد الكثير مـن اسراهم العبيد باعتبارهم نصيب الآلهة من غنائم الحرب .

ويصف لنـا الرئيس محمد المعراوي في رسالتـه المخطوطة ـ شريعة الحرب في الاسلام ـ احد الرسوم المنقوشة على معبد مصري فيقول (رأيت رسما منقوشا علـى جدار في الاقصـر او في معبد الكرنك جنوب مصر ، وهو يمثل كيفية احصاء عدد أسـرى المعارك التي خاضها رعمسيس الثاني ـ على ما اذكر ـ وذلك بقطع يد كل اسير ، ثم احصاء عدد الايدي المقطوعة ، وقد بدا في الرسم الاسرى في صفوف بحراسة الجند ، وفي وسط الميدان وقف القائد الى جانب عجلته يشهد التعداد ، وامامـه الجلادون يقطعون الايدي ، والاسرى الذين قطعت ايديهم ملقون على الارض بحالة الاغماء، وبدا في الرسم جنديان يحملان نقالة ملأى بالايدي الـى المحاسبين الذين جلسوا على الارض وبايديهم الورق يسجلون عليـه العدد ، والى اليسار القيت الايـادي المقطوعـة اكداسـا . وقد علقت في المتحف الحربي بقلعة محمد علي في القاهرة لوحة زيتية حديثة تمثل المشهد المذكور) .

ويحدثنا التاريخ ان (امنحتب الثاني) الذي تربع على عرش مصر عام ١٤٤٧ ق.م عاد منتصرا من احدى حملاتـه في (سورية) و (فلسطين) وابحر الى (طيبة) يرافقه سبعة ملوك اسرى دليت رؤوسهم وهم احياء من مقدم السفينة ذبح ستة منهم في معبد (آمون) قربانا للرب ثم اتجه الى بلاد النوبة للقضاء على التمرد فيها وهناك

....

(٩) مذكرات في القانون الروماني ص ٢٩ ـ الاستاذ عبده حسن الزيات

شنق احد الأسرى من الامراء ليكون عبرة وان خلفه (تحتمس الرابع) الذي ارتقى عرش مصر عام ١٤٢٠ ق.م عاد من حربه في (نهاربين) الواقعة على نهر الفرات في دولة (الميتاني) بكثير من الغنائم والعبيد ولست اشك ان هؤلاء العبيد هم الاسرى الذين جيء بهم ليستخدموا في البناء والتعمير او ليباعوا كعبيد وارقاء (١٠) .

ويلاحظ ان أغلب الفراعنة في الفترة الاخيرة امثال (سيتي الاول) و (رمسيس الثاني) وغيرهم كانوا يأتون باسراهم الى مصر بعد أن لمسوا مقدار الفوائد التي جنتها البلاد منهم ، وغدت مصر تعج بالعبيد من السوريين والنوبيين واليهود والحثيين وامتلأت قصور النبلاء والاشراف بالعبيد واصبح من النادر ذبح الاسرى ، واخذ الملوك يفتخرون بكثرة اسراهم ، ويأبون الا ان يساقوا بين ايديهم او يستعرضونهم والملك جالس على عرشه ، ولقد وجدت نقوش ورسوم على جدران معبد نوبي تصور الملك (رمسيس الثاني) جالسا على العرش يستعرض اسراه من الآسيويين وبدا في صورة اخرى يذبح احد الاسرى وفي مكان ثالث يستولي على حصن سوري ويتلقى اسرى آخرين .

ولجأ ملوك مصر الى جمع السجناء الذين ادانهم القضاء ، واسرى الحرب فارسلوهم الى مناجم الذهب وعاملوهم بقسوة ، فطعامهم قليل وليس لهم ثياب تستر عريهم وكانوا يظلون دائبين على العمل حتى تخور قواهم فيموتون في ذل الاسر .

ولقد امدت الحروب الكثيرة مصر بآلاف الاسرى فعاونوا على انشاء الضياع الواسعة وعلى رقي فن الهندسة . وقد اهدى (رمسيس الثالث) في اثناء حكمه (١٣٫٠٠٠) اسير الى الهياكل(١١) .

---

(١٠) تاريخ العالم ــ المجلد الاول ــ الجزء الثاني . الناشر جون ٠١٠ هامرتن ترجمة وزارة التلعيم والتربية المصرية ــ القاهرة ــ مطبعة مصر ١٩٤٨ .

(١١) قصة الحضارة ــ الجزء الثاني من المجلد الاول ــ الفصل الثالث ــ ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة ١٩٦١

الفصل الثالث

الهنـــد والصين

ا ـــ الهند

في عام ١٩٢٤ اكتشف المنقبون في غرب الهند عند (موهنجو ـــ دارو) على الضفة الغربية من (السند الادنى) وفي (هاريا) على بعد بضع مئات من الاميال في الشمال آثارا دلت على قيام مدن ذات حضارة زاهرة نشأت خلال الالف الرابع والثالث قبل الميلاد وكانت تربطها (بسومر) و (بابل) صلات تجارية ودينية وفنية(١) ثم دخـــل الآريون الهند طلبا للارض والمراعي والانعام ، وكانوا اقويـــاء ، محاربين شجعانا فسيطروا على الهند ثم زحفوا تدريجيا شرقا على امتداد (السند) و (الكنج) فخضعت الهند لسلطانهم .

وربما كان الآريون الاوائل لا يميزون تمييزا كبيرا بين الكاهن والمحارب الحاكم وسواد الشعب ، وحسبهم انهم فئة متفوقة تمتاز على غيرها بالقوة والشجاعة فلونهم ابيض وانوفهم طويلة بخلاف السكان الاصليين (السودرا) اذ كانوا سود البشرة عراض الانوف .

كان الآريون يحتقرون (السودرا) وينزلونهم الى مرتبة الاسرى

(١) قصة الحضارة الجزء الثالث ـــ الفصل الثالث ـــ تأليف ول ديورانت ترجمـــة الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٥٧

ان لم يبيدوهم وهكذا ظهر أول تقسيم على أساس اللون ، ولما رأى الآريون قلة عددهم بالنسبة لمن اخضعوهم من السكان آثروا العزلة وحرموا الزواج خارج حدود جنسهم بغية المحافظة على ذاتيتهم العنصرية وتعاونهم ولئلا تبتلعهم الاغلبية وتمتصهم .

ثم انقضى عهد الغزو والقتال وآن للقبائل الآرية ان تستريح وتستقر فتحولت الى الزراعة وامتلكت الضياع والحقول . واخيرا فضل الغزاة الاقوياء الابقاء على حياة (السودرا) للانتفاع بهم في الزراعة والخدمات الاخرى وكان المزارعون حريصين على ان يصبحوا من ملاك الضياع والحقول ولا بد من القاء العبء الاكبر على عاتق (السودرا) الذين ذاقوا الامرين وسمح لهم احيانا بالبقاء في قراهم وزرع قطعهم الصغيرة من الارض على ان يؤدوا الخراج لسيدهم الذي يستطيع ان يهب حقوقه او يتنازل عنها لافراد اسرته او شيعته من المقاتلين .

وتزايدت الفروق بين السكان زيادة مطردة ولعلها كانت طليعة النظام الطائفي الذي استعمل اخيرا وتحول منصب الملك الى منصب وراثي وساهم اولاده واحفاده في تكوين طبقة (الكشاتريا) اي الطبقة الحاكمة ، واقتضت اعباء الملك وواجباته فصل وظيفة الكهنة عن وظيفة الحكم واناطتها بالكهان الذين أصبحوا يؤلفون طبقة ثانية . وقام بين الطبقتين تحالف متين املته المصلحة ، وتعاون وثيق لاستغلال الناس وامتلاك الثروة .ولم يعد يربط الغني صاحب الضيعة الكبيرة بقومه الفقراء سوى الجنس تقريبا(٢) وما ان دخلت الهند عصر البطولة (١٠٠٠ — ٥٠٠ ق.م) حتى اصبحت اعمال الناس مقسمة بالنسبة الى طبقاتهم الاجتماعية بحيث يرث الولد عمل طبقته وتحددت الفوارق بوضوح ، ففي القمة كانت طبقة(الكشاتريا) او المقاتلون الذين يرون من العار ان يموت الرجل في فراشه وكانوا

....

(٢) تاريخ العالم — المجلد الثاني — الفصل الاربعون — الناشر جون .١٠ هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية — القاهرة — مطبعة مصر .

يضنون علـــى نسائهم بالزواج مـــن غيرهم حتى بالنسبـــة للكهنة (البراهمـــة) وكانت آخر طبقات المجتمـــع هي (السودرا) وتؤلف غالبية السكان وتشمل الصنـــاع والفلاحين ورقيق الارض وهناك فئة تدعى (الباريا) لم تكن تنتمي الى اية طبقة وتضم القبائل الوطنية التي لم ترتد عن ديانتها واسرى الحرب ورجالا تحولوا الى عبيد على سبيل العقاب ولم تلبث هذه الفئة ان تحولت بمرور الايام الى طبقة (المنبوذين)(٣) .

وبالرغم مـــن ان الهند مجدت القتـــال وكرمت المحـــاربين ووضعتهم في اعلى الطبقات ، فالسلام كان هو السائد ، وكانت الحروب نادرة والاسرى قليلين ، ولم يحدثنا التاريخ عن قسوة في معاملتهم او تفنن في تعذيبهم ، شأن الامم الشرقية الاخرى كالآشورين وغيرهم ، واذا كان الغزاة الاريون قد عاشوا على الحرب والسلب في اول الامر فأنهم سرعان ما ذابوا وانصهروا في المجتمـــع الهندي الكبير وابتلعتهم القارة الهنديـــة الواسعـــة وطبعتهم بطـــابعها ، فتحولوا الى الزراعة والصناعة .

وفي عام ٣٢٧ ق.م عبر (الاسكندر الكبير) جبـــال (هندكوش) بعد ان فتح (فارس) ثم عبـــر (السند) عام ٣٢٦ ق.م وشق طريقه بالقتال عبر (تاكسلا) و (روالبندي) متجها نحو الجنوب والشرق والتقى بجيش الملك الهندي (بورس) الذي استسلم بعد هزيمـــة نكراء فعاملة (الاسكندر) بالحسنى وعينه ملكا على الهند المفتوحة كلها . وعاد (الاسكندر) الى الغرب ولم تمض بضـــع سنوات حتى استطاع شاب هندي ينتمي الى طبقـــة (الكشاتريا المقاتلة يدعى (تشاندرا جوبتا موريا) من تحرير البلاد وطرد الحاميات المقدونية ثم استولى علـــى عرش مملكة (مجاذا) واسس فيهـــا اسرة (موريا) التي حكمت الهند والافغان مائة وسبعة وثلاثين عامـــا . ولقد اقام

....

(٣) قصة الحضارة ــ الجزء الثالث ــ الباب الرابع عشر ول ديورانت ترجمـــة الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٥٧

(جوبتا موريا) حكومة قوية عادلة وصفها لنا (المجسطي) سفير الاغريق واثنى عليها ورآها مماثلة للحكومة اليونانية وقال ان المدينة الهندية مساوية للمدينة اليونانية مساواة تامة وتمتاز عليها ، حيث لا رق في الهند بخلاف اليونان(٤) ثم خلفه (اشوكا) عام ٢٧٣ق٠م الذي بدأ حكمه بالقسوة والعنف ثم تغيرت سيرته فأمر بهدم السجن وتخفيف العقوبات واطلاق سراح اسرى قبيلة (كالنجا) الثائرة ورد اليها اراضيها وارسل اليها اعتذارا رقيقا مؤثرا ولم يلبث ان اعتنق البوذية ولبس مسوح الرهبان حينا ، واصدر عدة مراسيم تحث على التقوى والتسامح الديني واحترام جميع العقائد ، وتنادى بالعدل والمساواة ، فانتشرت البوذية في ارجاء الهند وبدأت غزوها السلمي لآسيا(٥) .

ومرت الهند بحقبة غامضة بلغت حوالي ستمائة سنة قلت فيها النقوش والوثائق ، ولعل ابرز ما فيها عصر الغزوات حيث نزحت جموع من(السوريين)و (اليونانيين) و (السكيت)الى (البنجاب) خلال القرن الثاني والاول قبل المسيح ، ففتحوه وظلوا فيه ما يقرب من ثلاثة قرون حيث اقاموا فيه حضارة (يونانية بكترية) ثم استولت قبيلة (كوشان) من قبائل اواسط اسيا على (كابل) واتخذتها عاصمة لها وامتد نفوذها في ارجاء الجزء الشمالي الغربي من الهند ومعظم آسيا الوسطى وكان اعظم ملوكها (كانشكا) الذي ابتدأ حكمه عام ١٢٠م(٦) .

....

(٤) قصة الحضارة ــ الجزء الثالث ــ الباب السادس عشر ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٥٧

(٥) قصة الحضارة ــ الجزء الثالث ــ الباب السادس عشر ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٥٧

(٦) قصة الحضارة ــ الجزء الثالث ــ الباب السادس عشر ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

٢ ـ الصين

من الصعوبة تحديد بدء الحضارة الصينيــة الا ّ ان المدونات القديمة تسجل أن الشعب الصيني انتقل من مرحلة الرعي في الآلف الثالثة قبل الميلاد واستقر في حوض (النهر الاصفر) واقام مدنية من اقدم المدنيات واغناها يرجع عهدها الى عام ١٧٠٠ ق٠م (٧) ٠

ونشأت مجتمعات زراعية صغيرة في عهد (اسرة ين) (١٧٦٦ ــ ١١٢٢ ق٠م) وابتلع اقوياء الزراع ضعافهم او اندمجت الجماعات تحت رياسة زعيم واحد لتستطيع رد المغيرين وحماية الحقول ٠ ثم وفد فاتحون جدد حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، واستطاع زعيمهم تحرير الصين والقضاء على اسرة (ين) وبدأ حكم اسرة (شو) الذي استمر الى حوالي (٢٥٠ ق٠م) ٠

ولقد ساد نظام الاقطاع (٧٧٠ ــ ٢٥٥ ق٠م) في عهد هذه الاسرة وكثرت الولايات الاقطاعية ، ثم اخذت هذه الولايات تندمج على مهل ونقص عددها الى خمس وخمسين ولاية ، وكــان النزاع على اشده بين هذه الولايات في اواخر ايــام هذه الاسرة وبدأ نظام الاقطاع يضمحل اذ خضعت الولايات الصغرى لجاراتها القوية ولم يبق سوى ست ولايات استطاع (شي) ان يوحدها بالقوة وخضعت الصين عام ٢٢١ ق٠م لحكم رجل واحد لاول مرة في تاريخها الطويل ولقب نفسه باسم (شي هونج ــ دي) وعرفت البلاد باسم الصين وقامت اول امبراطورية فيها ثم وجه همه لحماية البلاد من هجمات البرابرة المتاخمين لحدودها ، فأكمل الاسوار المقامــة على الحدود الشمالية ووصلها ببعضها ثم شرع ببناء سور الصين العظيم الذي

....

(٧) قصة الحضارة الجزء الرابع الباب الثالث والعشرون ول ديورانت ترجمــة محمد بدران الطبعة الثانية ١٩٥٧؛

يبلغ طوله الفا وخمسمائة ميل ، مستخدمـــا اعداءه المقيمين داخل البلاد للعمل فيه ، وهو اضخم بناء اقامـــه الانسان في جميع عصور التاريخ ويقول الصينيون انه (اهلك جيلا مـــن الناس وانقذ كثيرا من الاجيال) وقداحتاج تشييده الـــى عدد هائل مـــن الناس واستغرق عشر سنين .

ثم وجه عنايته الى وضع دستور ثابت لامبراطوريته الجديدة واهتم بشؤون الادارة ووضـــع القواعد العامـــة التي قامت عليها الدولة الصينية في المستقبل . توفي هذا الامبراطور العظيم واعقب موته عهد اضطراب وفوضى وثار الشعب على ابنه وقتله ، وقضى على اسرة (تشين) واقام الامراء المتنافسون ممالك متعاديـــة ثم تمكن زعيم عسكري مغامر مـــن اغتصاب العرش والسيطرة على البلاد واسس اسرة (هان) التي حكمت البلاد اربعمائة عـــام وكان (وو ـــ دي) (١٤٠ ـــ ٨٧ ق.م) اعظم اباطرتهم ، فصد البرابرة المغيرين وبسط سلطان الصين على (كوريا) و (منشوريا) و (انام) و (الهند الصينية) و (تركستان) .

وحكم الصين في بدايـــة التأريخ المسيحـــي مصلح آخـــر هو الامبراطور (وانج مانج) فآلمه انتشار الرق في ضياع الصين الكبيرة فألغاه والغى الضياع بتأميم الارض الزراعية وقسمها الى قطـــع متساوية ووزعها على الزراع ثم قتل عام ٢٥م وتتابع على العرش اباطرة ضعاف(٨) .

كره المجتمع الصيني الحرب ولم يلجأ اليهـــا الا لصد البرابرة الجياع او لتوحيد البلاد وكانت الحرب في اول امرها دفاعية محضة ثم صارت في العهود المتأخرة حرب هجوم واعتداء وتوسع ومع ذلك كانت الحروب قليلة وكان عدد الاسرى قليلا لا يؤبه له وكان معظم

....

(٨) تاريخ العالم ـــ المجلد الاول ـــ الفصل الرابع عشر . الناشر جـــون . ا . هامرتن ترجمة وزارة التعليم والتربية المصرية ـــ القاهرة ـــ مطبعة مصر ١٩٤٨ .

الارقاء من الصينيين الاصليين الذيـــن كانـــوا يباعون في طفولتهم في اوقات المجاعات وايام القحط والجفـــاف ، ولا يلبثون ان يصبحوا اعضاء في اسر اكثر ثراء .

لم نجد في تاريخ الصين الطويل ما يشير الى القسوة في معاملة الاسرى او تكليفهم باعمال وواجبات مرهقة ، واذا كان بعض اعداء البلاد المقيمين بداخل الصين قد عملوا في بناء سور الصين العظيم فهم لا يعدون شيئا بالنسبة لمئات الالوف من العمال الصينيين لا سيما وانه مشروع جبـــار وخطير يتطلب تعبئـــة جميـــع الطاقات البشرية .

ان موقع الصين الجغرافي وسورها الفخم سهلا عليها حماية حدودها الطويلـــة ولم تضطر الـــى الاحتفاظ بجيوش كثيرة للدفاع عنها .

كان الارقاء يعاملون معاملة حسنة ولم ينظر اليهم ابدا كمال او متاع شأن الرومان ولم نجد سوقا للرقيق او تقسيمـــا للطبقات ، وكان الرجال يستطيعون شراء حريتهم بدفع الفدية اما الجواري من الرقيق فيتحررون اثر زواجهن الذي كان كثير الوقوع واخيرا الغي الرق والاقطاع في عهد (وانج مانج) .

....

(٩) قصة الحضارة الجزء الرابع الباب الرابع والعشرون ول ديورانت ترجمـــة محمد بدران الطبعة الثانية ١٩٥٧

الفصل الرابع

الاسرى عند الاقوام الشرقية الاخرى

لم يقتصر الشرق على الدول التي مرّ ذكرها بل ظهرت اقوام وشعوب اخرى في ارجاء مختلفة من آسيا وسواحل البحر الابيض المتوسط ، واذا استثنينا الهند والصين فان هذه الاقوام والشعوب كانت تتاخم ما بين النهرين ومصر او قريبة منها (كالعيلانيين) و (الميتانيين) و (الحيثيين) و (الكاشيين) و (الفينيقيين) و (اليهود) و (الميديين) اما (الفرس) فسأبحثهم في فصل خاص ، ولقد استطاعت تأسيس دول دامت عدة قرون وقطعت شوطا كبيرا في مضمار الحضارة والتقدم . عاصرت هذه الدول دول (بابل) و(اشور)و(الفراعنة)واشتبكت معها في حروب كثيرة فخضعت لها حينا من الدهر ثم تمردت فكان جزاؤها القسوة والتدمير ونفي السكان وتشريدهم وابتسم لها الحظ في احيان قليلة فانتصرت ولجأت هي الاخرى الى النهب والتخريب ، فخربت (بابل) واحرقت (نينوى) ودمرت مدنا غيرها . ظهرت القبائل الحيثية في آسيا الصغرى واستوطنت قلب الاناضول ثم اجتمعت في وحدة سياسية وعسكرية حوالي عام ٢٢٠٠ ق.م ثم اخذت في التوسع والنمو فبلغت حدود (اشور) واحتلت سورية وفلسطين بعض الوقت واستطاع الملك (مرسيل الاول) الذي تولى الحكم عام ١٩٢٥ ق.م من احتلال (بابل) وتخريبها وعاد بالغنائم والاسرى ، وخاض الحيثيون معارك

كثيرة واشتبكوا مع الفراعنة في معركتين هامتين هما معركة (مجدو) و (قادش) وعقدوا مع فرعون مصر معاهدة تحالـــف واحدة . واستمرت دولة الحيثيين الف سنة اذ لم تنتـــه الا عام ١٢٠٠ ق.م ويحدثنا التاريخ ان العبيد كانوا يؤلفون احـــدى طبقات المجتمع الحيثي ولم يكن لهم اي كيان سياسي ولست اشك انهم كانوا في البداية من اسرى الحرب وسكان المدن المغلوبـــة او الثائرة ثم تكاثروا بمرور الزمن (١) . اما اليهود فكانوا اكثر هذه الاقــوام غلظـــة وهمجيـــة وكانت معاملتهم لاسراهم في غايـــة الســـوء والوحشية فهم كالاشوريين او اشد قسوة ، فبعد التيه تمكن اليهود من هزم (الكنعانيين)فقتلوا كل من استطاعوا قتله وسبوا من بقي من النساء وجرت دماء القتلى انهارا تنفيذا لنصوص الكتاب المقدس وزكاة للرب ولما استولوا على مدينتين من مدنهم قتلوا من اهلهمـــا (١٢٠٠٠) رجل . لقد كان موسى (ع) سياسيـــا حكيما تحلـــى بالصبر والاناة ، لكنه طلب ابادة كل نساء ميديان الاسرى ، عندما خاف المرض في ابناء اليهود ولم يبق الا على الابكار فقط (٢) ، امـــا (يشوع) فكان جنديا فظا غليظ القلب اقام حكمه على القتل والدماء وهو يرى ان اكثر الناس قتلا هو الذي يبقى حيا (٣) ، ولـــم يكن انبياء بني اسرائيل من دعاة السلام ، اما كهنتهم فمولعون بالحرب ، تواقون للقتل ، فقد قتل ثمانية من ملوك اسرائيـــل التسعة عشر وكانت عادتهم تدمير المدن المستولى عليها وقطع رقاب جميع الذكور

....

١ — تاريخ العالم — المجلد الثالث — الفصل الثالث والعشرون — الناشر جون ا. هامرتن ترجمة وزارة التربية المصرية — القاهرة — مطبعة مصر .

٢ — الاسلام ورأي في جريمة الزنا مصطفى كمال رفعت — مطبوعات الشعب ١٩٧٥ صـــ ٣٤

٣ — قصة الحضارة الجزء الثاني — الباب ١٢ ص ٣٢٧ ول ديورانت ترجمة محمـــد بدران

من السكان واتلاف الارض (٤) . وكانوا يميزون في علاقاتهم بين الشعوب الصديقة وبين غيرها ويحتقرون الشعوب المشركة ويستحلون قتل الاطفال والنساء والعجزة وتدمير المنازل والممتلكات اثناء الحرب (٥) ، ويوصي الاصحاح العشرون من سفر التثنية بقتل الذكور من سكان المدن التي تفتح عنوة واخذ النساء والاطفال والمواشي والمتاع ، غنائم توزع على الزعماء والقادة ، اما المدن التي ترضى بالصلح فيسترق جميع سكانها ويسخرون لخدمة اليهود (٦) وقام (يشوع) بحرق الكثير من المدن وابادة جميع سكانها وصلب الملوك والزعماء وابقاء جثثهم معلقة ، ونقل الذهب والفضة الى المعابد العبرية (٧)،وكان النبي (داود) قاسيا غليظ القلب يقتل الاسرى جملة كأنه ملك من ملوك اشور واخذ امرأة (ادرية الحيثي) وضمها الى نسائه في غير حياء وارسل زوجها الى ميدان القتال ليتخلص منه ثم امر ابنه (سليمان) ان (يحدر بالدم الى الهاوية) شيبة (شمعي بن جبرا) الذي لعنه منذ سنين كثيرة (٨) كما قتل النبي (سليمان) جميع منافسيه وسخر العمال في بناء الهيكل تسخيرا بلا شفقة ولا رحمة (٩) .

وعندما فتح الفرس بيت المقدس عنوة ٦١٥ م تعرضت المدينة لمجازر وحشية وتدمير فظيع اذ بلغ عدد القتلى (٥٧٠٠٠) وعدد

....

٤ — قصة الحضارة الجزء الثاني — الباب ١٢ ص ٣٧٧ ول ديورانت ترجمة محمد بدران

٥ — القانون الدولي العام في وقت السلم ص ٣٤ الدكتور حامد سلطان .

٦ — الكتاب المقدس ص ٣١١ طبعة القاهرة ١٩٥٦ .

٧ — الكتاب المقدس الاصحاح ٦ و ١٠ طبعة القاهرة ١٩٥٦ .

٨— قصة الحضارة ج ٢ الفصل الثاني ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة — ١٩٦١

٩ — قصة الحضارة ج ٢ الفصل الثاني ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة — ١٩٦١

الاسرى (٣٥٠٠٠) ، ولقد اشترى اليهود كثيرا من الاسرى ليتمتعوا بتقتيلهم (١٠) .

اما الفينيقيون فاستوطنوا شرق البحر المتوسط في الشريط الساحلي الضيق المحصور بين البحر من جهة وجبال لبنان وسورية من الجهة الاخرى . وكانوا أنشط تجار العالم اذ كانت سفنهم تجوب البحر الابيض المتوسط من اقصاه الى اقصاه وسواحل البحر الاسود الجنوبية تحمل الاخشاب والغلال والعاج والفضة والقصدير والنحاس والحديد والعبيد . وازدهرت المدن الفينيقية التي كانت تحملها طبقة من التجار الاغنياء ، حذقت فنون السياسة الخارجية والمالية ورأت في الحرب خطرا يهدد أمنها وتجارتها وامتد نفوذ الفينيقيين واتسعت تجارتهم واصبحت مدنهم من اغنى مدن العالم واقواها واقاموا لهم حاميات في مراكز حصينة على ساحل البحر الابيض المتوسط تحولت الى مستعمرات ومدن عامرة غاصة بالسكان مثل (قرطاجة) و (مالطة) و (مرسيلية) و (صقلية) و (سردينية) واحتلوا (قبرص) و (ميلوس) و (رودس) وهكذا اصبحوا سادة البحر الابيض المتوسط عام ١٢٠٠ ق.م .

كان الفينيقيون ككل التجار القدامى لا يفرقون بين التجارة والغزو والسطو ، فكانوا احيانا يستولون على السفن في عرض البحر فيصادرون ما فيها من بضاعة ومتاع ويأسرون ملاحيها ثم يبيعونهم في سوق العبيد او يستخدمونهم عبيدا يجذفون في سفنهم الكثيرة ، وقد يأسرون الاهلين او يختطفونهم عند رسوهم في الموانىء ويسخرونهم للعمل في المناجم ساعات طويلة لقاء اجر تافه (١١) ،

....

١٠ — فتح العرب لمصر — الدكتور الفرد ج. بتلر عربه محمد فريد ابو حديد ص ٥٥ مطبعة دار الكتب — القاهرة ١٩٣٣ .

١١ — قصة الحضارة ج ٢ الباب الحادي عشر ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة ١٩٦١ .

اما الفينيقيون في النصف الغربي من البحر الابيض المتوسط وهم القرطاجيون فقد انصرفوا الى توسيع قرطاجة التي كانت تقع على تل ممتد في البحر في الزاوية الشمالية الغربية من خليج تونس وتحصينها بالخنادق والاسوار واقاموا فيها حامية تتألف من (٤٠٠) فيل من فيلة القتال واربعة آلاف خيال وعشرين الف جندي مشاة . وساعدها موقعها الجغرافي الملائم ومركزها التجاري المتوسط وقوتها من الهيمنة على شقيقاتها من المدن وضمها في حلف له من القوة ما يكفي لرد الاغريق وللثبات امام روما في صراع مرير ابتدأ عام ٢٦٤ق٠م فخاضت الدولتان الحرب (البونية الاولى) و (البونية الثانية) واخيرا سقطت قرطاجة بأيدي الرومان عام ١٤٦ ق٠م فسويت بالارض بعد ان دافع اهلها عنها دفاعا مجيدا وضربوا اروع الامثلة في التضحية والكفاح (١٢) .

لم نجد في تاريخ قرطاجة ما يشير الى تعذيب الاسرى او القسوة في الحرب وكانت تنظر الى الحرب من ناحية تجارية صرفة وكثيرا ما رأت قبول الهزيمة افضل من مواصلة القتال لامد طويل حيث يكلف نفقات طائلة ولم تكن الجيوش القرطاجية كبيرة العدد الا انها كانت ممتازة بعناصرها وتنظيمها وسلاحها . وكانت تعتمد بالدرجة الاولى على اسطولها الحربي . ولقد اثنى الفيلسوف اليوناني (سقراط) على حكومتها ودستورها ، كما مدحها (شيشرون) الروماني حيث قال : (ان قرطاجة لم تكن لتستطيع ان تحتفظ بأمبراطورية مدة ستمائة سنة لو لم يكن متوفرا لحكومتها السداد والمقدرة السياسية) وكانت قرطاجة تعامل العبيد معاملة حسنة وهي بريئة من الفوارق الطبقية بالقياس الى غيرها . لقد استخدم النبلاء القرطاجيون الذين آثروا الحياة في الريف المئات من عبيدهم في زراعة ضياعهم ولما بسطت قرطاجة نفوذها على

---

١٢ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الثالث ــ فصل ٥٤ الناشر جون ١٠ هامرتن ترجمة وزارة التعليم المصرية ــ مطبعة مصر ــ القاهرة .

مساحات كبيرة تساوي مساحة تونس الحديثة ،تركوا اكثر الاراضي الزراعية للسكان الاصليين الذين اخضعوا لقانون التجنيد ودفع الضرائب ، والظاهر ان معاملة العبيد وحقوقهم لم تكن تختلف اختلافا كبيرا عن بقية المواطنين ، ففي مناسبة من المناسبات صدر قانون يحرم على العبيد والجنود والحكام واعضاء مجلس الشيوخ شرب النبيذ (١٣) .

....

١٣ — تاريخ العالم — المجلد الثالث — الفصل الرابع والخمسون الناشر جون ١٠. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية — القاهرة — مطبعة مصر.

الفصل الخامس

فـــارس

قضى (الميديون) فترة غير قصيرة يتجولون في اقليم (بخارى) و (سمرقند) ثم توغلوا تدريجيا نحـــو الجنوب واستقروا في بلاد فارس واتخذوا (اكباتانا) — ويرجح انها مدينة همدان الحالية — عاصمة لهم . واغارت (اشور) على (ميديا) عـــــدة مرات لكنها صمدت وكافحت ببسالة وانقلبت الآية واستطاع (سياخار) اعظم ملوك الميديين تدمير (نينوى) ثم اجتاحت جيوشه بلاد آسيا الغربية حتى وصلت الى ابواب (سرديس) وغدت امبراطورية واسعة تضم (اشور) و (ميديـــــا) و (فارس) لكنها لم تدم طويـــــلا اذ شق (كورش) حاكم ولاية (انشان) الفارسية عصا الطاعة وخلع آخــر ملوك (ميديا) عام ٥٥٠ ق.م .

كان (كورش) حاكما ممتازا واداريا فذا ، استطاع تنظيـــم قوات (ميديا) و (فارس) فألف منها جيشا قويا استولى به على (سرديس) و (بابل) وقضى على حكم الساميين في غـــربي آسيــا وضم الى مملكته كل البلاد التي كانت خاضعة من قبل الى (اشور) و (بابل) و(ليديا) و(آسيا الصغرى) وبه ابتدأت الاسرة (الاكمينية)(١)

....

١ — قصة الحضارة الجزء الثاني — الباب الثالث عشر ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة ١٩٦١ .

التي شيدت اعظم امبراطورية امتدت مـــن (السند) شرقا الى (مقدونية) وجزر اليونان غربا ، واستطاع (الاسكندر) القضاء عليها عام ٣٣١ ق.م بعد ان دب فيها الوهن والانحلال ، وقامت بعـــد موت (الاسكندر) عام ٣٢٣ ق.م الامبراطورية السلوقية ، وكانت فارس من نصيب (سلوقس) احد قواد الاسكندر المشهوريـــن . ثم نشأت سلالة (فرثية) في شمال فارس عام ٤٧ ق.م بدأت تنمـــو وتقوى بسرعة وامتدت من بلاد (البخت) حتى الفـــرات واستطاع الملك الفرثي (افراهاط ارشاق) دحر (سيديتيوس) السلوقي وتدمير جيشه الكبير وتم للفريثيين السيطرة على فارس والعراق وسرعان ما دخلوا بنزاع طويل مع الامبراطورية الرومانية (٢) .

ان تاريخ الفرس في هذه الحقبة الطويلة حافل بالمتناقضات، فبينما نجد ملوكا عرفوا بالتسامح والعدل والصلاح ومعاملة الاسرى بالحسنى نجد آخرين اشتهروا بالقسوة والعنف كما ان سيرة الملك نفسه تتغير وتتبدل تبعا للظروف والاحوال .

كان (كورش الاكميني) عادلا رحيما متسامحا وكريما في معاملة المغلوبين وكان احب الفاتحين الى النفوس ، ولقد عرف عنه لـــين الجانب ويروي (هيرودوت) كيف انجى (كروسس) مـــن الحـــرق وأكرمه وجعله من اعظم مستشاريه ولم يحفل بنصيحة رجال الدين الذين أشاروا بحرقه حيا ، كما ابقى على حياة آخر ملوك (ميديا) ، ولم يخرب المدن او يهدم المعابد بل ترك للشعوب المغلوبة حرية العبادة والعقيدة،ولم تسلخ في عهده جلود الناس،كما كان شائعا في تلك العهود ولم تحدث مذابح او نفي ، وأعاد المبعدين الى اوطانهم وسمح للاسرى اليهود بالرجوع الى فلسطين واعادة الآلهة التـــي انتزعها الغزاة الى هياكلها ، لقد عرف كيف يحكم الشعوب واعطى لدياناتها المقام الاول واسهم بماله في المحافظة على هياكل الآلهـــة

....

٢ ـــ الرافدان ـــ الفصل الخامس سيتون لويد ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس

وأضرحتها وكان يقرّب القرابين الى الآلهة المحلية في تقي وورع لكنه لجأ في بعض الاحيان الى القسوة والشدة .

أما خلفه (قمبيز) فكان فظا قاسيا بعكس أبيه،سخر من ديانة المصريين واخرج الجثث المحنطة ونبش قبور الملوك ودنس الهياكل واحرق الاصنام (٣) .

وبدأ (دارا الاول) عهده بالشدة والعنف، اذ ثارت بعض الولايات اثر اغتصابه الملك فاخضعها بقسوة ولما استولى على (بابل) بعد حصار طويل امر بصلب ثلاثة آلاف من اعيانها ليرهب بقية السكان ويرغمهم على طاعته واستمرت ضرباته السريعة وحملاته الماحقة حتى اخضع جميع الولايات الثائرة . ولقد كتب في نقش بهستون : « وقبض على فرافارتش وجيء به الي فجدعت انفه ، وصلمت اذنيه ، وفقأت عينيه ، وابقيته في بلاطي مقيدا بالاغلال ، يراه كل الناس ، ثم صلبته بعد ذلك في أكباتانا ... وقبضوا على سترنكخارا وجاؤوا به الي ، فجدعت انفه ، وصلمت أذنيه وفقأت عينيه ، وبقي مقيدا بالاغلال في بلاطي يراه الناس جميعا ثم صلبته » (٤) .

ثم تخلى عن سياسة البطش والقوة ورأى ان الحرب ليست الحل الوحيد في علاج الازمات والمشاكل في امبراطورية بلغت حدا عظيما من السعة والامتداد ، فأعاد تنظيم الامبراطورية على اسس جديدة، وقسمها الى ولايات كان عددها يتفاوت بين العشرين والثماني والعشرين وشجع الحكم المحلي وسمح للمدن الاغريقية ان تتمتع باستقلالها الذاتي السابق وربط اجزاء الامبراطورية بطرق بريدية جيدة ، وبدأ عهد جديد من التسامح والتساهل لم يعرفه العصر ، واحترم (دارا) لغات الشعوب المختلفة ودياناتها وقوانينها المحلية،

....

٣ ــ قصة الحضارة الجزء الثاني ــ الفصل الثاني ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة ١٩٦١

٤ ــ قصة الحضارة ــ المجلد ١ ج ٣ ــ الفصل السابع ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثانية ١٩٥٦ .

وتحسنت في عهده حالة سكان الامبراطوريـــة وساد السلام والامن ولم تعد الحرب تنشب لاسباب تافهة وغلبت الرحمة والتسامح على تصرفات هذا الاداري العظيم (٥) فعامل (هستياؤوس) طاغية (ميلتوس) برفق ولين عقب اعتقاله ، وتسامح مع ثوار (ميلتوس) بعد ظفره بهم .

ثم غلبت القسوة على ملوك الفرس الاكمينيين في عهدهم الاخير وكان المحكومون بالاعدام يلاقون افظع انواع التعذيب قبل اعدامهم وكان عهد (ارتحششتا) حافلا بأبشع صور الاعدام ، لقد كان الخونة يقضى عليهم بقسوة ووحشية ، فكانوا يصلبون هم وزعماؤهم ثم يباع اتباعهم عبيدا وتنهب مدنهم ويخصى غلمانهم وتسلب بناتهم ويبعن (٦) وكان الارقاء والعبيد وكلهم من الاجانب يستخدمون في مزارع الاشراف الاقطاعيين . وأصبحت القصور الملكية في اواخر حكم (الاكمينيين) ميدانا للتآمر والقتل والاغتيال وصار التمثيل بجثث الملوك والامراء وعوائلهم سنة متبعة كما دفن بعضهم احياء وتدخل الخصيان والجواري في شؤون الحكم واخلـــد الملوك الى الترف واللهو . والظاهر ان استخدام الخصيان قد بدأ منذ عهد بعيد ، اذ كانت (بابل) في عهد (دارا الاول) ملزمة بارسال خمسمائة من الغلمان والخصيان الى فارس .

اما الملوك (الفريثيون) فكانوا شبه برابرة خاضوا كثيرا مـــن المعارك مع (روما) اتسمت في كثير من الاحيان بالقسوة والوحشية فخربت المدن وارتكبت افظع الاعمال بدافع الثأر والانتقام .

....

٥ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الثاني ــ الفصل السابع والثلاثون الناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ــ القاهرة ــ مطبعة مصر .

٦ ــ قصة الحضارة المجلد ١ ج ٢ الفصل السابع ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثانية ١٩٥٦ .

الفصل السادس

اليونـــان

استوطنت (هيلاس) منذ اقدم العصور وخضعت خلال القرن السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد لسيطرة (كريت) وتأثرت بحضارتها ولم تلبث اليونان ان انتزعت السيادة السياسية والثقافية على (بحر ايجه) بزعامة (مسينا) عقب انهيار (كريت) وتحطيم اسطولها البحري . ثم ظهر (الاخيون) في اليونان واصبحوا سادة البحر والجزر في الوقت الذي اصبحت فيه (طروادة) مركزا لحلف يشمل آسيا الصغرى ويمتد داخل اوربا . وفي اوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ابتدأت الحرب بـين اليونان و (طروادة) (١) وانتهت بانتصار (الاخيـين) بقيادة (اجاممنون) وهلاك (بريام) ملك (طروادة) وتهديم قلعته .

وقبيل عام ١٠٠٠ ق.م غزا (الدوريون) اليونان واضطر الاخيون الى النزوح الى اسيا الصغرى واصبحت اليونان في مطلـع القرن العاشر سيدة الاصقاع الايجية في البر والبحـــر واستقرت اقدام يونانية في شواطىء اسيا الصغرى الشمالية والغربية وبدأت تتصل بالشرق ، ثم ساد نظام دويلات المدن سائر ارجـــاء اليونان قبل

....

١ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الثاني ــ الفصل ٢٩ الناشر جون ١٠. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ــ القاهرة ــ مطبعة مصر .

منتصف القرن الثامن قبل الميلاد واشتد التنافس ودب النزاع بين هذه الدويلات وخاضت الكثير من الحروب والمعارك فاندمج بعضها مع بعض او اتحد برغبته او بنتيجة الحرب واصبحت (اسبرطة) صاحبة السلطان على نصف (المورة) واعترف لها بالتفوق الحربي بعد انتصارها على منافستها (ارجوس) واصبح جيشها مضرب الامثال بقوته ونظامه العسكري الصارم واخيرا اصبحت زعيمة المدن اليونانية التي انضوت تحت اسم العصبة (البليبونيزية) (٢) وفي اوائل القرن الخامس قبل الميلاد غزت الجيوش الفارسية اليونان واستمرت الحرب فترة طويلة ودارت رحى معارك كثيرة اهمها (مراثون) و (سلاميس) و (بلاتيه) انتهت بانهزام فارس وتحطيم اسطولها واصبحت (اثينا) اول دولة بحرية في اليونان وزعيمة الحلف (الديلوسي) الذي كانت مهمته بالدرجة الاولى مواصلة الحرب ضد فارس حتى يتم تحرير اليونان برمتها . واصبحت (اثينا) غريمة لـ (اسبرطة) ومنافستها في زعامة اليونان (٣) ووجد العالم اليوناني نفسه مرغما على الانضمام لاحدى الكتلتين واخيرا تنحت (اسبرطة) عن الزعامة لقصر نظر قادتها واصبحت (اثينا) زعيمة العالم الاغريقي دون منافس فلعبت دورها الرائع على مسرح العلوم والفنون وساهمت ببناء اعظم حضارة وغدت بحق مدينة الجمال ، ولم يلبث ان نشب الخلاف من جديد واشتد التنافس والحسد ، ودارت معارك طاحنة ، انتهت بظفر (اسبرطة) واكرهت (اثينا) على الاذعان والدخول في الحلف الاسبرطي وبدأ النزاع بين (اسبرطة) و (طيبة) ونشب بين المدينتين صراع مرير استنزف الكثير من الموارد والرجال واستطاع (فيليب) ملك (مقدونيا) اخضاع المدن اليونانية

....

٢ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الثاني ــ الجزء الرابع الناشر جون ١٠. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ــ القاهرة ــ مطبعة مصر .

٣ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الثاني ــ الجزء الخامس . الناشر جون ١٠. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ــ القاهرة ــ مطبعة مصر .

وضمها تحت لوائه وشرع في اعداد وتنظيم جيش قوي مدرب تمهيدا لتأسيس امبراطورية عظيمة ، ثم توفي وخلفه ابنه (الاسكندر الاكبر) فسار على سياسة ابيه واستطاع تأسيس امبراطورية امتدت من (بحر الادرياتيك) غربا الى ما وراء (السند) شرقا ومن ضفاف (الدانوب) شمالا الى بلاد (النوبة) جنوبا . ومات شابا فاقتسم قواده مملكته وسرعان ما دب الخلاف والنزاع واستمر حتى ظهور (روما) . واخيرا خضعت اليونان لسلطان الرومان واصبحت تابعة لهم .

امتاز عهد اليونان بالنسبة للعهود التي سبقته بوضع القواعد التي تنظم الحرب فيما بين الدويلات والمدن اليونانية بدافع المصالح المشتركة ورابطة القرابة واتحاد الجنس واللغة والدين ، فكانوا لا يبدأون الحرب الا باعلان سابق وكانوا يصرحون بدفن جثث الموتى وافتداء الاسرى (٤) او مبادلتهم وكان الفداء المعترف به ميناءين (حوالي مائتي دولار امريكي) ثم أصبح ميناء واحدة لكل اسير والزموا المتقاتلين بقبول الهدنة اذا طلبها احد الطرفين لنقل جثث قتلاه في المعارك الى بلاده لدفنها هناك (٥) وحرم الغدر واستعمال الاسلحة المسمومة وتسميم منابع المياه (٦) . ولقد دخلت هذه الدويلات في معاهدات تنظم العلاقات السلمية ايضا فتبادلت السفراء واعترفت لهم بالامتيازات وكثيرا ما نصت هذه المعاهدات على الرجوع الى التحكيم بتسوية النزاع والخلاف ، كما عقدت المؤتمرات لتنسيق الدفاع ضد الغزو الفارسي او لمواصلة الحرب وتأمين متطلباتها ، أما العلاقات بين المدن اليونانية وغيرها ، فكانت تقتصر على الحرب والاستعباد وترى بعض الدول اليونانية ان من حق المدينة توجيه الحملات لنهب املاك غيرها من

....

٤ ــ القانون الدولي ص ٥٣ ــ الدكتور محمود سامي جنيلة .

٥ ــ قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الثاني ص ٣٦ تأليف ول ديورانت ترجمة محمد بدران . الطبعة الثالثة ١٩٦١ .

٦ ــ القانون الدولي العام ص ٤١ الدكتور مجيد عباس .

المدن والسكان ، اذا لم تكن هناك معاهدة تنص صراحة على تحريم هذه الحملات .

كانت معاملة اليونانيين لاعدائهم مشوبة بالعنف والقسوة اذ كانوا يعتبرونهم من البرابرة المتوحشين وكان مصير الاسرى من المتوحشين الى الرق والعبودية . فالرق بنظر اليونانيين شرعي ونتيجة للحرب ، ولقد قال شعراؤهم « اجل للاغريقي على المتوحشين حق الامرة» (٧) واصبح العبيد بمرور الايام يؤلفون احدى طبقتي المجتمع وسخروا للقيام بكثير من الاعمال داخل البيوت وخارجها وفي المناجم ليتسنى للاغريق الاشتغال بالشؤون السياسية والفكرية وبلغ عددهم في (اثينا) اكثر من خمسين الفا بينما لم يتجاوز عدد المواطنين الاربعين الفا ولم يكن للرقيق شخصية قانونية بل كان يعامل كالمتاع فيباع ويحجز عليه وقاء للدين ولم يكن بوسع الرقيق رفع الدعوى الى المحاكم الا عن طريق مواطن يشمله برعايته وكانت عقوبة الاعدام تنفذ بالارقاء بالضرب الوحشي احيانا او بالقائهم من فوق صخرة عالية الى حفرة عميقة تعرف باسم (البرترون) بخلاف الاحرار حيث ينفذ فيهم الاعدام بأقل الوسائل ايلاما اذ يقدم اليهم عصير الشوكران وهو عقار يخدر الجسم تدريجيا حتى يصل الى القلب ، ولم تكن تقبل شهادة الارقاء الا اذا انتزعت منهم بالتعذيب ، وكانوا معرضين على الدوام للتعذيب والحكم بالاعدام في كثير من الجرائم الصغرى وبالرغم من كل هذا فان الارقاء الذين يشتغلون بالخدمة في المنازل او بالحرف الوضيعة كانوا احسن حالا من الارقاء الذين يعملون بمناجم الفضة في (لوريوم) حيث كانوا يعملون لمدة لا تقل عن عشر ساعات يوميا ويظلون فيها حتى يوافيهم اجلهم .

لقد شغلت مشكلة الرق مفكري الاغريق وفلاسفتهم ولكنهم اجازوا الرق على اعتبار انه جزء من الاوضاع الطبيعية للاشياء .

....

٧ — ارسطوطاليس — السياسة — ص ٩٣ ترجمة احمد لطفي السيد .

فالرق في نظر (ارسطو) شرعي وطبيعي لكسب الاموال الضرورية بالرغم من اعترافه ان بين الارقاء من هم أهل للحرية التي خلقتهم لها الطبيعة وان كثيرا من الرجال الاحرار يستأهلون الرق الذي دفعتهم المصادفة اليه ويبرر شرعية الرق فيقول: (من اجل ذلك كانت الحرب هي ايضا بوجه ما وسيلة طبيعية للكسب ، اذ انها تشمل هذا العبد الذي يصطنعه الانسان ليقوم مقام الوحوش، وللاناس الذين قد خلقوا ليطيعوا ، يمتنعون عن الطاعة ، فتلك حرب قضى الطبع بمشروعيتها) فالرق اذن نتيجة للحرب وللغالب حق الحياة والموت على اسيره .

أما (أفلاطون) فأراد ان يقصر الرق على زمانه ، ونصح مواطنيه بعدم اتخاذ عبيد لهم من بينهم ، بل المتوحش وحده اولى بالعبودية ، ومع ذلك ظهر بعض المفكرين الذين كانوا بجانب العبيد، وضد الرق والاستعباد ، فطالبوا معاملة العبيد بالحسنى وحثوا على عتق الارقاء ولقد أوصى (ارسطو) نفسه بعتق عبيده قبل موته ، ومهما يكن فان (اثينا) كانت على العموم ارفق وارحم بالاسرى بالنسبة لغيرها ، وكانت معاملتها لعبيدها افضل من معاملة (اسبرطة) ، الغريب ان الدول والمدن اليونانية لم تلتزم بما قررته من قواعد وعقدته من معاهدات ، فعاملت بعضها البعض بمنتهى القسوة وعاملت اعداءها من البرابرة والمتوحشين بشهامة وعطف ، ففي القرن الثامن قبل الميلاد عبر الاسبرطيون سلسلة جبال (تايجنيوس) وفتحوا سهل (مسينا) الغني وانزلوا سكان البلاد منزلة الارقاء وأكرهوهم على حراثة انصبتهم من الارض التي استولوا عليها (٨) . وفي حرب (البيلوبونيز) التي نشبت بين المدن اليونانية

....

٨ ـــ تاريخ العالم ـــ المجلد الثاني ص ٧٢٦ الناشر جون ٠١٠ هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ـــ القاهرة ـــ مطبعة مصر .

ذبح الكثير من الاسرى عند انتهاء المعارك ويحدثنا (طوسيديد) بأنه شاهد هذه الفظائع بأم عينيه ويمضي في حديثه فيذكر ان الشرارة التي اشعلت نار الحرب كانت محاولة قام بها (الطيبيون) ليضعوا ايديهم على (بلاتا) خدعة ، لكن أهل (بلاتا) نكثوا العهد المتفق عليه واستجدوا (بأثينا) التي سحبت الاهالي غير المحاربين وتركت في المدينة حامية قوامها اربعمائة من البلاتيين وثمانين من الاثينيين ولم تقدم اية معونة اخرى بالرغم من وعودها (لبلاتا) التي حاصرتها جيوش (البيلوبونيز) ، فرفضت حاميتها الاستسلام وظلت صامدة تقاوم الغزاة ، وفي السنة الخامسة حاصرتها الجيوش من كل ناحية واوشكت الحامية على الموت جوعا ، واستطاع نصف الحامية من شق طريقه بالقوة والوصول الى (اثينا) اما النصف الباقي فقد استسلم مختارا لكنهم اعدموا بحجة واهية .

ويمضي (طوسيديد) في حديثه فيخبرنا عن ثورة جزيرة (لسبوس) الحرة على العصبة (الاثينية) واحجام اهل (البيلوبونيز) عن امداد الثوار واضطرارهم الى الاستسلام، واصدار (اثينا)حكمها باسترقاق جميع السكان او بموتهم بناء على قرار الجمعية التي كان يرأسها (كليون) الشهير . وابحرت سفينة يونانية تحمل هذا القرار ولحسن حظ المحكوم عليهم ، ان السفينة كانت بطيئة في سيرها اذ لم تكد تصل الميناء حتى لحق بها مركب حربي يحمل امرا بارجاء التنفيذ ، ودعيت الجمعية الى اجتماع خاص آخر فالغت الحكم ، وبلِّغ الالغاء في الوقت المناسب وقبل موعد تنفيذه بأربع وعشرين ساعة (٩) .

أما (اسبرطة) فلم تكن تفرق بين (الاثينيين) والمحايدين الذين يقبض عليهم في السفن التجارية ، وكانوا يقتلون بلا تفرقة . وحينما انتصر الاسطول الاسبرطي بقيادة (ليسنور) في بحر مرمرة على

....

٩ — تاريخ العالم — المجلد الثاني ص ٥٦٥ و ٥٦٦ الناشر جون ا. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية — القاهرة — مطبعة مصر .

الاسطول الاثيني ، أمر (ليسنور) بقتل ثلاثة آلاف مـــن الاسرى الاثينيين (١٠) .

وعمدت (اثينا) الى قتل بعض سفراء (اسبرطة) و (كورنثة) بلا شفقة بدافع الانتقام بينما نرى الملك (فيليب) يطلق سراح الاسرى الاثبنيين الذين اسرهم في (خيرونية) من غير فدية (١١) ، ويضرب (الاسكندر الكبير) اروع امثلة في النبل والشهامة عندما ظفر بخصمه (بورس) ملك الهند في موقعة (هيداسبيس) عام ٣٢٦ ق.م فعفا عنه وجعله ملكا على كل بلاد الهند التي فتحها (١٢) كما عامل اسرة الملك (دارا) معاملة تنطوي عى الشهامة والنبل ، عندمـــا وقعت في يده بعد انتصاره في معركة (اسوس) وفرار ملك الفرس ، كما ثأر لمقتل دارا غدرا فأمر بصلب القاتل وتقطيع اوصاله جزاء خيانته (١٣) .

....

١٠ ــ قصة الحضارة ــ الجزء الثاني ــ المجلد الثاني ص ٣٦٢ تأليـــف ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة ١٩٦١ .

١١ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الثالث ص ١٠ ــ الناشر جون . أ . هامرتـــن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ــ القاهرة ــ مطبعة مصر .

١٢ ــ المصدر السابق ــ ص ٥٥ .

١٣ ــ المصدر السابق ــ ص ١٢ .

الفصل السابع

الاسرى في عهد الرومان

تأسست روما عام ٧٥٤ ق.م من اجتماع عدة قرى وضياع تقطنها اقوام مختلفة من (لاتينية) و (سابينية) و (البينية) و (اترورية) (١) وبتأسيسها ابتدأ تاريخ الرومان . والراجح ان معظم هذه الاقوام من أصل هندي اوربي باستثناء (الاتروريين) الذين قدموا من اسيا الصغرى . بدأ نظام الحكم في روما ملكيا ثم اصبح جمهوريا عام ٥٠٩ ق .م. وفي اواخر عهد الجمهورية اي في عام ٦٠ ق. م انيطت السلطة بثلاثة زعماء احدهم (يوليوس قيصر) الذي ما لبث ان استأثر بالامر وحده واجبر مجلس الشيوخ بالموافقة على انفراده بالسلطة ثم قتل عام ٤٤ ق.م وعهد الامر من جديد الى ثلاثة زعماء آخرين هم (مارك انطوان) و (اوكتافيوس قيصر) و (لبيدوس) وسرعان مانشب النزاع والقتال بينهم الذي انتهى بهزيمة (مارك انطوان) ولجوئه الى مصر وانتحاره ، وتزعزع نظام الحكم الجمهوري وقرر مجلس الشيوخ منح (اوكتافيوس) سلطة واسعة واستطاع فتح مصر ومنح لقب امبراطور واصبحت الجمهورية الرومانية امبراطورية (٢) واخذت في التوسع فبلغت (ارمينية) وبلاد العرب ، ثم دخلتها المسيحية واصبحت دين الدولة الرسمي في عهد الامبراطور (قسطنطين) الذي توفي عام ٣٣٧ م . وفي عهده أصبحت (بيزنطة)

---

١ — دروس في القانون الروماني — الفصل الاول جبرائيل البنا .

٢ — مدونة جوستينيان الصفحة ك — ترجمة عبد العزيز فهمي طبعة ١٩٤٦ .

عاصمة ثانية للامبراطورية باسم (القسطنطينية) ثم انقسمت الامبراطورية الى : شرقية عاصمتها (القسطنطينية) وغربية عاصمتها (روما) وفي عام ٤٧٦ م قضت القبائل الجرمانية على الامبراطورية الغربية اما الشرقية فظلت قائمة حتى عام ١٤٥٣ م اذ استطاع السلطان العثماني محمد الفاتح من احتلال (القسطنطينية) وبذلك انتهى سلطان (روما) .

لقد مرت روما في عهدين ، ففي العهد الاول كانت حالتها شبيهة بحال دول المدن اليونانية (٣) وكانت صلتها بجيرانها صلة عدائية قائمة على الحرب والفتح والاستعباد اذ لا حرمة للاشخاص أو الاملاك ثم اضطرت روما بسبب عجزها عن السيطرة وانتظارا لفرصة مناسبة الى الدخول في معاهدات صداقة مع بعض الدول فاكتسب اشخاص هذه الدولة حماية خاصة (٤) وتلا ذلك عهد الامبراطورية فامتد سلطان (روما) على كثير من البلاد واصبحت سيدة العالم المتمدين القديم . قسم القانون الروماني الاشخاص الى وطنيين اي رومان وغير وطنيين اي لاتين واجانب وكان الاجانب — وهم سكان البلاد المجاورة لروما والكائنة في الجانب الآخر من نهر (التيبر) — يخضعون في علاقاتهم مع افراد مدينتهم لاحكام قانونهم الاهلي اما علاقتهم مع الرومان او الاجانب من جنسية اخرى فيخضعون لاحكام قانون الشعوب وهؤلاء ارتبطت مدنهم مع (روما) بمعاهدات ضمنت لرعاياهم حقوقهم وحريتهم اثناء وجودهم بالاراضي الرومانية ،فالاجنبي كان حليفا لروما بخلاف البرابرة الذين لا تربطهم بروما معاهدات حيث كانوا يعتبرون من الاعداء وبوسع اي روماني الاستحواذ عليهم كما يستولى على مال مباح (٥) .

ثم زالت هذه الفروق مع الزمن لاسباب سياسية

....

٣ — القانون الدولي العام ص ٤٢ — الدكتور عبد المجيد عباس .

٤ — القانون الدولي الروماني ص ٥٤ الدكتور محمود سامي خليفة .

٥ — دروس في القانون الروماني ص ٧٨ جبرائيل البنا .

وفلسفية (٦) وفي منتصف العهد الامبراطوري تقرر مبدأ المساواة بين سكان الامبراطورية بدون استثناء بالنسبة للقانون الخاص وتعممت احكام قانون الشعوب فطبقت على جميع سكان الامبراطورية من رومان ولاتين واجانب ولقد استطاعت روما في مدى اجيال ان تخضع العالم كله تقريبا وجمعت في حكمة بين السياسة والقوة نتيجة التجارب التي اكتسبها الرومان في صراعهم الطويل وتوصلهم الى انجع الوسائل في حل مشاكلهم.

وبالرغم من أن روما فتحت صدرها للتحالف مع الشعوب المجاورة لكنها كانت عنيفة وقاسية مع مدن وشعوب اخرى. وكان استخدامها للقوة لا يعرف حدودا بالنسبة للمنافسين الخطيرين، ولقد استمر الصراع بينها وبين مدينة (دفني) وانتهى عام ٣٩٦ ق.م بتدمير المدينة الحصينة تدميرا تاما بعد حصار دام عشر سنوات وتقول الاساطير ان جميع سكانها قد ذبحوا ونقلت كنوزها وثرواتها.

اما صراعها مع (قرطاجة) اخطر المنافسين واقواهم فكان صراعا مريرا استمر عشرات السنين بسبب جشع روما وطمعها ورغبتها في السيطرة على طرق التجارة، وفي عام ١٤٦ ق.م سقطت قرطاجة ومحيت من الوجود بعد حصار شديد ولم تنفع عروض حكومة قرطاجة حيث كان القادة الرومان مزودين بأوامر تقضي بتدمير قرطاجة وجعل عاليها سافلها واسترقاق اهلها ونهب ثرواتها وظلت النار تشتعل في المدينة سبعة عشر يوما (٧) وضربت قرطاجة اروع الامثلة في الصمود والتضحية والدفاع، كما لاقت مدينة (كورنثه) نفس المصير ففي ١٤٦ ق.م اقتحم (مموس) القنصل الروماني الجديد هذه المدينة الجميلة واعمل فيها السلب والنهب كأنها أخذت عنوة بحجة وجود حامية تحتل (الاكروبولس) بالرغم من

....

٦ — دروس في القانون الروماني ص ٨٠ جبرائيل البنا.

٧ — قصة الحضارة — ج١ — مجلد ٣ — الفصل السابع ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٥٦.

انتهاء المعركة وفرار جيش (العصبة الآخية) ولم يكتف بذلك بل اعمل القتل في الرجال وباع النساء والاطفال ببيع الرقيق واستولى على الكنوز الغنية ووزعت الاسلاب بسخاء ثم اسلمت المدينة الى النار ومحيت (كورنثه) من الوجود (٨) .

وفي اسبانيا اتبع الرومان سياسة في منتهى الوحشية والقسوة اذ يقول مؤرخ روما (ممسن) : «ان التاريخ كله لم يشهد حربا تضارع هذه الحروب الاسبانية بما انطوت عليه من ضروب الغدر والقسوة والجشع » . فلقد نقض (لوسيوس لوكولس) معاهدات سلفه مع القبائل الاسبانية عام ١٥١ ق.م وهاجمها من غير سبب عله يجد عندها مالا يغتصبه ، فقتل واستعبد آلافا من الاسبان بدون مبرر واتبع هذا الاسلوب خلفه (سليسيوس جاليا) عام ١٥٠ ق. م فاستقدم الى معسكره سبعة آلاف من السكان بعد أن عقد معهم معاهدة وعدهم فيها بتوزيع الاراضي عليهم وعندما جاؤوا ، امر اتباعه بتطويقهم ثم ذبحوا او استرقوا، واتبع الرومان الاسلوب نفسه مع المدن الاغريقية .

ان سياسة الحكام الرومان قد تغيرت في القرنين الاول والثاني قبل الميلاد واصبح همهم جمع المال والثروات لتواصل روما حياة التهتك والفساد والانانية . وفرضت غرامات ماليه فادحة على (قرطاجة) و (سورية) وغيرها وجمعت المعادن الثمينة من (غالة الجنوبية) و (اسبانيا) وسيق آلاف العبيد واخيرا اشتعلت نار الثورة في البلاد وقضت نهائيا على الجمهورية(٩) .

عرفت روما نظام الرق واقرته كغيرها من الشعوب القديمة كالمصريين والفينيقيين واليونان وظلت معترفة به حتى في عهد

....

٨ — تاريخ العالم — المجلد الثالث — الناشر جون ١٠. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

٩ — قصة الحضارة — ج ١ — مجلد ٣ الفصل الثاني ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثانية — القاهرة مطبعة مصر ١٩٥٦ .

(جوستينيان) الذي اعتبره نظاما من انظمة قانون الشعوب يجبر بمقتضاه الانسان على ان يكون محلا لملكية انسان آخر خلافا للقانون الطبيعي .

وأقر الرق جميع الفقهاء والفلاسفة باعتباره نظاما ضروريا لا غنى عنه للمجتمع ، الا ان القانون الروماني القومي لم يعترف به الا في حالات خاصة . وقد حاول الفقهاء تبرير نشأته بقانون الشعوب اذ زعموا أن المنتصر في قديم الازمان كان يقتل عدوه ، وان بعض الاقوام كانت تأكل اعداءها انتقاما ، ولما استوطنت الشعوب وانصرفت الى الزراعة فضلت استخدام الاسرى في الري والزراعة(١٠) .

كان اسرى الحرب احد اسباب الرق بموجب قانون الشعوب، فالاسرى الذين يقعون في قبضة الجيوش الرومانية ، يصبحون ارقاء للدولة تخضعهم لخدمتها او تستخدمهم في الاشغال العامة او كعبيد عموميين ، او يباعون بالمزايدة العلنية اسوة بغنائم الحرب . ويلحق باسرى الحرب الاجانب الذين لا تربطهم بروما معاهدة صداقة حيث بوسع اي شخص روماني ان يستحوذ عليهم ويمتلكهم فيصبحون رقيقا خاصا .

كان الرقيق في بدء العهد الروماني يعتبر مالا وشيئا من الاشياء ، يدخل ضمن ثروة سيده بل يعتبر من عناصرها الهامة ، فللسيد كل حقوق المالك كحق الاستعمال والانتفاع والتصرف وله ان يبيعه مع اولاده وله ان ينبذه او يتخلى عنه للمعتدي عليه لينتقم منه . وكان حق التصرف مطلقا وفي غاية السعة اذ يشمل حتى اعدام العبد . وبالرغم من قسوة القانون الروماني القديم ومجافاته للعدالة والانسانية باعتباره العبد مالا ، كانت معاملة السادة في الغالب حسنة لقلة الارقاء من جهة وحرص السادة عليهم كعنصر من عناصر الثروة المهمة من جهة أخرى ، كما أن استخدامهم

....

١٠ — مذكرات في القانون الروماني ص ٥٨ — جبرائيل البنا .

داخل البيوت انشأ علاقات عطف وود بينهم وبين افراد الأسرة هذا وان الخلق السوي ينفر من ارهاق الرقيق واذلاله (١١) .

وسرعان ما كثر عدد الاسرى بسبب الحروب الكثيرة التي خاضتها روما واتساع فتوحاتها فانتشر الرق انتشارا واسعا واشتدت الحاجة اليه للعمل في الحقول والضياع حيث كان يعمل فيها عشرات الالوف من الاسرى البرابرة او المختطفون من أسواق الرقيق دون شفقة او رحمة حتى يقضون نحبهم . وعاملهم السادة والاقطاعيون بمنتهى القسوة باعتبارهم رعايا شعوب معادية غلبت في الحرب وغالوا في تعذيبهم ومعاقبتهم ، اذ كان الرقيق يضرب بسوط فظيع ذا حبات من البرنز ويوضع في رقبته نير ثقيل او يكره على مصارعة الوحوش وكانوا يصفدون ويجبرون على العمل بقيودهم الحديدية في الحقول حتى اذا انتهى العمل وضعوا في سجن بجناح العبيد تحت رقابة سجان خاص واخيرا فللسيد قتل العبد .

ثم اضطر المشرع الروماني على التدخل للتخفيف من قسوة السادة متأثرا بالفلسفة اليونانية وبدوافع انسانية فاعترف للرقيق بشيء من الشخصية والوجود فتحسنت حالة العبيد نسبيا ، وتزايد عدد الارقاء زيادة هائلة تنذر بالخطر وتردت حالتهم وهبط ثمنهم وتمادى الملاك والسادة في معاملتهم بقسوة فتفاقمت شكوى العبيد الذين لم يلبثوا ان قاموا بعدة ثورات في ايطالية وصقلية قضي عليها بقسوة ووحشية واعدم منهم عشرات الآلاف .

ثم تحسنت حالة العبيد في عهد الامبراطورية اذ صدرت عدة قوانين لحماية الرقيق من سوء معاملة سادتهم ، فمنع السيد من اجبار العبيد على مصارعة الوحوش الا باذن من الحاكم ، وعوقب السيد الذي ينبذ عبده ، بتحرير العبد وحرمان السيد من تملكه ،

---

١١ — مذكرات في القانون الروماني ص ٦٣ — جبرائيل البنا .

وعوقب السيد بالقتل اذا قتل عبده بدون مبرر(١٢) ، وتدخلت الدولة لانقاذ العبد من سوء معاملة سيده ببيعه لسيد آخر وتعددت طرق التحرير والاعتاق وبسطت اجراءاته وسمح للرقيق بالتطوع في الجيش لسد النقص الهائل في الرجال ، ابان الحرب مع (هانيبال) وكانوا يحررون مكافأة لهم على صادق خدمتهم (١٣)وبلغ عدد العبيد في روما زهاء نصف مليون اغلبهم من اسرى الحرب وكانت (ديلوس) أكبر سوق للعبيد في القرن الثاني قبل الميلاد ، وتمخضت الحروب في بلاد الاغريق واسيا الصغرى عن تدفق اعداد غفيرة من العبيد الاغريق الى روما وكان بينهم كثير من ذوي الثقافة العالية ، فاثروا في تطور المجتمع الروماني وساهموا في مختلف المجالات ، وكانت الولايتان الغربيتان (اسبانيا وغاله) تمدان روما باعداد هائلة من العبيد الذين استخدموا في اعمال لا تتطلب مهارة فنية وامتلأت القصور بالعبيد ذوي المهارة والاختصاص وتوزعت بينهم الاعمال فمنهم خدم حجرة السيد نفسه ، واطباؤه ، وامناء سره ، وحاملو رسائله ، وفلاسفته ، وطهاته ، وموسيقيوه (١٤) وارتفع ثمن هؤلاء ، اما العبد عديم المهارة فقيمته تعادل عشرة جنيهات وكانت الامة الجميلة تباع ببضع مئات من الجنيهات ، وقامت روابط ود ومحبة بين عبيد المنازل وسادتهم كالعلاقة التي قامت بين (شيشرون) وسكرتيره العبد (بترو) وحدثت حالات عتق كثيرة .

....

١٢ ـ درس في القانون الروماني ص ٦٤ ـ جبرائيل البنا .

١٣ ـ تأريخ العالم ـ المجلد الثالث ـ الفصل ٥٩ الناشر جون ١٠. هامرتن ـ وزارة التربية والتعليم المصرية ـ القاهرة مطبعة مصر .

١٤ ـ قصة الحضارة ـ الجزء الثالث ـ المجلد الاول الفصل الثاني ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

الفصل الثامن

دول الجزيرة العربيــــة

كانت الجزيرة العربية وما تزال مهد العرب وموطنهم وهي أرض شاسعة مترامية الاطراف تقع في جنوب غربي آسيا ، تحيط بها البحار من جهاتها الثلاث ، يحدها من الشمال خط وهمي يمتــد من خليج العقبة حتى مصب (شط العرب) في (الخليج العربي) وتفصلها (صحراء النفود) عــــن (بادية الشام) وهي مرتفعة في الغرب حيث تسيطر سلاسل الجبال على سواحل ضيقة اغلبها صخري ، ثم تنحدر تدريجيا باتجاه (الفرات) و (الخليـــج العربي) اما وسطها فنجد يبلغ ارتفاعه زهاء (٢٥٠٠ قدم) وفي جنوبها سلاسل جبلية متباينة الارتفاع تسيطر على المنخفضـــات الساحلية وتتصل هذه بسلسلة (جبال اليمن) وتتكون اغلـــب أراضيها من صحاري وسهول غلبت عليها طبيعة الصحراء مـــن حر وجفاف (١) .

ان موقعها وطبيعة اراضيها ومناخها ضمن لها أمنا وسلاما فصمدت بوجه الغزاة واستعصت عــــلى الفاتحين وتأبت عـــلى الاختلاط والامتزاج فحفظت الجنس العربي خالصا نقيا وستبقـــى هذه الجزيرة الابية معينا ثرا يمد اقطار العرب بالقبيل اثر القبيل وستظل الهجرات تترى والموجات تتتابع حتى يرث الله الارض ومن عليها وهيهات ان تنقطع صلة المهاجرين بوطنهم الام وما زالـــت

....

١ — مهد العرب ص ١١ — الدكتور عبد الوهاب عزام — سلسلة اقرأ .

القبائل البادية في الاقطار العربية محافظة على تقاليدها وعاداتها معتزة بوطنها الام واصولها في الجزيرة حريصة عليها (٢) .

سمى المؤرخون ايام العرب الاولى قبل الاسلام بـ (تاريخ الجاهلية) ووصفوا العرب بالبداوة والتخلف ، ومهما كان المقصود بلفظ (الجاهلية) فقد كان للعرب في تلك العهود حضارة ومدنية ، وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع الى ما قبل الاسلام على براعة وعلم بتنظيم امور الري والاستفادة من مياه الانهار والسيول والامطار ، وتدل المصطلحات في اللهجات العربية على معرفة العرب بأنواع الآبار والسدود ، كما عثرت شركات النفط خلال تنقيبها في (القطيف) و (الاحساء) و (الفلج) واواسط (نجد) على صهاريج ارضية متصلة ببعضها بأنفاق وفيها فتحات خارجية في مواضع متعددة لاستقاء الماء كما وجدت على مقربة منها آثار قرى ومزارع واسعة .

لقد قامت في الجزيرة دول وحكومات كثيرة عاصر بعضها البعض او في ازمان مختلفة وتعتبر الدولة (المعينية) (١٣٠٠ ــ ٦٣٠ ق.م) التي نشأت في اليمن اقدم هذه الدول اذ امتد سلطانها الى البحر الابيض المتوسط والخليج العربي اما (مملكة قتبان) والتي عاصرت (المعينيين) فقامت في جنوب غربي اليمن كما ظهرت حكومة (حضرموت) قبل المسيح بمئات السنين وكانت معاصرة لمملكة (المعينيين) ايضا . ثم قامت (دولة سبأ) (٣) فنازعت (المعينيين) السلطة حتى قضت عليهم حوالي القرن الثامن قبل الميلاد وتعد (مملكة سبأ) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم أرقى هذه الدول حضارة وأكثرها تقدما فقد انشأت السدود

....

٢ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الاول ــ الفصل الثاني ــ الدكتور جواد علي ــ مطبعة التفيض ١٩٥١ .

٣ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الاول ــ الفصل الخامس ــ الدكتور جواد علي ــ مطبعة التفيض ١٩٥١ .

والمعابد واقامت الهياكل والقصور وازدهرت فيها الزراعة والتجارة ثم اضمحلت وتفرق سكانها حوالي القرن الاول الميلادي بسبب تغير طريق التجارة وانهدام (سد مأرب) ثم ظهرت (دولة حمير) فخلفت (سبأ) في القسم الجنوبي الغربي من اليمن وامتد سلطانها على قبائل العرب في الشمال الى القرن الخامس ثم دخل الاحباش اليمن في القرن الثاني واواخر القرن الثالث الميلادي واستطاع الحميريون من اخراج الاحباش ، ثم عاد الاحباش فملكوا اليمن عام ٣٧٤ م واخرجوا مرة اخرى لكنهم لم يلبثوا ان عادوا لحماية النصارى واستعان العرب بالفرس فأخرجوا الاحباش وجاء الاسلام واليمن تحت سيطرة فارس (٤) . كما قامت مملكة (كنده) في غرب حضرموت ، هذا في الجنوب اما في شمال الجزيرة فقد قامت (مملكة النبط) في المنطقة الشمالية الغربية من جزيرة العرب قبل الميلاد اذ كانوا بدوا في الاصل يسكنون البادية الواقعة شرق (شرقي الاردن) ثم ارتحلوا نحو الغرب فنزلوا في أرض (أدوم) حوالي ٥٨٧ ق.م (٥) . كما قامت بعدها مملكة (تدمر)، وتدمر مدينة صحراوية نشأت قبل الميلاد في بادية الشام غرب الفرات كمنزل منعزل تنزل فيه القوافل ومركز ديني مهم لعبادة الاصنام ، وازدادت اهميتها بعد سقوط (بطرا) وكانت تتمتع بموقع سوقي خطير لوقوعها بين امبراطوريتين عظيمتين : امبراطورية الرومان ، وامبراطورية الفرثيين كما تؤلف عقدة خطيرة على طرق التجارة حيث تمر بها القوافل التي تقصد أسواق العراق او اسواق البحر الابيض المتوسط (٦) . كما

....

٤ — مهد العرب ص ٩٨ — الدكتور عبد الوهاب عزام — سلسلة اقرأ .

٥ — تاريخ العرب قبل الاسلام — الجزء الثالث — الفصل الاول — الدكتور جواد علي — شركة الرابطة للطبع بغداد ١٩٥٣ .

٦ — تاريخ العرب قبل الاسلام — الجزء الثالث — الفصل الثاني — الدكتور جواد علي — شركة الرابطة للطبع بغداد ١٩٥٣ .

نشأت امارتان عربيتان : امارة الحيرة التي كانت عونا للفرس على حرب الروم وامراء الغساسنة الذين كانوا عونا للروم على الفرس .

لقد ظلم العرب قبل الاسلام حين وصفوا بالجهل والانكماش وعدم المشاركة في صنع الحضارة الانسانية ، فقد كان لجزيرة العرب شأن خطير في اقتصاد العالم وكان العرب على اتصال بمصر وحوض البحر الابيض المتوسط وبالمحيط الهندي ، وكانت تجارتهم تصل الى اسواق العالم القديم حيث تمخر سفنهم البحار محملة بالبخور والمر والافاوية والمعادن والاخشاب .. وقامت في الجزيرة حضارات اصيلة لا زالت بعض اثارها باقية ، من سدود ومعابد وقصور وهياكل . ولقد اظهرت التنقيبات الاخيرة مدى التقدم الذي بلغه العرب في فن الري والتحكم في موارد المياه (٧) وقد أيد المستشرقون ان بلاد العرب كانت وثيقة الصلة بالعالم الخارجي وان شعوبها قد شاركت في الحياة البشرية شأن الشعوب الاخرى وان التبادل المادي والروحي كان مستمرا مع الشام والعراق ومصر وايران وحوض البحر الابيض المتوسط والهند وافريقية (٨) .

كانت الحروب والغزوات كثيرة الوقوع في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وكانت الممالك والحكومات والامارات والقبائل في حالة نزاع يكاد يكون دائما ، يتنازع بعضها مع بعض ومع جيرانها في الشمال ، فالغزوات مستمرة والحروب المحلية تنشب لاتفه الاسباب شأن حروب ذلك العصر . وكان التباهي والمفاخرة والثأر والمنافرة من أسباب القتال المستمر بين القبائل واراقة

....

٧ — تاريخ العرب قبل الاسلام — الجزء الاول — الفصل الرابع — الدكتور جواد علي — مطبعة التفيض ١٩٥١ .

٨ — تاريخ العرب قبل الاسلام — الجزء الاول — الفصل الاول — الدكتور جواد علي مطبعة التفيض ١٩٥١ .

الدماء الغزيرة ، ورب منافرة بين اثنين ادت الى قتال بين قبيلتين ثم أدت بالتالي بسبب (الاحلاف) الى قتال بين عدد من القبائل ظل مستعرا عشرات السنين . ونجد نصا اشوريا يرجع الى عام ٨٥٤ ق.م يشير الى معارضة العرب للسياسة الاشورية، وكانت القبائل تهاجم ارض ما بين النهرين والشام وتقلق حكوماتها، وتنتقل بحرية في البادية الواسعة دون أن تأبه بحدود او حكومات، وقد تقوم بحماية الطرق التجارية الصحراوية وحدود الدول وأخذ الاتاوة من القوافل كل في منطقة نفوذها ، وكان التنافس بينها على أشده فاستغلت الدول الكبرى ذلك لمصلحتها وجرد (أشور بانيبال) عدة حملات على القبائل العربية التي هاجمت حدود بلاد اشور وقوافلها (٩) .

وبالرغم من كثرة حروب العرب الداخلية والخارجية وغزواتهم التي لم تنقطع فاننا لم نجد ما يكفي لمعرفة احوال الاسرى وكيفية معاملتهم ، فالنقوش والكتابة التي تعتبر في طليعة المصادر التاريخية قليلة جدا حتى الآن وتتناول أمورا شخصية في الغالب ومعظمها غير مؤرخ. اما الموارد العربية الاسلامية فتعتمد على الروايات التي تنقل سماعا وهي متناقضة تلجأ الى المبالغة والتهويل في كثير من الاحيان وهذا دأب الاخباريين في تلك العهود وهذا ما نجده عند غيرهم من الامم والشعوب حيث يغلب العنصر القصصي على العنصر التأريخي .

اما التوراة والتلمود والكتب القديمة من السريانية فقد تضمنت اخبارا تاريخية وجغرافية مهمة ومعلومات ثمينة ومفصلة عن العرب ، لكنها هي الاخرى لم تتطرق الى احوال الاسرى وشؤونهم (١٠) ولست أشك بوجود عدد كبير من العبيد في المجتمع

....

٩ — تاريخ العرب قبل الاسلام — الجزء الاول — الفصل الرابع — الدكتور جواد علي مطبعة التفيض ١٩٥١ .

١٠ — تاريخ العرب قبل الاسلام — الجزء الاول — الفصل الاول — الدكتور جواد علي مطبعة التفيض ١٩٥١ .

المعيني الذي انصرف الى التجارة واعتمد عليها حتى وصلت تجارته مصر واليونان وشمال افريقيه . وقد يكون المعينيون حصلوا على العبيد بالشراء لا بالحرب والقتال فالدول التجارية عادة تؤثر السلام والتفاهم ولا تخوض الحرب الا مكرهة .

ونرى الملك (القتباني) في النص المعروف بـ (SE. 80) يوجه امره الى (القتبانيين) احرارهم وعبيدهم (١١) .... ولما كانت مملكة (قتبان) معاصرة لملكة (معين) فاننا نستطيع الجزم بوجود اعداد كبيرة من العبيد في تلك الازمان كما نجد الحاكم (كرب ال) السبأي يعلن ان أرض (كحد) وسكانها من احرار وعبيد هم في حمايته ، يستغلون الارض ويدفعون الغلات اليه (١٢).

ونجد في كتابة عثر عليها في (مأرب) أن احد حكام او ملوك سبأ وهو (المكرب يثع أمريني) قد هاجم مملكة (قتبان) فقتل زهاء أربعة آلاف جندي ثم هاجم مملكة (معين) وواصل حملته فأخضع القبائل والمدن حتى أرض (نجران) ودارت بقربها معركة قتل فيها من العدو زهاء (٤٥) الف رجل وأسر (٦٣) الف وغنم (٣١) الف رأس من الماشية واحرق ودمر بعض المدن والقرى كما نجد (كرب ال وتر) السبأي يحارب (الاوسانيين) فيقتل منهم (٢١ر٥٠٠) رجل ويأسر (٥٤) الف ثم يتوجه الى (معين) فيهاجم ثلاثا من مدنها ويقتل ثلاثة آلاف رجل ويأسر (٥٤) ألف ثم يتوجه الى (معين) فيهاجم ثلاثا من مدنها ويقتل ثلاثة آلاف رجل ويأسر خمسة الاف ويغنم (١٥٠) الف رأس من الغنم ثم يتجه نحو الشمال للتوسع واخضاع قبائل (نجران) فيقتل خمسة آلاف رجل ويأسر اثني عشر ألفا ويغنم عشرين الف

....

١١ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الثاني ــ الفصل الاول ــ الدكتور جواد علي . مطبعة التفيض ١٩٥٢ .

١٢ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الثاني ــ الفصل الثاني ــ الدكتور جواد علي . مطبعة التفيض ١٩٥٢ .

رأس من الماشية ولقد وسع هذا الملك رقعة سبأ وضم اليهـــا اراض كثيرة ويشير النص المعروف بـــ (GLASER 1000) الذي سجل حروبه واعماله انه قدم ثلاثة قرابين الـــى الالـــه (عشتر) واخشى أن تكون قرابين بشرية ولعلها من أسرى الحـــرب اذ لا يتصور ان ملكا بمكانته وقوته وفتوحاته يقدم ثلاثة قرابين مـــن المواشي لاله الكبير اظهارا للشكر وتقربا له بينمـــا نجـــد ملكـــا حضرميا دونه في المنزلة والقوة يذبح (١٣٥) ثورا و (٨٢) خروفا و (٢٥) غزالا و (٨) فهود قربانا للآلهة في احتفال جرى بمناسبة اعمار واصلاح مدينة (شبوة) عاصمة حضرموت وبناء معبـــد فيها (١٣) . وقد يزول استغرابنا اذا عرفنـــا ان القرطاجيـــين ابناء عمهم كانوا ينصبون في اثناء المعركة ، وبجوار خيمة القائد، الخيمة المقدسة حيث يضحى امامها بالاسرى بعد النصر وكانـــوا يقدمون القرابين البشرية طلبـــا للنصر في اثنـــاء المعركة ومن القرطاجيين انفسهم ، ففي معركة (هيميرا) التي جرت عـــــام ٤٨٠ ق.م انتحى القائد القرطاجي جانبا على سفح التل وجعـــل يقدم القرابين التي التهمتها النيران طلبا لرضا الآلهة وظلـــــت الضحايا من جنوده تتهاوى في النار والكهنة من حولها يتمتمـــون بأدعيتهم والاله لا يستجيب واستحر القتل في صفوف القرطاجيين واخيرا بذل القائد محاولة يائسة لاحراز النصر لقرطاجة اذ قذف بنفسه الى النار ، كما وجدت في مقابر قرطاجية عظام يرجـــح انها بقايا عظام اطفال رضع احرقوا قربانا بشريا للالـــه المرعب (بعل هامان) (١٤) . وزعم بعض المؤرخـــين ان المنذر ضحـــى باربعمائة راهبة (للعزى) عام ٥٢٩ م احتفالا بانتصاره عـــلى

....

١٣ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الجزء الثاني ـ الفصل الثالث ـ الدكتور جواد علي . مطبعة التفيض ١٩٥٢ .

١٤ ـ تاريخ العالم ـ المجلد الثالث ـ فصل ٥٤ ـ الناشر جـــون أ. هامرتن ـ ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ـ القاهرة ـ مطبعة مصر .

الروم وتوغله في بلاد الشام حتى بلغ حدود (انطاكية) فأحرق عددا من المواضع ومنها موضع (خلقيدون) .

واستمرت حروب الملك السبأي (كرب ال) وتوالت انتصاراته فضاعف الجزية ونهب المدن وحرر الاسرى السبأيين الذين وقعوا في ايدي (الاوسانيين) وعاد بهم الى سبأ احرارا مكرمين . وكان هجومه على (كحدسوطم) شديدا بسبب عداء أهلها لسبأ فأنزل بها هزيمة منكرة واوقع بها خسائر جسيمة وأخذ منها ألف طفل اسير والفي حائك عدا الغنائم الكثيرة . وفي هجومه على مدن (سبل) و (هرم) و (فنن) قتل ثلاثة آلاف بضمنهم الملك وأسر خمسة آلاف وغنم (١٥٠) الف رأس من الماشية وفي هجوم آخر على بعض القبائل قتل خمسة آلاف واخذ اثني عشر الف طفل أسير وحوالي مائتي الف من الجمال والحمير والبقر والغنم واحرق المدن والقرى وفرض الجزية ولا ندري ما آل اليه أمر آلاف الاطفال الاسرى ولعل الملك السبأي اراد القضاء نهائيا على هذه المدن والقبائل او توخى زيادة نفوس مملكته فضم اليها آلاف الاطفال الذين سرعان ما ينسون اهلهم وعشيرتهم ، او اعتبارهم ارقاء للدولة تستخدمهم كيف تشاء او تبيعهم عبيدا في المستقبل او تبقيهم رهائن . ومهما يكن الامر فان العمل فظيع بشع (١٥) .

ويحدثنا النص (GLASER 119) عن غزو قام به (الشرح يخصب) ــ قبل تتويجه ملكا على سبأ ــ على أرض (حمير) و (حضرموت) وعودته منتصرا مع عدد كبير من الاسرى والغنائم (١٦) .

اما في الشمال فكانت المناوشات مستمرة بين القبائل العربية

....

١٥ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الثاني ــ الفصل الثالث ــ الدكتور جواد علي . مطبعة التفيض ١٩٥٢ .

١٦ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الثاني ــ الفصل الخامس ــ الدكتور جواد علي . مطبعة التفيض ١٩٥٢ .

وبين اشور ، وتوالت الحملات العسكرية الاشورية واضطـــرت القبائل الى التحالف مع مشايخ الاقطـــاع وامـــراء المـــدن (الاراميين) و (الفينيقيين) و (اليهود) وكان النصر حليـــف أشور واكره العرب في احيان قليلة على الخضوع ودفع الجزيـــة او التراجع الى داخل جزيرتهم التي هي حصنهم وملاذهم الاخير . ومع ذلك لم يقسوا الاشوريون كدأبهم مـــع العرب الضمان سلامة قوافلهم ومناعة الصحراء حيث يصعب على الجيوش النظاميـــة التوغل في البوادي والمطاردة فآثروا اللين والمصالحة على العنف والقسوة . ولم يتجاوز نفوذ اشور السياسي النهاية الشماليـــة لخليج العقبة والاقسام الشمالية من (وادي السرحان) كمـــا لم نشاهد القسوة الاشورية المألوفة مع الاسرى العرب ، وكـــان الاسرى من الامراء والرؤساء والشيوخ العرب يؤخذون الـــــى (نينوى) لكي يربوا تربية سياسية خاصة تتفق مع اهداف اشور وبذلك تضمن اشور سلامة حدودها وقوافلها عندما يعود هـــؤلاء الاسرى الى بلادهم واقوامهم لتولي شؤونها . واستمرت غـــارات العرب ولم تجد سياسة اشور هذه ، والظاهـــر أن كراهيـــة الاعراب للاشوريين كانت في غاية الشدة وكانوا يساعدون المتمردين والخارجين على اشور ويشجعونهم . أما صلة العرب بالكلدانيين والفرس فكانت احسن ، فغاراتهم قليلة وتعرضهم للقوافل محدود جدا . كما ساعدوا (بابل) في حربها مع (اشور) وعاونـــوا الفرس في زحفهم على مصر اذ امدوا جيش (قمبيز) بالجمـــال ومونوا قطعانه بالماء ولولا المعونة العربية في (صحـــراء سيناء) لتعذر عليهم الوصول الى مصر ولقد ذكر (هيرودوتس) ان معاملة الفرس للعرب كانت كريمة اذ اعتبروهم حلفاء واصدقاء وكـــان بضمن الجيش الفارسي الزاحف فرقة عربية (١٧) . أما في شمال

....

١٧ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الثاني ــ الفصل السادس ــ الدكتور جواد علي مطبعة التفيض عام ١٩٥٢ .

غرب الجزيرة فقد غزت قبائل يعتقد أنها عربية أرض فلسطين في اوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد واستطاع (المديانيون) من اذلال (الاسرائيليين) سبع سنين ، وكان العمالقة اول الشعوب التي قاومت العبرانيين وحاربتهم لمنعهم من دخول فلسطين ، ثم نشبت الحرب بين (الادوميين) و (الاسرائيليين) في عهد الملك (شاؤول) واستمرت في ايام النبي (داود) . وتشير التوراة الى قيام علاقات بين العرب والعبرانيين في ايام النبي (سليمان) الذي كون له اسطولا تجاريا في (خليج العقبة) وورث (الانباط) (الادوميين) وسيطروا على طرق التجارة التي كانت تمر بأرض (أدوم) وتمكنت هذه المملكة العربية من توسيع اراضيها حتى بلغت حدودها الشمالية (دمشق) ووجهت ضغطها على (يهوذا) بينما استطاعت القبائل العربية من توطيد أقدامها في الاردن وفلسطين ، ولقد ذابت العناصر القديمة التي كانت تسكن فلسطين قبل مجيء العبرانيين والقبائل العربية في مملكة النبط التي انصهرت في بوتقة العروبة وكانت الحروب بين هذه الاقوام قاسية وفظيعة فكان الاسرى يسترقون ويعاملون بقسوة ثم يباعون عبيدا الى اليونانيين او السبأيين . وكانت المدن والهياكل والمعابد والقرى تنهب ثم تحرق وتدمر ويسبى السكان . ويشير الاصحاح الثالث من (يوئيل) ان (الصوريين) و (الصيدونيين) وجميع دائرة فلسطين استولوا على كنوز ونفائس الهيكل من فضة وذهب ثم باعوا (بني يهوذا) و (بني اورشليم) الى اليونان (١٨) . أما معاملة اليهود للاقوام المغلوبة فقد تحدثت عنها في (الفصل الرابع من الباب الاول) .

ان موقع الجزيرة السوقي وتوسطها بين قارات ثلاث

....

١٨ — تاريخ العرب قبل الاسلام — الجزء الثاني — الفصل السادس — الدكتور جواد علي مطبعة التفيض عام ١٩٥٢ .

وسيطرتها على طرق التجارة جذب اليها اهتمام اليونان والرومان وفكر (الاسكندر الكبير) في ضمها الى املاكه والسيطرة على تجارتها وبحارها ، ولما عرف الصعاب التي ستواجهه برا بسبب مناعتها وشجاعة سكانها عزم على غزوها بحرا لكن المنية عاجلته ، كما أراد (البطالسة) السيطرة على البحر الاحمر والتحكم في تجارته فأرسلوا البعثات الاستكشافية لمعرفة طبيعة سواحله ، وتمزقت امبراطورية (الاسكندر) وانتهزت (روما) فرصة ضعف خلفائه فضمت سورية الى املاكها وبدأ اتصال الرومان بالعرب وفي عام ٦٤ ق.م توجه (بومبيوس) القائد والقيصر الروماني الى سورية للاشراف على اخضاع جميع اجزائها ثم سير حملة الى ارض (اريطاس) ملك العرب الذي قاوم واستبسل واحتل الرومان القدس وارض يهوذا وسائر فلسطين والحقت بالمقاطعة السورية واخذ الاسرى الى روما ليشتركوا في موكب الاسرى احتفالا بانتصار (بومبيوس) ، وأنجد العرب (يوليوس قيصر) عندما تأزم الموقف في مصر ، كما انجدوا (هيركانوس) الذي فر من القدس الى (بطرا) عندما ظهرت امام العاصمة طلائع الفرس .

وحاول (اغسطس قيصر) السيطرة على الجزيرة العربية او على المراكز الحساسة فيها مستعينا بحلفائه (الانباط) فمني جيشه بخسائر فادحة وظلت الجزيرة حصينة منيعة تتحكم في التجارة العالمية وأكره الرومان على اتباع سياسة جديدة بعد اخفاق حملة (ادليوس غالوس) فلم يفكروا في فتح عسكري جديد واكتفوا بالهيمنة على تجارة البحر الاحمر وتحسين علاقاتهم السياسية بالدول العربية والمشيخات للمحافظة على تجارتهم ومصالحهم الاقتصادية فعقدوا معاهدة تحالف مع ملك (ظفار) ووجهوا انظارهم نحو سواحل افريقية والحبشة وعزا (ديودورس) الصقلي المتوفي في القرن الاخير قبل الميلاد عدم تمكن الاشوريين والفرس واليونان من استرقاق العرب وتعيين امير عليهم الى

صعوبة اجتياز المناطق الصحراوية وندرة المياه وحرص الاعراب على اخفاء معالم الآبار عن الغرباء (١٩) .

وكان الرقيق منتشرا في الجزيرة ، فالسبأيون يحصلون عليه بشراء السبي من فلسطين ونقله الى بلادهم للانتفاع به في شتى المجالات ، وقد يتخذون النساء الجميلات زوجات اما غير الجميلات فللخدمة المنزلية ، وكان الرجال يستخدمون حسب قابلياتهم ومواهبهم ، بينما نجد الاعمال الشاقة والتي تتطلب قوة بدنية تعهد الى العبيد المستوردين من أفريقية فكانوا رعاة للماشية وعمالا للحفر وحمل الاثقال وكان ثراء السادة يقاس بكثرة العبيد والارقاء كما كانت حروب القبائل العربية مع الدول المجاورة من روم وفرس وأحباش والغزوات في شمال الجزيرة مصدرا هاما من مصادر الرقيق فالغالب المنتصر يأخذ من يقع في قبضته ويصبح الاسير ملكا للآسر لكنه يستطيع أن يفتدي نفسه والا ظل في حوزة آسره او الدولة تتصرف به كيف تشاء وقد يباع عبدا في سوق النخاسة او يحرر وكانت معاملة الرقيق قاسية فظة بعيدة عن الشفقة والرحمة (٢٠) .

واعتبرت طبقة العبيد ادنى طبقات المجتمع العربي حيث تقوم بجميع الخدمات التي يأنف الانسان الحر من مزاولتها وقد يكون معظمهم من الزنوج المستوردين من افريقية الذين يباعون ويشترون في أسواق النخاسة كبقية السلع الاخرى (٢١) .

....

١٩ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الجزء الثاني ـ الفصل السابع ـ الدكتور جواد علي ـ مطبعة التفيض ١٩٥٢ .

٢٠ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الجزء الثامن ـ الفصل الثالث ـ الدكتور جواد علي ـ المجمع العلمي العراقي ١٩٦٠ .

٢١ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الجزء الثامن ـ الفصل الاول ـ الدكتور جواد علي ـ المجمع العلمي العراقي .

الباب الثـــاني

العصور المتوسطة

الفصل الاول

المسيحية

ولد المسيح عليه السلام بمدينة (بيت لحم) في فلسطين أيام كان (هيرودس) ملكا على اليهود (١) في عهد القيصر الروماني (اغسطس) (٢) ودعي تلاميذ عيسى بالمسيحيين لاول مرة في مدينة (انطاكية) (٣) وكان المسيحيون في اول الامر من اليهود الذين لم يعتبروا انفسهم اتباع دين جديد ، وانما مفسرين للديانة الموسوية ، وسرعان ما دب الخلاف واستشرت العداوة بين اليهود والمسيحيين بسبب اعتقاد الاخيرين ، ان يسوع الناصري هو المسيح الذي بشر به الانبياء من قبل ، وكثر المسيحيون عندما قبل تلاميذه في صفوفهم كل من آمن بالمسيح بغض النظر عن عنصره ولغته واستطاعت المسيحية كحركة تحررية التخلص من اقليمية الديانة اليهودية وعنصريتها باعتبارها دين البشرية وهي اليوم دين الغالبية العظمى (٤) .
دعا المسيح الى نصرة الضعفاء والمساكين وتحرير الارقاء والعبيد والاسرى ، ومنى المسبيين بالعتق ، والمأسورين بالاطلاق ، والمنسحقين بالحرية (٥) .

....

١ — انجيل متى الاصحاح الثاني .
٢ — انجيل لوقا ، الاصحاح الاول والثاني .
٣ — اعمال الرسل ، الاصحاح الحادي عشر .
٤ — حكمة الاديان الحية — المسيحية — تأليف جوزيف كاير ترجمة المحامي حسني الكيلاني .
٥ — انجيل لوقا ، الاصحاح الرابع .

وكان متسامحا يعفو عن كل الاخطاء الا عدم الايمان ، شديد الشعور الديني ، يفيض قلبه بالعطف والرحمة والحنان ، كثير الاختلاط بالفقراء والمساكين (٦) . حث على البساطة واوصى بالزهد واعطاء الفقراء ، وفهم الكثيرون ان (ملكوت الله) طوبى شيوعية ، وان المسيحية ثورة اجتماعية ، ويبدو ان (الرسل) فسروا (الملكوت) بأنه انقلاب ثوري للعلاقات القائمة بين الاغنياء والفقراء . نادى بالمحبة والسلام فقال ان يعطوا (ما لقيصر لقيصر وما لله لله) . نصح ان يدير الانسان خده الثاني . شجب العنف والقسوة ولم يناد بالثورة او يهاجم النظم الاقتصادية والسياسية القائمة ، او يطعن في الحكومة المدنية او يسيء لاي عامل او موظف روماني (٧) . لم يفكر في القضاء على الفقر لكنه حث على تخفيف آثاره ، لكن روما رأت في المسيح مصدر خطر على نظامها وامنها فقررت التخلص منه واتهمته بالتآمر ليكون (ملك اليهود) وتم لها ما ارادت .

وسرعان ما قفز عدد المسيحيين من (١٢٠) الى (٨٠٠٠) فاستولى الرعب على كهنة اليهود الذين بدأوا يكيدون للايقاع باتباع المسيح وتلاميذه فقبض على (بطرس) وغيره ، واكتفي بجلدهم ، واستمر الاضطهاد فزج باتباع الكنيسة الصغيرة في السجن وفر بعض الرسل والتلاميذ الى (السامرة) و (انطاكية) وانشأوا فيها جماعات مسيحية قوية (٨) ولما ثار اليهود على (روما) ترك المسيحيون (أورشليم) وأقاموا في البلاد الوثنية في الضفة البعيدة من نهر الاردن ، فكان ذلك بداية فرقة وتبادل اتهامات بين المسيحية واليهودية .

....

٦ ــ قصة الحضارة الجزء الثالث من المجلد الاول ــ الفصل الثالث ول ديورانت ترجمة محمد بدران القاهرة ١٩٦٤ .

٧ ــ قصة الحضارة الجزء الثالث من المجلد الاول ــ الفصل الرابع ول ديورانت ترجمة محمد بدران القاهرة ١٩٦٤ .

٨ ــ قصة الحضارة الجزء الثالث من المجلد الاول ــ الفصل الرابع ول ديورانت ترجمة محمد بدران القاهرة ١٩٦٤ .

واستعرت نيران الحقد بين الديانتين امدا طويلا،وتقلص عدد اليهود من اتباع المسيح وسيطرت العقلية اليونانية على الدين الجديد فشكلته وصبغته بصبغتها ، واستطاع الرسل والتلاميذ نشر الانجيل بين اليهود المشتتين فيما بين (دمشق) و (روما) وانضم الى الدين الجديد عدد من اهالي (السامرة) و (قيصرية) و (افسوس) واخذ (بطرس) يتجول في المدن السورية للوعظ والتبشير ، وتزايد عدد المسيحيين ، واهتدت اعداد كبيرة من الوثنيين بضمنهم بعض الرومان ولم يعد الدين الجديد مقتصرا على اليهود . اذ استطاع (بطرس) ان يشق طريقه الى (روما) بعد تجواله في آسية الصغرى وكان له الفضل في انشاء جالية مسيحية فيها ، كما قام (بولس) برحلات تبشيرية عديدة (٩) وبذل الاثنان اقصى جهدهما وتنافسا لهداية سكان الامبراطورية، واستشهدا في سبيل هذه الغاية اذ اعدما في (روما) على الارجح في عهد (نيرون) (١٠) ولم تلبث المسيحية أن انتشرت وعمت متحدية التعذيب والقتل والحرق والارهاب ، اذ لم يحل عام ٣٠٠ م حتى كان ربع سكان الشرق وعدد غير قليل من سكان الغرب من المسيحيين ، ففي (روما) وحدها بلغ عدد الجالية المسيحية أكثر من مائة الف (١١) واخيرا اصبحت دين الامبراطورية الرسمي في عهد الامبراطور (قسطنطين) الذي

....

٩ — قصة الحضارة — المجلد الثالث — الجزء الثالث — الفصل الثاني — ول ديورانت ترجمة محمد بدران ١٩٦٤ .

١٠ — قصة الحضارة — المجلد الثالث — الجزء الثالث — الفصل الثاني — ول ديورانت ترجمة محمد بدران ١٩٦٤ .

١١ — قصة الحضارة — المجلد الثالث — الجزء الثالث — الفصل الثاني — ول ديورانت ترجمة محمد بدران ١٩٦٤ .

توفي عام ٣٣٧ م .

ان ظهور الديانة المسيحية في الامبراطورية الرومانية وانتشارها ثم تحولها الى دلالة رسمية تؤثر تأثيرا كبيرا على المجتمع الروماني ــ الذي يضم عشرات الاجناس ــ تناول اغلب نواحي نشاطه وجميع طبقاته وغالت قلة من المؤرخين فرأت ان المسيحية كانت أهم اسباب سقوط الدولة الرومانية اذ حطمت وحدة الامبراطورية ودعت الى مبدأ السلام وعدم المقاومة ومهما يكن الامر فان اثرها من الناحية الاخلاقية كان اثرا حسنا اذ ضرب المسيحيون الاوائل الذين كانوا ينشدون الكمال اروع الامثلة في الصبر والتضحية والايمان ، واستطاعت مبادئهم الاخلاقية السماوية ان تهذب ما في الانسان من غرائز حيوانية كما اعلنت المساواة التامة بين الانسان واعتبرت الفروق الدنيوية امورا زائلة تافهة ووهبت الرحمة للبائسين والمحطمين والمحرومين واحيت في النفوس الخاوية الامل والرجاء واخيرا جاءت بقانون اخلاقي جديد قائم على الاخوة والمحبة والرحمة والسلام .

لم تستطع المسيحية تحريم الرق او تحرير العبيد لكنها ساعدت كثيرا على تحسين حالة العبيد وأوحت بقوانين كثيرة هدفت الى الرفق بالرقيق وتكثير اسباب التحرير والحد من أسباب الاسترقاق واعطاء الارقاء المزيد من الحرية والحقوق ومنح جميع العتقى حق الجنسية الرومانية بصرف النظر عن أعمارهم وكيفية امتلاكهم والشكل الذي تم به الاعتاق وادخلت طرق عدة لمنح الحرية وحق الجنسية ونشأت طريقة رسمية جديدة هي التحرير في الكنيسة واصبح العتقى طبقتين بدلا من ثلاث حيث حذفت طبقة (الاخاء) (١٢) ولم يعد يجوز للمواطن الروماني ان

....

١٢ ــ مدونة جوستينيان الباب الثاني ترجمة عبد العزيز فهمي ١٩٤٦ .

يقسو في معاملة عبده قسوة زائدة بلا سبب شرعي (١٣) واخيرا ازال (جوستينيان) بنود القانون العام بالنسبة للروماني المحرر. لم تهاجم الكنيسة نظام الرق ولم يمنع اتباعها من امتلاك العبيد لكن الارقاء المسيحيين ، كانوا يعتبرون اخوانا واخوات (في المسيح) وكان العتق والتحرير يلقى كل تشجيع باعتباره من اعمال البر ، وكانت معاملة المسيحيين للعبيد تفيض بالعطف والرحمة ، وكثيرا ما كان العبيد يعلمون تعليما عاليا يصبحون بعده مستشارين او أمناء او اصدقاء لسادتهم ، ولم يكن هناك ما يمنع العبد أن يصبح قسا او اسقفا بعد تحريره وكان شرف الامة المسيحية مصان ، ولم تكتف الكنيسة المسيحية باسناد سلطان القياصرة بل باركت جهودهم في اصلاح الادارة وساهمت في اغاثة المعوزين والفقراء ، وبينما كان سلطان (روما) يحتضر في الغرب ، كانت الكنيسة تبني نظاما كتب له أن يعمر ويسيطر على أوربا حقبة طويلة ، وهكذا اسلمت الامبراطورية المحتضرة ازمة الحكم الى البابوية القوية عام ٤٧٦ م بعد استيلاء الجرمان على (رومة) واصبحت القوة الوحيدة في الميدان وحل متشردوها محل جيوش الرومان وعادت الولايات الثائرة بعد أن اعتنقت المسيحية الى الاعتراف بسيادة روما وحافظت العاصمة القديمة على سلطانها الذي ظل ينمو ويقوى واصبحت من جديد مركز التوجيه والاشعاع والثراء ، وظلت الامبراطورية الرومانية الشرقية قائمة حتى عام ١٤٥٣ م (١٤) .

ولقد عملت الكنيسة على تقوية فكرة السلطة الزمنية الموحدة وازدادت قوة البابا ونفوذه وتدخله في شؤون الدول والممالك

....

١٣ — مدونة جوستينيان الباب الثامن ترجمة عبد العزيز فهمي ١٩٤٦ .

١٤ — قصة الحضارة الجزء ١١ الفصل الثاني ول ديورانت ترجمة محمد بدران ١٩٦٤ .

والامارات وبقي زهاء خمسة قرون قاضيا دوليا يحتكم اليه الملوك والامراء وبذلت الكنيسة جهدا مخلصا للحد من الحروب الخاصة التي كانت تقع بين امراء الاقطاع (١٥) .

....

١٥ ـــ القانون الدولي العام ص ٤٥ الدكتور عبد المجيد عباس .

الفصل الثاني

الامبراطورية الرومانية

بلغت الامبراطورية الرومانية اوج عظمتها في عهد حكامها الاربعة الذين تعاقبوا بعد (نيرفا) عام ٩٨ م واعتبر هذا العهد عصر الامبراطورية الذهبي ، فقد وقع اختيار (نيرفا) على (تراجان) الذي قام بغزوات موفقة عبر (الدانوب) على (داشيا) وغزا (البارثيين) اذ عبر (الفرات) واستولى على (ارمينية) وبلاد (ما بين النهرين) ثم عبر (دجلة) مستهدفا مدينة (السوس) واضطر الى الانسحاب بسبب تمرد بعض المناطق المحتلة وخلفه ابن عمه (هارديان) الذي آثر السلام والتفاهم على الحرب والقتال وتلاه (انطونيوس) وكان عهده عهد سلام وأمن وجاء بعده (ماركس ادريليوس) الامبراطور الفيلسوف الذي اكره على القتال لحماية الامبراطورية الرومانية وتعاقب على العرش اباطرة جاء بهم قواد الحرس الامبراطوري او الكتائب التي كانت تحت أمرتهم (١) .

واضطربت الاحوال في (البلقان) واستفحل أمر (القوط) واعتلى العرش اباطرة تنقص اغلبهم الحكمة والحزم وكان

....

١ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الثالث ــ الجزء الحادي عشر . الناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

للجيش دور بارز في تنصيبهم وانهاء حياتهم واستمر القتال مع (الفرس) في الشرق ومع (القوط) والقبائل الالمانية في الغرب.
وفي عام ٢٨٦ م انشأ الامبراطور (دقلديانوس) قيادتين عسكريتين شرقية وغربية تولى كل منهما امبراطور مستقل وانفرد (قسطنطين) في الحكم عام ٣٢٣ م بعد ان انتصر على منافسه ولم يلبث ان نقل مقره الى (القسطنطينية) عام ٣٣٠ م وظلت الحرب مستعرة مع (فارس) وخاض الطرفان معارك قاسية اذ لم يكن الحفاظ على حدود الامبراطورية التي يبلغ طولها عشرة آلاف ميل والتي تضم مائة أمة بالامر السهل (٢) .

وكانت (رومة) محاطة دائما بالاعداء المتربصين وتعرضت (اسبانية) و (غالة) و (بريطانية) لغارات (القوط) و (الوندال) و (القبائل الجرمانية) وغدت شواطىء (النروج) اوكارا للقراصنة والمغيرين واستمرت غارات القبائل على الاراضي الرومانية وتدفقت سيول المهاجرين ولم يكن هناك حصن او حامية تصدهم ثم سمح لهم بالاستقرار داخل الامبراطورية ليعمروا الارض الخالية وليسدوا نقص القوات الرومانية التي قضت الحروب الكثيرة على زهرة شبابها وقبل أن ينصرم القرن الرابع كانت غالبية سكان (البلقان) و (غالة الشرقية) من الجرمان (٣) وفي عام ٤٧٦ م احتل (الجرمان) (روما) وانهارت الامبراطورية الرومانية الغربية التي دامت أكثر من خمسمائة سنة وشاع عهد من الفوضى والاضطراب وابتدأ عصر مظلم اكتنفه الغموض ولعل ابرز ما فيه تكتل الغزاة (التيوتونيين) في قوميات

....

٢ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الرابع ــ الجزء الثاني عشر . الناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

٣ ــ قصة الحضارة الجزء (١٢) الباب الثاني ول ديورانت ترجمة محمد بدران . الطبعة الثالثة ١٩٦٤ .

متعددة وظهور البابوية والنزاع بين السلطة الزمنية والروحية .
اما في الشرق فقد ظهر الاسلام واتسعت رقعة فتوحاته وظلت الامبراطورية البيزنطية تحاول ايقاف انتشار الدين الاسلامي ، وسرعان ما قضى المسلمون على الامبراطورية الفارسية واستولوا على اجزاء كبيرة من الامبراطورية البيزنطية وحاصروا عاصمتها (القسطنطينية) اكثر من مرة (٤) واخيرا فتحها العثمانيون عام ١٤٥٣ م فانهارت الامبراطورية البيزنطية .

كانت (رومة) قاسية في معاملة اسراها ، وقد يكون لها العذر بالنسبة لفارس حيث لجأ الطرفان الى التدمير وامعنا في القسوة بدافع الثأر والانتقام ولم يذكر التاريخ حادثة واحدة تبودل فيها الاسرى او اطلق سراحهم .

ولقد صورت وقائع الحرب (الداشية) الاولى في عام (١٠١ م — ١٠٢ م) بمناظر سبعة نقشت على عمود (تراجان) تدل على قسوة الامبراطور (تراجان) وتمجيده للقوة والحرب عند اخضاعه القبائل المتمردة عبر (نهر الدانوب) والتي يقودها (ديكيبانوس) ويرينا احدها الامبراطور محاطا بضباطه وحرسه وقد رفعوا اعلام النصر بزهو وخيلاء وهو يتقبل خضوع الاهلين بينما يجثو زعيم (داشيا) (٥) على قدميه وقد رفع ذراعيه متوسلا كما يقف امام الامبراطور صف طويل من الاسرى (الداشيين) يتضرعون وهم ركوع (٦) .

وقام الامبراطور الروماني (كراكلا) الذي تولى الحكم بعد وفاة ابيه عام ٢١١ م بفظائع وحشية تدل على الخسة والغدر

....

٤ — تاريخ العالم — المجلد الرابع — الجزء الثالث عشر . الناشر جون ا. هامرتن ترجمة وزارة التعليم والتربية المصرية .

٥ — تطلق (داشيا) على الاراضي التي تضم حاليا هنغاريا ورومانيا تقريبا.

٦ — تاريخ العالم — المجلد الثالث — الجزء الحادي عشر (ص ٦٦٨) الناشر جون أ. هامرتن . ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

والجبن ، اذ طلب عند اقترابه من (طيسفون) ان يتزوج ابنة الملك (الفرثي) الصغرى ، وانتظر حتى خرج الجيش الفارسي والسكان لمشاهدة الاحتفال بالزواج فانقض عليهم بغتة بجيشه الذي فتك بهم وعاد مثقلا بالاسلاب مع اعداد كبيرة من الاسرى ولم يكتف بما صنع بل نبش قبور الاسرة المالكة الفارسية اثناء رجوعه . وفي احدى المعارك التي جرت بين الفرس والرومان قرب (سنجار) وقع ابن (سابور الثاني) في قبضة احد الفرسان الرومان فعذبه ثم فتك به ، كما احرق الامبراطور الروماني (يوليان) جميع المدن التي استولى عليها في طريق زحفه الى (بابل) وقتل الكثير من سكانها وعاد بالاسرى وبضمنهم نساء فارسيات جميلات (٧) .

لقد اشتهر البيزنطيون بالقسوة وتاريخهم حافل بالفظائع والتعذيب وكانت عقوبات الجلد وسمل العيون والتشويه من العقوبات المألوفة التي يقرها القانون المدني والعسكري ويقول بعض المؤرخين ان الحكم بالعمى والتشويه كان ينظر اليه على انه تخفيف لعقوبة الاعدام وهو ينطوي على الرحمة (٨) ويحدثنا التاريخ فيصف الرومان بالقسوة والوحشية في معاملة اسراهم وعبيدهم ولم ينج من التعذيب سوى المواطنين وحدهم وقد ورثت (بيزنطية) هذا التقليد فأضافت اليه وابتكرت المزيد من وسائل التعذيب . واشتهر الامبراطور البيزنطي (بازيل الثاني) بقسوته وسفكه للدماء وقتله للاسرى بدون ابطاء بعد التمثيل بهم عقب انتصاره ولقب بـ (قاتل البلغار) . ففي عام ١٠١٤ م الحق

....

٧ ــ الرافدان ــ الفصل السادس والسبعون ــ سيتون لويد ــ ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس .

٨ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الرابع (ص ٧١٩ ــ ٧٢٠) الناشر جون ا. هامرتن ــ وزارة التربية والتعليم المصرية .

هذا الامبراطور هزيمة ساحقة بملك البلغار (صموئيل) واسر من قواته خمسة عشر الف أسير سمل عيونهم جميعا ما عـدا رجلا واحدا من كل مائة رجل ابقاه ليكون مرشدا ودليلا لهؤلاء الاسرى البائسين (٩) .

وتقول رواية اخرى أن عدد المرشدين كان مائة وخمسين وانه ابقى عينا واحدة لكل منهم ليقودوا رفاقهم في عودتهم الى بلادهم ولقد انهار الملك البلغاري رغم صلابته امام مشهد الاسرى الفظيع فأصيب بنوبة قلبية ومات حزنا وغيظا (١٠) .

أما العبيد والارقاء فقد تحسنت معاملتهم بفضل شرائع (قسطنطين) وتأثير الكنيسة التي خففت عن كاهلهم كثيرا من الاعباء وحثت السادة على الرحمة والرفق وغدب اسباب التسلية واللهو في (القسطنطينية) اقل قسوة وعنفا من نظائرها في (رومة) .

وكانت طبقة الارقاء لا تزال احط الطبقات سواء في (القسطنطينية) او (رومة) الا ان عددهم قد قل عما كان عليه ايام القيصر في (روما) حيث بلغت الامبراطورية اقصى اتساعها (١١) وفر كثير من السكان في ايطالية الى خارج الحدود تخلصا من الضرائب الفادحة فتناقص عدد السكان وبقيت الاراضي الزراعية بورا لا تجد من يفلحها ، فأدى هذا الى اجتذاب البرابرة الذين كانوا في أشد الحاجة الى تلك الاراضي ، واضطر صغار الملاك الى التخلي عن املاكهم لمن هو أقوى واغنى منهم تخلصا

---

٩ ــ الامبراطورية البيزنطية ص ١٨٩ أومان ــ تعريب الدكتور مصطفى طه بدر .

١٠ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الرابع ــ الخبر السابع عشر الناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

١١ ــ قصة الحضارة ــ الجزء ١٢ الباب الاول تأليف ول . ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثانية ١٩٦٤ .

من الضرائب والنفقات ، وعملوا عندهم زراعا ، وهكذا ظهرت بوادر الاقطاع .

وقل عدد الارقاء وأصبح الحصول عليهم صعبا كما لم يكن كدحهم مجزيا وكثر فرارهم بسبب ضعف الحكومة وزادت تكاليفهم وبدأت شمس الاسترقاق تجنح نحو المغيب وكانت الالعاب العامة لا تزال تشهد قتل الاسرى والمجرمين ليستمتع الناس بهذه المناظر البشعة في اعيادهم التي بلغت (١٧٥) عيدا في العام وقد انفق في حفلة واحدة اكثر من (٣٥٠.٠٠٠) جنيه وان جميع المجالدين السكسون التسعة والعشرين الذين وقع عليهم الاختيار ليقاتلوا في المجتلد قد خنق بعضهم بعضا (١٢) . وفر عدد كبير من البرابرة والارقاء وانضموا تحت لواء (الريك) الذي عاد الى محاصرة (روما) وفتح الارقاء ابواب المدينة للمحاصرين فدخلها البرابرة عام ٤١٠ م وظلت (روما) ثلاثة ايام مسرحا للسلب والنهب فذبح المئات من الاغنياء واغتصبت النساء ثم قتلن وظلت الجثث في الشوارع وحطم العبيد السابقون روائع التماثيل والتحف .

وفي عهد (جوستينيان) صدرت مجموعة القوانين المدنية ولم يعد العتقاء يؤلفون طبقة خاصة بل كانوا يتمتعون اثر تحريرهم بجميع مميزات الاحرار ، فيباح لهم أن يكونوا اعضاء في مجلس الشيوخ او اباطرة واصبح العتقى طبقتين بدلا من ثلاث، اذ حذفت الطبقة الثالثة (الاخساء) بمرسوم ونص القانون على ان يعاقب بالاعدام من يغتصب أمة أسوة بالحرة ويحق للعبد أن

....

١٢ ـ قصة الحضارة الجزء ١٢ ـ الباب الثاني ـ تأليف ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثانية ١٩٦٤ .

يتزوج من حرة بموافقة سيده . كان (جوستينيان) يشجـــــع العتق كما تشجعه الكنيسة واجاز بيع الطفل حين يولد في سوق الرقيق اذا كان ابواه معدمين وتضمن القانـــــون فقرات تشجع استرقاق رقيق الارض فمهد السبيل لنظام الاقطاع .

الفصل الثالث

الامبراطورية الساسانية

في السنة الاولى لميلاد المسيح عقدت معاهدة سلم بـــين (الرومان) و (الفرثيين) في ظروف غريبة وفي جزيرة تقع في نهر (الفرات) حيث يتقابل جيشان كبيران لا يفصل بينهما ســوى النهر ، وتولى اخو الملك الفرثي عرش (ارمينية) وتوج في روما، ثم انهى عهد السلم هذا في زمن (تراجان) وبدأت الجيوشـــس الرومانية تنحدر مع الفرات ودمرت في طريقها الكثير من المـــدن والحصون الفارسية وقتلت آلاف السكان ونهبـــت (طيسفون) العاصمة الفرثية الجديدة واحتلتها اكثر مـــن مرة واصبحـــت (فرثية) اقليما رومانيا لفترة قصيرة ثم استطاع الفرثيـــون ان يثأروا من روما في اواخر عهدهم في موقعة قرب (نصيبين) حيث دارت معركة فظيعة وصفها (هيروديان) فقال : (ان اشـــلاء القتلى وجثثهم تراكمت وعلت فأعاقت حركات الجيشين وتعـــذر على الطرفين رؤية بعضهما) وعقدت في النهاية معاهدة رضيـــت بموجبها روما أن تعيد جميع الغنائم والاسرى التي أخذها الامبراطور (كراكلا) في هجومه الغادر وان تدفع ما يساوي مليونـــي ونصف المليون دينار تعويضا لما استباحه من القبور في (اربيل) . ثـــم نشبت ثورة في (برسيس) عام ٢١٢ م اذ أطاح (اردشير) بمملكة الفرثيين وبه ابتدأت الامبراطورية الساسانية ولم يلبـــث أن استولى على (ارمينية) التي كانت سبب مشاكل دائمة مـــع (رومة) وهكذا بدأ العهد الجديد بمحاربة رومة ثم غزا الفرســـ

(الشام) واستولوا على (انطاكية) واحتلوا (لزيكا) (١) احتلالا مؤقتا وهددوا حتى (القسطنطينية) نفسها واستمرت الحروب سجالا بين الامبراطوريتين طوال القرون الاربعة التي حكم خلالها الساسانيون وكان أعظم انتصاراتهم حين اسر (سابور الاول) الامبراطور الروماني (فاليريان) (٢) ثم ظهر الاسلام فقضى على الامبراطورية الساسانية في عهد (يزدجرد الثالث) عام ٦٥١ م ودخلها الدين الاسلامي الحنيف وساهمت (ايران) في بناء حضارة اسلامية رائعة قدمت للبشرية خير ما لديها .

ابتدأ الساسانيون عهدهم كما ذكرت بشن حروب متوالية على (رومة) منافسهم الخطير وخصمهم الالد وجرت بين الامبراطوريتين معارك قاسية تحولت الى مجازر رهيبة غذاها الحقد والانتقام وتقول الروايات ان (سابور الاول) غالى في اذلال واهانة الامبراطور الروماني (فاليريان) اذ كان يطأ بقدمه عنقه كلما هم باعتلاء صهوة جواده وقضى هذا الامبراطور الشيخ في الاسر سنوات حافلة بالعذاب والآلام ثم سلخ جلده وحشي بالتبن وحفظ في أحد المعابد الفارسية ، وبدأ (بهرام الاول) عهده بقتل (ماني) (٣) وسلخ جلده وحشى بالتبن ثم علق على باب المدينة وذاق النصارى الوانا من التعذيب والاضطهاد على يد (يزدجرد) الملقب بالاثيم . وفي عهد ملك ثان وقعت اول مذبحة كبيرة من النصارى في (كركوك) ، ولما استولى (قباذ الاول) على (آمد) (٤) بعد حصار طويل قتل الرهبان وجميع حامية المدينة التي وقعت في الاسر وحملت الى الباب الشرقية ثمانين الف جثة ليتسنى للملك الفارسي الدخول من الباب الجنوبية واخيرا

---

١ ـ تقع في اقليم جورجيا في الجنوب الغربي من القفقاس .

٢ ـ تاريخ العالم ـ المجلد الرابع ـ الفصل ٨٦ الناشر جون ٠١٠ هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

٣ ـ مؤسس دين جديد ظهر في فارس سنة ٢١٥ م .

٤ ـ مدينة كانت في موقع دياربكر الحالية .

اتبع (قباذ الاول) في شيخوخته سياسة المصالحة والمهادنة مع الامبراطور الروماني الجديد (جوستينيان) كما سعى (كسرى أنو شروان) أعظم ملوم الساسانيين مسالمة (رومة) في أول عهده (٥) واشتهر بحبه للعلم والتسامح والعدل وعامل الاسرى بالحسنى واقام منهم جاليات في الاراضي الزراعية (٦) .

وهكذا حصدت الحروب الطويلة خيرة ابناء الامبراطوريتين وزهرة شبابهما وامتدت القسوة الى المدن والسكان ومحيت من الوجود بعض المدن والحصون وتنافس الجانبان في التدمير والتخريب وتباريا في القسوة والتعذيب والتنكيل والابادة ولم يباليا بالضحايا والخسائر التي لحقت بمدنهم وجيوشهم نفسها ، كان (سابور الاول) في مقدمة الطغاة الذين أراقوا كثيرا من الدماء وازهقوا آلاف الارواح. ويقص علينا الكاتب اللاتيني (اميانس مرشلينوس) — الذي كان شاهد عيان لكثير من المآسي — قصصا مظبعة عن مجازر ووحشية هذا الطاغية المغرور فقد صمم على احتلال مدينة (نصيبين) التي تحدته وصمدت بوجهه بفضل حصونها ومناعة استحكاماتها فغير مجرى النهر وحول الارض المحيطة بها الى بحيرة ثم انزل الى الماء اسطولا من السفن المسلحة وأرماثا محملة بمعدات الحصار وادى ضغط الماء الى حدوث ثغرة واسعة في الاسوار تدفق منها رتل طويل من الخيالة والفيلة بأسلحته الثقيلة ، غرق معظمه في الحفر العميقة وامتلأت الساحة الموحلة بجثث القتلى والجرحى والدواب الغارقة وتعذر التفريق بين المتقاتلين واضطر الطرفان الى طلب الهدنة. وفي اليوم التالي أسرع الرومان الى ترميم اسوارهم ، بينما غادر (سابور)

....

٥ — الرافدان — الفصل السابع تأليف سيتون لويد — ترجمة طه باقر ربشير فرنسيس .

٦ — تاريخ العالم — المجلد الرابع — الفصل ٨٦ الناشر جون ٠١٠ هامرتن ترجمة وزارة التعليم والتربية المصرية .

الميدان ليصد غزوا بربريا على بلاده ولم يلبث ان عاد وغير طريقه لكنه مر سرا بالقرب من (نصيبين) وشاهد متانـــــة اسوارها ، ولما مر على مقربة من أسوار (آمد) اصاب خوذته الذهبية سهم رماه أحد السكان ، فأمر جيشه بالقيام بمظاهرة لارهاب الاهلـــين وقتل ابن صديقه بقذيفة منجنيق ، فضرب على المدينة حصـــارا استمر سبعين يوما وهلك زهاء ثلاثين ألفا من أحسن جنـــوده وفقد آلات الحصار التي غنمها من الرومان في معركة (سنجار) ، ثم سقطت (آمد) فقتل جميع سكانها باستثناء نفر من اشـــراف الرومان ، وخرب المدينة ، وقام في السنة التالية بتجريد حصـــون (سنجار) وهدمها (٧) اما معاملته لاسيره (فاليريان) فكانت وصمة عار في جبين هذا الطاغية الاحمق الذي بزّ ملوك اشور في قسوتهم ووحشيتهم اذ قبض على الامبراطور الروماني وهو يدخل خيمـــة (سابور) للمفاوضة بعد أن خسر المعركة بسبب خيانة قائـــد الحرس البريتوري (٨) .

....

٧ ــ الرافدان ــ الفصل السابع تأليف ستيون لويد ــ ترجمة طه باقـــر وبشير فرنسيس .

٨ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الرابع ــ الخبر الثاني عشر ــ الناشر جـــون ١٠. هامرتن . ترجمة وزارة التعليم والتربية المصرية .

الفصل الرابع

اليابان والصين والهند

١ ــ اليابان

ان تاريخ اليابان القديم غامض وغريب تملؤه الاساطير ، امتزجت فيه الحقيقة بالخيال ، فالتبس الامر على الباحث واحتار المؤرخ ، ولم يكتشف بعد ما ينير السبيل ويبدد الخرافات والاوهام ، فأرضهم مقدسة ، وهم ابناء السماء .

كما ضاعت الاصول اليابانية في خليط من النظريات والظاهر ان الجنس الياباني مزيج من : عنصر بدائي ابيض نزح الى اليابان من منطقة نهر (آمور) في العصر الحجري الاخير ، وعنصر اصفر مغولي جاء من (كوريا) او عبر خلالها حوالي القرن السابع قبل الميلاد ، وعنصر اسمر من (الملايو) و (اندونيسيا) تسرب الى اليابان من جزر الجنوب (١) .

ان موقع اليابان وطبيعة جزرها الكثيرة ، وتعرضها للبراكين والزلازل ادى الى تأخر استيطانها بعكس المناطق السهلة والاراضي الخصبة كوادي النيل والفرات والسند حيث قامت حضارة قديمة . كان النظام الاجتماعي في اليابان حوالي القرن الثالث الميلادي اقطاعيا وقبليا في آن واحد ، وكانت طبقة الفلاحين مكونة من مجموعات مستغلة يرأسها سادة عسكريون وكان

....

١ ــ قصة الحضارة الجزء الخامس الفصل الاول ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٥٨ .

الحرفيون الذين هاجروا من (كوريا) قد انتظموا في نقابات ودون هؤلاء جميعا طبقة من العبيد جميع أفرادها من المسجونين وأسرى الحرب . كما نرى بعض الفلاحين يزرعون الارض عبيدا للسادة أصحابها اما رؤساء القبائل فكانوا اشبه بالملوك بينما نجد الحكومة في غاية التفكك والضعف (٢) .

وفي عام ٥٥٢ م دخلت (البوذية) البلاد وثبتت في النفوس فضيلة الورع والسلام والطاعة وغدا الشعب أكثر انصياعا للحكومة كما هيأت للناس سبيل الوحدة في الشعور والعقيدة وتوفرت دعامة القوة القومية وتحولت اليابان الى دولة ملكية موحدة ثم بدأ العصر الامبراطوري واصبح الامبراطور يتمتع بألقاب ضخمة واستمر هذا العهد اربعة قرون (٧٩٤ — ١١٩٢م) وكان المجتمع الياباني يتألف من ثماني طبقات في العصر الامبراطوري ثم زالت بعض الفوارق في العهد الاقطاعي الذي تلاه بحيث أصبحت تلك الطبقات اربعا : (الساموراي) أي السيافون و (الصناع) و (الفلاحون) و (التجار) ويأتي تحت هذه الطبقات جمع غفير من العبيد تبلغ نسبتهم ما يقرب خمسة في المائة من السكان وهم المجرمون وأسرى الحرب والاطفال المخطوفون الذين باعهم خاطفوهم وكذلك الاطفال الذين باعهم آباؤهم عبيدا في الاسواق ويلي العبيد في المنزلة الاجتماعية طبقة من المنبوذين يسمونهم (ايتا) وهؤلاء هم النجسون لانهم يشتغلون بالجزارة او الدباغة او حمل القمامة (٣) .

ثم بدأ عهد الطغاة (الشواجنة) اذ سنحت الفرصة لظهور فئة من الطغاة العسكريين ، احكموا قبضتهم على زمام الامور في

....

٢ — قصة الحضارة الجزء الخامس الفصل الثاني ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٥٨ .

٣ — قصة الحضارة الجزء الخامس الفصل الثالث ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٥٨ .

اجزاء كثيرة من جزر اليابان وأصبح الامبراطور مجرد ظاهرة مقدسة وبدأ الفلاحون يدفعون الضرائب لهؤلاء (الشواجنة) اي القادة بدل دفعها للامبراطور الذي عجز جيشه وشرطته عن حمايتهم من اللصوص ، ففي سنة ١١٩٢ م جمع (يورتيوبو) احد رجال قبيلة (ميناموتو) جيشا من الجنود والعبيد واقام لنفسه سلطة مستقلة واعقبه في الحكم ابناؤه الضعاف وازاحتها اسرة (هوجو) التي ظلت تحكم الشواجنة حتى ١٣٣٣ م وفي عهدها غزا (قبلاي خان) اليابان بأسطول جبار لكن الرياح حطمت سفنه وأغرقت من بحارته سبعين الفا . وعاش الناجون حياة الرقيق في اليابان . ثم قامت حكومة عسكرية في اليابان ظلت تحكمها زهاء مائتين وخمسين عاما ودخلت المسيحية اليابان عام ١٥٩٤ م وظهر (هيديوشي) الذي أصبح حاكما على نصف الامبراطورية وظفر باعجاب الامبراطور العاجز واراد ان يضم الصين وكوريا الى اليابان لكنه فشل وفي سنة ١٥٨٧ م اصدر أمرا يقضي بمغادرة المسيحيين لليابان خلال عشرين يوما ثم خلفه (أيياسو) الذي بدأ عهده بقتل أربعين الفا من خصومه ومنافسيه وكان قاسيا متعطشا للدماء وكان العصيان في نظره افدح الجرائم، ولا بد من قتل اسرة الثائر كما يجب القضاء فورا على الذي يخرج على طبقته . اما النظام الاقطاعي فهو أفضل الانظمة واصلحها للبشر واضطهد المسيحيين وطلب اليهم مغادرة البلاد او الارتداد عن عقيدتهم الجديدة واخيرا حاصر بقيتهم المتحصنين في شبه جزيرة (شيمابارا) عام ١٦٣٨ م والبالغ عددهم (٣٧ر٠٠٠) فاحتلها بعد ثلاثة اشهر وذبح المعتصمين في الشوارع ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى مائة وخمسة اشخاص ثم مات (أيياسو) واستمرت عائلته تحكم اليابان على مدى ثمانية اجيال (٤) وظلت اليابان يحكمها (الشوجن) اي الحاكم العسكري

....

٤ ــ قصة الحضارة ــ الجزء الخامس ــ الفصل السادس ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٥٨ .

وظل الامبراطور ضعيفا لا حول له ولا طول وتركزت السلطة في يد الحاكم العسكري الذي أصبح وراثيا يعاونه مجلس وزراء استشاري ويليه في القوة امراء الاقطاع فطبقة السادة ثم طبقة المشرفين على الاراضي وكان يحمي الامراء فئة من حملة السيوف كثر عددهم واصبحوا يؤلفون طبقة دعيت طبقة (الساموراي) قدر لها ان تلعب دورا بارزا في حياة المجتمع الياباني وكانت لهم امتيازات وحقوق وتقاليد وصفات وكان سلوكهم يشبه الى حد كبير سلوك (الفرسان) ثم تدهور الحكم العسكري وعاد الامبراطور يتمتع بسلطاته الواسعة وبدأت اليابان الجديدة تشق طريقها وتبني نفسها وكانت (موقعة بحر اليابان) عام ١٩٠٥ م بين روسيا واليابان نقطة تحول في مجرى التاريخ الحديث اذا لم تقتصر على ايقاف التوسع الروسي في الاراضي الصينية بل اوقفت سيطرة (اوربا) على الشرق و فيعام ١٩١٠ م أعلنت اليابان ضم (كوريا) اليها رسميا ثم بدأت انقلابها الصناعي العظيم ، وها هي اليوم من أعظم الدول الصناعية برغم هزيمتها واستسلامها في الحرب العالمية الثانية (٥) .

لم نجد في تاريخ اليابان ما يشير الى تعذيب الاسرى وارهاقهم وان كان مصير الاسرى الى الرق والعبودية شأن الامم القديمة وكانوا يؤلفون جزءا مهما من طبقة العبيد التي هي دون الطبقات منزلة بأستثناء فئة المنبوذين النجسة وكانت حاشية الحكام العسكريين وأمراء الاقطاع ورؤساء القبائل تضم بعض العبيد كما كانوا يساهمون في قوات وجيوش الحكام والامراء ورؤساء القبائل الخاصة .

والظاهر أن الاسرى قليلون لقلة الحروب التي اشتبكت بها اليابان ودور اليابان الثانوي في العصور المتوسطة .

....

٥ — قصة الحضارة — الجزء الخامس — الباب الحادي والثلاثون ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة الثانية ١٩٥٨ .

٢ ـ الهنـد

كانت الهند في القرن الثالـــت مقسمة بـين (الكوشان) في الشمـــال و (الاقيال المهجنين) في الغـــرب و (الاندهرا) في الجنوب ولم يــرو التاريـــخ شيئا بعد ذلـــك حتى دخلت الهند في عصرها الذهبي حيث قامت امبراطورية (جويتا) عـــام ٣٢٠ م ذات الحضارة الزاهرة التي بلغت اوجها في القـــرن الخامس ثم غزاها الهون البيض حـــوالي ٤٧٠ م واطاحوا بأسرة (جويتا) وساد الهند عهد من الاضطراب والفوضى واستطـاع (هارشا ـ فارذانا) ـ من سلالة اسرة (جويتا) ـ الاستيـلاء من جديد على الهند الشمالية واسس له عاصمة في (كانوج) اما الجنوب فكان يحكمه (الجالوكيا) و (البالافا) (٦) ثم بـــدأ المسلمون غزو الهند الغربية عام ٦٦٤ م ولم يلبثـــوا ان استولوا على وادي نهر (السند) برمته واستمرت الفتوحات الاسلاميــة للهند في عهد السلطان محمود الغزنوي (٩٧٧ ـ ١٠٣٠ م) كمـا قام الاتراك الغوريون باحتلال (دلهي) واقاموا فيها سلطنة حكمت الهند ثلاثة قرون ثم غزاها (تيمورلنك) عام ١٣٩٨ م واحتـــل دلهي ثم رجع الى (سمرقند) وعاد سلاطين (دلهي) الى عروشهم ثم ظهر (بابور) بعد قرن من الزمن واسس الامبراطورية المغولية التي بلغت أوجها في عهد (أكبر) العظيم وبدأت في التدهور عي عهد (ادرانجزيب) (١٦٥٨ ـ ١٧٠٧ م) ولم تلبث ان تمزقـت بعد موته بسبعة عشر عاما (٧) واخيرا سيطـــر الانجليز على الهند برمتها بعد طرد الفرنسيين وظلت الهند مستعمرة بريطانية ثم منحت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية وقامت فيها دولتـــان : الهند والباكستان .

....

٦ ـ تاريخ العالم ـ المجلد الثالث ـ الفصل الحادي والتسعون الناشر جون ا. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

٧ ـ قصة الحضارة الجزء الثالث الباب السادس عشر ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، ١٩٥٨ .

بدأت الطبقات تتكاثر وتتفرع بسرعة مذهلة في الهند وبلغت العشرات بعد أن كانت اربع طبقات في الاصل : (البراهمة) و (الكشاتريا) و (الفايسيا) و (السودرا) ولقد حاول بعض المصلحين الغاء نظام الطبقات فلم يوفقوا وأضافوا عاملا جديدا في بناء الطبقات (٨) .

يصف الاستاذ ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة اعمال المسلمين في الهند بالقسوة والوحشية ناسيا ان اختلاف الدين والعقيدة في تلك العهود وحتى بعدها قد أدت الى مجازر وحشية في كل بقاع العالم كما أن سلوك الفاتح والغازي يتأثر كثيرا بعادات مجتمعه وقومه ، ولم يستطيع الاسلام وهو في بداية عهده ان يهذب الطباع ويروض النفوس الجامحة رغم انه جاء لخير الانسان ، فالجيوش الاسلامية التي غزت الهند في اول الامر او التي انضمت اليها بعدئذ كانت من اقوام وقبائل حديثة العهد بالاسلام ظلت محتفظة بعاداتها وتقاليدها التي ورثتها عن الغزوات والحروب السابقة وفي الحروب كثيرا ما يفلت الزمام من يد القادة اثناء دخولهم المدن الكبيرة المعادية فيلجأ الجنود الى السلب والقتل والتدمير والاغتصاب وتشيع الفوضى ولقد حدثت حوادث كثيرة من هذا النوع حتى في اوربا خلال القرن العشرين اثناء الحرب العالمية الثانية كما ينبغي ان نفرق بين الاسلام كدين وعقيدة وبين المسلمين وسلوكهم مع الاقوام المغلوبة. واذا كان هناك لوم فاللوم يقع على الهنود أنفسهم اذ كانوا يؤلفون معظم الجيوش الاسلامية الفاتحة وقد يكون بعض الداخلين في الاسلام او المنضمين للجيوش قد جاؤا بدافع الكسب والغنائم ولما يدخل الاسلام في قلوبهم . ففي موقعة (تاليكونا) التي جرت بين سلاطين المسلمين الذين انضموا في حلف يتألف من : (بيجابور) و (احمد ناجار)

---

٨ ـ تاريخ العالم ، المجلد الثالث ـ الفصل الحادي والتسعون الناشر جون ١٠. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية القاهرة ـ مطبعة مصر .

و (جولكوندا) و (بدار) وبين (راماجار) الذي انضم تحت لوائه جميع ملوك الهند الوطنيين ، كان النصر للمسلمين ووقع (راماجار) في الاسر وقطع رأسه على مرأى من اتباعه لارهابهم وفر جيشه وقتل من الفارين ما يقرب من مائة الف ونهبت العاصمة ودام النهب خمسة أشهر ، وابيد السكان بدون تفريق وافرغت المخازن والدكاكين وهدمت المعابد والقصور ثم اشعلت النار في كل مكان واصبحت العاصمة (فيجاياناجار)خرابا بلقعا (٩) .

ان هذه الصورة وان اضفت عليها المبالغة طابعا مأساويا ملطخا بالدماء تفوح منه رائحة الدخان والحرائق الا انها ليست غريبة بالنسبة لحروب ذلك العهد .

وكانت غزوات السلطان (محمود الغزنوي) (٩٩٧ — ١٠٣٠ م) والغزو التركي عام ١١٨٦ م وغزوات السلطان (قطب الدين ايبك) (١٢٠٦ — ١٢١٠ م) وغزوة (تيمورلنك) للهند عام ١٣٩٨ م من أفظع الغزوات وأكثرها سفكا للدماء حافلة بالقسوة والتدمير ، لا سيما وان معظم الغزاة من قبائل تركية ومنغولية غلب على طباعها القسوة والوحشية اذ كانت تنهب ثم تحرق وتقتل جميع السكان بدون تمييز ، اما الاسرى فكانوا يقتلون او يسترقون ففي احدى غزوات السلطان (قطب الدين ايبك) وضع في اغلال الرق خمسين الفا (١٠) وعند عبور (تيمورلنك) السند قتل أو استعبد كل من وقع في قبضته ممن لم يستطع الفرار وذبح مائة الف من الاسرى ذبحا متعمدا وسلب من مدينة (دلهي) كل ثرواتها واموالها وعاد مستصحبا كثيرا من النساء والعبيد مخلفا

....

٩ — قصة الحضارة — الجزء الثالث — الفصل الخامس ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود طبعة ثانية ١٩٥٨ .

١٠ — قصة الحضارة — الجزء الثالث — الفصل السادس ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود طبعة ثانية ١٩٥٨ .

وراءه الموت والجوع والخراب (١١) كما نجد ان الثوار وقطاع الطرق يعاقبون بقسوة ووحشية برميهم تحت اقدام الفيلة أو تنزع عنهم جلودهم ثم تحشى بالتبن وتعلق على ابواب المدينة .

والظاهر أن هذا العهد امتاز بقسوة ووحشية وتدمير بسبب التعصب الديني وخشونة ووحشية القبائل الغازية وغنى الهند وامتلاء معابدها وقصورها بالكنوز والنفائس ، حتى عقوبات المجرمين والخارجين على القانون قد بلغت من الفظاعة والقسوة درجة يصعب تصورها اذ شملت بتر الايدي والآذان وفقء الاعين وصب الرصاص المصهور في الحلوق وتهشيم عظام الايدي والاقدام بمطارق خشبية واحراق الجسم بالنار وانفاذ المسامير في الكتوف والاقدام والصدور ، وقطع اعصاب المفاصل ونشر الناس بمناشير الخشب ثم قطع جسومهم اجزاء وانفاذ القضبان المسنونة فيهم وشيهم على النار احياء وقذفهم تحت اقدام الفيلة لدوسهم حتى يموتوا أو رميهم فريسة للكلاب المتوحشة الجائعة(١) .

٣ ــ الصين

قتل الامبراطور (وانج مانج) عام ٢٥ م اثر ثورة عامة تزعمتها اسرة (ليو) الغنية والغيت جميع اصلاحاته وجلس على العرش في اواخر ايام اسرة (هان) اباطرة ضعاف ثم انتهى عهد هذه الاسرة وانتشرت الفوضى وتولت الحكم اسر خاملة الذكر وانقسمت الصين الى دويلات متعددة ثم تدفق (التتار) على البلاد واستولوا على مساحات واسعة في اجزاء البلاد الشمالية فأضطربت الاحوال في الصين وتقوضت حضارتها النامية ولم يلبث (التتار) ان انصهروا وذابوا في أمة الصين الكبيرة والتي دبت

....

١١ ــ قصة الحضارة ــ الجزء الثالث ــ الفصل السابع ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود طبعة ثانية ١٩٥٨ .

١٢ ــ قصة الحضارة ــ الجزء الثالث ــ الباب السابع عشر ول ديورانت ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود طبعة ثانية ١٩٥٨ .

في عروقها دماء جديدة (١٣) وبدأت نهضة الصين الكبرى بسبب امتزاج هذين الشعبين ودخول البوذية وعبقرية الامبراطور (تاي دزونج) الذي حكم من ٦٢٧ الى ٦٥٠ م ويعد من أعظم أباطرتها ، بدأ عهده في صد غارات القبائل الهمجية ثم انصرف الى بناء الصين على أسس جديدة ورفض كل اسباب الترف واللهو وعفا عن المحكومين بالاعدام واستخدمهم في الزراعة . وفي عام ٧٥٥ م اي في أواخر حكم الامبراطور (منج — هوانج) نشبت ثورة (آن لو — شان) التي فشلت في تحقيق اهدافها ، الا ان الصين دخلت في عهد ضعف وعجز الاباطرة عن اعادة سلطانهم الى سابق عهده ثم ظهر جندي جريء فاستولى على العرش باسم (تاي — دزو) وأسس اسرة (سونج) التي حكمت لغاية عام ١١٢٧ فأعاد النظام وارجع للحكومة هيبتها وشرع بحل مشاكل استغلال الفقراء (١٤) وفي عام ١٢١٢ م غزا (جنكيزخان) الصين فهاجم الولايات الغربية ودمر تسعين مدينة سواها بالارض ليستطيع فرسانه السير في الاراضي المخربة بالظلام دون ان تتعثر خيولهم وظل (جنكيزخان) خمس سنين كاملة يخرب ويدمر في بلاد الصين الشمالية وقفل راجعا الى وطنه لكنه مرض ومات في الطريق وواصل خلفاؤه الحملات من بعده بقوة وضراوة ولم تستطع الصين ايقاف هذا التيار الجارف المدمر وتمكن (قوبلاي خان) من احتلال (كانتون) واخضاع الصين لحكم المغول ولم يكن همجيا شأن الحكام المغول السابقين بل كان على جانب من الحكمة فأعترف بتفوق الصينيين واستفاد منهم في تنظيم البلاد وادارتها واقتبس الكثير من أسباب الحضارة الصينية وتسامح مع الاديان وشجع دخول الديانة المسيحية للبلاد واستطاع تأسيس

....

١٣ — قصة الحضارة — الجزء الرابع الفصل الثامن ول ديورانت ترجمة محمد بدران طبعة ثانية ١٩٥٧ .

١٤ — قصة الحضارة — الجزء الرابع — الباب الخامس والعشرون ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

أسرة مغولية حكمت الصين قرابة مائة عام وفي عام ١٣٦٨ م شبت ثورة ضد المغول واحتل الثوار (بكين) وأقاموا امبراطورية جديدة وتأسيس اسرة (منج) (١٣٦٨ — ١٦٤٤ م) ثم غزت جحافل (المنشو) الصين واستطاعوا الاستيلاء على شمالها ثم جنوبها واحتلوا العاصمة وحكموا الصين بأسم اسرة (جنج) (١٦٤٤ — ١٩١٢ م) (١٥) وبدأت اوربا تتطلع الى الصين فكان البرتغاليون اول المغامرين ومنحتهم حكومة (بكين) حق الاقامة في (مكاو) لمعاونة الصين في قتالها للقراصنة واقام البرتغاليون مصانع كبيرة لصنع الافيون ثم استقر الاسبان في جزيرة (فرموزة) واعقبهم الهولنديون والانكليز وبدأت تجارة الافيون تلعب دورها المدمر وحاولت الصين تحريم الافيون مرات متعددة وقامت (حرب الافيون الاولى) وانحل النظام القديم وضعف سلطان الحكومة ثم حدثت فتنة (تاي بنج) (١٨٥٣ — ١٨٦٥ م) وتمزقت الصين وقامت حرب الافيون الثانية وبدأت الدول تنقض على الصين من كل جانب فاقتطعت اجزاء كثيرة منها وتوالت هزائم الحكومة الصينية واستسلمت للضغوط والتهديدات مرات كثيرة ثم قامت حركة (هو — جوان) والتي يطلق عليها المؤرخون اسم (البوكسر) للتخلص من الامبراطورة والاسرة المالكة وتحولت الى مقاومة الغزاة الاجانب وجرفها تيار الوطنية فشرعت بذبح المسيحيين عام ١٩٠٠ بلا تفريق (١٦) وزحفت جيوش الدول الاوربية واليابان على (بكين) وقتلت عددا كبيرا من المواطنين وخربت كثيرا من الممتلكات او نهبتها انتقاما لمقتل المسيحيين وفرت الامبراطورة وحاشيتها وارغمت الصين على الخنوع والاستسلام ورضخت لشروط المنتصرين وبدأت بعوث الطلبة الصينيين الى الجامعات الاجنبية تترى وعادوا يحملون بذور الثورة والتجديد وظهر (صن —

---

١٥ — قصة الحضارة — الجزء الرابع — الباب السادس والعشرون ول ديورانت ترجمة محمد بدران .

١٦ — قصة الحضارة — الجزء الرابع — الباب السابع والعشرون ول ديورانت ترجمة محمد بدران .

يات ـــ صن) وبدأ سعيه في سبيـــل تحرير الصين ولـــم تلبث أن نشبت الثورة وأعلنت الجمهورية وتبين أن (صن ـــ يات ـــ صن) ليس الزعيم المنتظر بل هو رجل احلام وسياسي عاجز تنقصـــه مقومات القيادة والزعامة فسادت الفوضى والقلاقل واضطربـــت الاحوال وظهرت الشيوعية وانضم اليها (صن ـــ يات ـــ صن) وتألف جيش وطني جديد زحف من (كانتون) الى الشمال بقيـــادة (شـان ـــ كاي ـــ شك) وتوالت الانتصارات ، ثم خرج (شان ـــ كاي ـــ شك) وأقام دكتاتورية عسكرية استجابة لرغبة رجـــال المال والاعمال (١٧) ولم تكد تنتهي الحرب العـــالمية الثانية حتى سيطـــر الشيوعيون من جديـــد بزعامـــة (مـــاوتسي تونـــغ) على الصين بكاملها وقامت فيها حكومة شعبية واجبر (شان كاي شك) وجيشه على الجلاء الى (فرموزة) حيث أقام حكومة تدور في فلك الولايات المتحدة الامريكية .

بالرغم من غزوات التتر والمغول والقبائل الهمجية وحدوث بعض الفتن والثورات والمؤامرات وقيام بعض الاعمال الانتقامية فاننا نستطيع أن نقول أن هذا العهد يمتـــاز بالسلام النسبي اذا تذكرنا سعة الصين ، اذ هي في الحقيقة قارة مترامية الاطـــراف وان العهد امتد من ظهور المسيح تقريبا حتى منتصف القـــــرن العشرين .

واذا طرحنا المبالغات جانبا وهي شائعة ومألوفة بالنسبـــة للحروب قديمها وحديثها نستطيع أن نقول ايضا ان هذا العـــهد يكاد يخلو نسبيا من القسوة والعنف والتعذيب فقد يقتل الملـــك اخوته ومنافسيه ، ويتآمر القادة على ملوكهم ، ويتمرد الجنود على قوادهم وملوكهم وهذه سنة الحكم وضريبة السلطة ، والقصـــور كانت ولا تزال ميدانا للتآمر ومسرحا للقتل وما أكثر ما عصفـــت

....

١٧ ـــ قصة الحضارة ـــ الجزء الرابع ـــ الباب السابـــع والعشرون ول ديورانت ترجمة محمد بدران ١٩٥٧ .

الجيوش بملوكها وقادتها وزعمائها ويقال أن (٣٦)مليونا من الانفس قد قضي عليها في فتنة (آن لو ـــ شان) وان جحافله الهمجيـــة قد عاثت في المدينة فسادا وقتلت كل من صادفته ، يستوي فـــي ذلك الطفل والمرأة والرجل كما تمرد الجنود على الامبراطـــور من خلال فراره فقتلوا زوجته وافراد اسرته امامه ولم يكن (آن لو شان) الا تتريا كسب ثقة الامبراطور فعينه حاكما لاحـــدى الولايات الشمالية ولم يلبث هذا الثائر ان قتله ابنه ، ثم قتـــل الابن أحد القواد ، وقتل القائد ابنا له ، وظلت الفتنة تأكـــل مدبريها وتعصف ببنيها وخمدت في عام (٦٧٢) (١٨) أما (جنكيزخان) الذي غزا الصين وظل فيها خمس سنوات كاملة يحرق ويدمر ويقتل، فكان يصلب الاسرى على عمد من الخشب ، او يقطعهم اربا ، او يغلي اجسامهم في القدور ، او يسلخ جلودهم وهم احياء ، واخيرا دمر تسعين مدينة ومحاها من الوجود ، واتبع خلفاؤه من بعـــده طريقته في القتل والتدمير ، وهكذا نجد الجيوش الصينية المدافعة عن (كانتون) تفضل الموت غرقا على التسليم للفاتح المغولـــي (قبلاي خان) مقتفية أثر قائدها الذي حمل الامبراطور الغلام على ظهره والقى به وبنفسه في البحر فماتا معا (١٩) .

....

١٨ ـــ قصة الحضارة ـــ ج ٤ ، الباب ٢٤ ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

١٩ ـــ قصة الحضارة ـــ ج ٤ ، الباب ٢٦ ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثانية ١٩٥٧ .

الفصل الخامس

العـــرب

في السنة الاولى لميلاد المسيح عليه السلام عقدت معاهـــدة سلم بين (الرومان) و (الفريثيين) عندما كانت (مملكة الانباط) هي المتنفذة في فلسطين الجنوبية والاقسام الشمالية من الحجاز أما مملكة (سبأ وذي ريدان) فاقتصر نفوذها على اليمن والاقســـام الجنوبية من الحجاز وكان يفصل بين الملكتين عدد من الامارات والمشيخات المتصارعة وكانت الحالة السياسية في الجنوب العربي في غاية الاضطراب ولقد استغلت (رومة) هذه الفرصة لتقوية نفوذها واخيرا فكرت في احتلال (مملكة الانباط) .

وفي هذا الوقت اي في النصف الاول من القرن الاول للميلاد قامت مملكة في العراق بين الزابين على حدود مملكتي (الفرث) و (الرومان) ويرجح انها (مملكة الحضر) .

وفي عام ١٠٦ م قضى الامبراطور الروماني (تراجان) على استقلال (مملكة الانباط) وجعلها تابعة لحاكم سورية (١) وبـــدأ نجم (تدمر) يتألق بعد سقوط (بطرا) وتولت قوافلها نقل البضائع بين العراق والشام وبدأت المدينة تتسع واقيمت فيها الهياكـــل والمعابد والقصور وأصبحت من أكبر الاسواق حيث تكدســـــت

....

١ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الثالث ــ الفصل الاول الدكتور جواد علي شركة الرابطة للطبع ١٩٥٣ .

فيها انفس البضائع وتجمعت لديها رؤوس الاموال من ذهب وفضة وتكونت لها علاقات اقتصادية وسياسية مع الفرس والرومان والقبائل العربية وقامت فيها أسر كبيرة غنية بيدها الحل والعقد ثم انفردت أسرة (أذينة) بحكم المدينة ، ودخلت في نفوذ (رومة) ووصايتها في العصر الامبراطوري الاول لكنها ظلت محتفظة باستقلالها زمنا طويلا .

وظلت (تدمر) في صراع مع الفرس الساسانيين والرومان من اجل المحافظة على استقلالها واستفادت من صراع الامبراطوريتين القويتين فناصرت روما حينا وفارس حينا آخر ثم تحدت روما فضمت بعض أراضيها واخيرا صممت روما على احتلال تدمر واستطاع القيصر (اوريليانوس) من احتلالها عام ٢٧٣ م بعد معارك طاحنة واقام القيصر احتفالا كبيرا في رومه عام ٢٧٤ بمناسبة انتصاراته وسار الموكب يتقدمه عشرون فيلا وعدة وحوش وحيوانات وكان يضم (١٦٠٠) مصارع وعددا كبيرا من الاسرى من مختلف الشعوب بينهم (زنوبية) ملكة تدمر وولدها وبعض رعاياها .

وفقدت تدمر اهميتها وتقلص نفوذها وضمت الى (فينيقية) حوالي القرن الخامس للميلاد ورممت المدينة وجددت حصونها وقلاعها عدة مرات واتخذها بعض ملوك الغساسنة منزلا لهم ثم فتحها المسلمون عام ٦٣٤ م (٢) .

واستمر الصراع بين الامارات في الجنوب العربي وبرزت (حمير) كقوة مؤثرة في السياسة العربية الجنوبية وكانوا حوالي عام ٧٠ م يحكمون منطقة واسعة من سواحل البحر الاحمر وساحل المحيط حتى (حضرموت) ولم تنقطع الحروب بين سبأ من جهة و (حمير) وخليفاتها من جهة أخرى في عهد (الشرح يخصب) ملك (سبأ وذي ريدان) وتمكنت سبأ من اخضاع

....

٢ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الثالث ــ الفصل الثاني الدكتور جواد علي شركة الرابطة للطبع ١٩٥٣ .

بعض الامـــارات لكن (حمـــير) ظلت صامـــدة حتى وهنت سبأ واضمحلت فخلفتها في الجنوب الغربي من اليمن وتوسعت وامتـــد سلطانها على القبائل العربية في الشمـال ، ولقد عرف ملوكهـــم في الكتب العربية بالتبابعة وكان اشهرهم (شمر يهرعش) الذي تلقب لاول مرة بملك (سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات) (٣) وغزت الحبشة اليمن واحتلتها حوالي عام ٣٤٠ م ثم اضطروا الى الارتحال بسبب ثورات نشبت في بلاد الحبشة نفسها عام (٣٧٥م) او (٣٧٨م) ودخلت الديانة المسيحية والديانة اليهودية بـــلاد اليمن وانتشرت عقيدة التوحيد .

وفي عام ٥٢٥ م احتل الاحباش اليمن ثم طردهم (سيف بن ذي يزن) بمعونة الفرس وظلت تحت احتلال الفرس حتى عـــام ٦٢٨ م اذ دخل حاكمها الفارسي (باذان) في الاسلام (٤) امـــا (كنده) فكان موطنها الاول جبال اليمن غرب حضرموت ثم نزحت الى أرض (معد) في بادية الحجاز ومن ملوكها (حجر) الملقب بآكل المرار الذي حكم في الربع الاخير من القرن السادس للميـــلاد وخلفه (الحارث) الذي أصبح ملكا على (كنده) و (بكـــر) وقبائل أخرى وتوسعت أراضيه وامتدت الى العـــراق وعمـــان واستولى على (الحيرة) في عهد (قباذ) الساساني وهـــرب ملكها (المنذر) فظلت في قبضته بضع سنوات وقتل الحـــارث على الارجح وتمزقت العائلة المالكة الكندية وتشتت شملها وانقلبت القبائل التي قبلت بالخضوع له على اولاده فقتلتهم وانتهت كنـــدة وانهار كيان الاتحاد الذي ضم عدة قبائل (٥) .

---

٣ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الثالث ــ الفصل الثالث الدكتـــور جواد علي شركة الرابطة للطبع ١٩٥٣ .

٤ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام الجزء الثالث ــ الفصل الرابع الدكتـــور جواد علي شركة الرابطة للطبع ١٩٥٣ .

٥ ــ مهد العرب ص ٤٠ الدكتور عبد الوهاب عزام ــ سلسلة اقرأ .

وفي شمال الجزيرة وعلى حدود بادية الشام نشأت امارتان عربيتان ، امارة الحيرة وكانت عونا للفرس ووسيلة الى اخضاع قبائل البادية وقاعدة لحماية العراق وصد غارات البدو ، وامارة الغساسنة وكانت عونا للروم وقاعدة وسدا بوجه غارات الاعراب.

والحيرة مدينة قريبة من الكوفة وعلى حدود البادية ، نشأت في اوائل القرن الثالث الميلادي واستمرت حتى الفتح الاسلامي أي زهاء اربعمائة سنة وكان (النعمان بن المنذر ابو قابوس) أخر الامراء من لخم والذي قتله (كسرى ابرويز) فكانت بسببه حرب (ذي قار) بين الفرس والعرب وتولى بعده أمر الحيرة (أياس ابن قبيصة الطائي) ثم ولاة من الفرس فالمنذر بن النعمان الذي قتل في حروب الردة بالبحرين ثم فتحها المسلمون .

أما (امارة الغساسنة) فبدأت في اواخر القرن الخامس الميلادي ، وهم من (الازد) نزلوا بالشام واضطروا كارهين الى دفع الاتاوة الى قبيلة (الضجاعمة) ثم تفردوا بالسلطان وتحالفوا مع الروم ضد فارس ولم يكن لهم عاصمة معينة بل كانوا يتنقلون من البلقان الى جهات دمشق وتدمر وامتد سلطانهم الى (حوران) و (البلقاء) ونواح من فلسطين ولبنان والظاهر أن أكثر اقامتهم كانت في الجولان جنوب دمشق ، وبدأت هذه الامارة تتدهور عقب موت الامبراطور الروماني (جوستينيان) فعمت الفوضى بادية الشام واتخذت القبائل رؤساء من أنفسها وانحاز بعضها الى الفرس وكانت في منتهى الضعف حينما استولى الفرس على الشام سنة ٦١٤ م وظلت امارة صغيرة حتى فتح المسلمون سورية (٦) .

تمتاز هذه العهود التي استمرت زهاء ستمائة عام والتي ابتدأت من ظهور المسيحية حتى ظهور الاسلام بكثرة الحروب

---

٦ — تاريخ العرب قبل الاسلام الجزء الرابع الفصل السابع الدكتور جواد علي مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥ .

والمعارك والغزوات سواء بين العرب أنفسهم أو بينهم وبين جيرانهم من فرس ورومان واحباش ، ولقد عرفت هذه الحروب بـ (أيام العرب) وهي وان لم تكن حربا بالمعنى الدقيق فان بعضها مجرد غارات صغيرة او مناوشات لكنها تؤلف معظم علم الاخباريين بتاريخ الجاهلية . وقد يأخذ اليوم اسمه من الموضع الذي جرت فيه المعركة او اسم القبائل المشتركة او من شيء هام حدث في خلال القتال (٧) . وبالرغم من كثرة هذه الغزوات والغارات فأننا نجد اخبار الاسرى قليلة ولا بد من التعويل على روايات الاخباريين والشعر ، فالنقوش والكتابات نادرة ، كما أن المصادر التأريخية الاخرى لم تتناول شؤون الاسرى وأحوالهم ، وروايات الاخباريين غير منسقة ولا مؤرخة ومتناقضة امتزجت فيها الحقيقة بالخيال ولم تنج من الهوى والمبالغة ، اما الشعر فيجنح نحو المبالغة وتتحكم فيه العاطفة والتعصب وقسم كبير منه موضوع ، ولقد تخللت هذه العهود بعض حوادث الفتك والغدر والاغتيال ، كما وقعت فيها اعمال بطولية تجلت فيها الفروسية والمروءة والنبل ، فالثأر والحقد وقسوة العرف والتقاليد تعمي بصيرة الانسان فيدفعه الانتقام والتشفي الى ارتكاب أفظع الاعمال .

لقد أسرت (تدمر) في خلال حكم ملكها (أذينة) عدد غير قليل من الفرس كما وقعت في قبضتها اموال وهزم (سابور) خلال عبوره الفرات تحت ضغط التدمريين الذين تصرفوا بشهامة فلم يسيئوا معاملة أسراهم أو يعذبوا أحدا ، فلقد كان (أذينة) فارسا شجاعا كما ان مصلحة (تدمر) وهي دولة تجارية تقضي بعدم القسوة مع امبراطورية الفرس التي تتاخمها من الشرق خاصة وأن القيصر الروماني الذي أسره الفرس على مقربة من

....

٧ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الثالث ــ الفصل الثاني ــ الدكتور جواد علي شركة الرابطة للطبع ١٩٥٣ .

(الرها) ما زال في قبضة (سابور) ، يؤيد هذا اشتراط (أذينة) فك أسر الامبراطور عندما كان يحاصر بقواته (طيسفون) عاصمة الفرس عام ٢٦٥ ق.م واستعداد (سابور) لعقد الصلح ، لكنه اضطر الى ترك الحصار والتوجه الى اسيا الصغرى (٨) .

أما في مملكة (حمير)حيث تزايد الارقاء واصبحوا يؤلفون مشكلة اجتماعية ، فنجد الملك (شمر يرعش) يسن قانونا ينظم البيوع بالمواشي والرقيق وهذا يؤيد أن نظرة الحميريين للرقيق لم تختلف عن نظرة بقية الشعوب التي تعتبرهم مجرد مال ومتاع ولهذا قرنهم النص الحميري بالمواشي ، ولعل هؤلاء الارقاء جلبوا من الخارج عن طريق الشراء او الخطف اذ ان العرب قد يأنفون من استرقاق بعضهم لبعض لكنهم يقتلون الاسير او يفتدى او يمن عليه باطلاق سراحه ، ويشير نص عثر عليه في (مأرب) ان الملك (شمر يرعش) سير حملة ضد اعدائه من قبائل تهامة فهزمها واستطاع احد قواده من قتل ثلاثين وجلب غنائم كثيرة وقتل أسيرين ايضا .

ومن ملوك حمير (يوسف ذو نواس) صاحب الاخدود وكان يهوديا . ولما بلغه انتشار المسيحية في (نجران) توجه اليها بجيشه ، فجمع النصارى وخيرهم بين الدخول في الديانة اليهودية أو القتل ، فاختاروا القتل ، فحفر لهم الاخدود وقتل وأحرق وعذب بفظاعة زهاء عشرين الفا وانتقم الاحباش من اهل اليمن شر انتقام فقتلوا ثلث رجالها وخربوا ثلث مدنها وبعثوا الى الحبشة بثلث سباياها تنفيذا لكتاب القيصر الى النجاشي (٩) .

ولما عاد (المنذر بن ماء السماء) ملك (الحيرة) الى عرشه

....

٨ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الثالث ــ الفصل الثالث ــ الدكتور جواد علي شركة الرابطة للطبع ١٩٥٣ .

٩ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام ــ الجزء الرابع ــ الفصل الاول ــ الدكتور جواد علي ــ مطبعة المجمع ١٩٥٥ .

هرب (الحارث) ملك كندة فطاردته فرسان تغلب وغيرها واسروا ثمانية وأربعين نفسا من (بني اكل المرار) فقتلهم المنذر جميعهم بضمنهم ولدين من أولاد (الحارث) ، بينما نرى (سلمة بن مرة بن همام) يطلق سراح أسيره بعد أن أخذ منه الفداء وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه من أن العربي قد يأنف من استرقاق العربي وان كان عدوه. لكنه يقتله بدافع الثأر والانتقام .

ويحدثنا (الاخباريون) ان (سابور) ملك فارس الذي لقبه العرب بذي الاكتاف كان قاسيا مع عرب الحيرة وغيرهم من القبائل فقتل واسر وعذب واباد اعدادا كبيرة وردم الآبار ليحرم الناس منها واضطر الى تبديل سياسته التي فشلت في اخضاع العرب . وكان (النعمان الاول) يأخذ (الرهائن) من القبائل وينظمهم في كتيبة تضم خمسمائة رجل ، يقيمون على بابه سنة كاملة ثم يجيء بدلهم خمسمائة اخرى فينصرف الاولون الى قبائلهم واحيائهم .

ويروى ايضا ان الغساسنة قتلوا الملك (الاسود بن المنذر) بعد أسره وان المنذر استطاع في بعض حروبه مع الروم من أسر قائدين رومانيين لم يلبث أن أطلق سراحهما بعد توسط القيصر ، ويزعم بعض المؤرخين أنه ضحى باربعمائة راهبة للعزى من الاسرى وأنه قتل عددا كبيرا من السكان كما قتل اثني عشر أميرا من (بني حجر بن عمرو) وقعوا في أسره . ويروي الاخباريون ان (عمرو بن هند) ملك الحيرة قتل من بني دارم مائة شخص انتقاما لقتلهم اخيه وانه القى بالقتلى في النار .

أما فدية الاسير فكانت تتناسب مع مركزه ومكانته ففدية الملك او الامير المأسور كانت الف بعير وكانت حوادث افتداء الاسرى كثيرة الوقوع (١٠) وقد تجز أحيانا ناصية الأسير .

....

١٠ تاريخ العرب قبل الاسلام الجزء الثالث — الفصل الرابع — الدكتور جواد علي — مطبعة الرابطة ١٩٥٣ .

ولم يكن العرب يميلون الى تعذيب الاسرى أو التمثيل بالقتلى، لكنهم قد يقسمون في ساعة غضب أو هياج متأثرين بمصابهم على الاخذ بالثأر والانتقام من القاتل ثم يبرون بقسمهم عند ظفرهم به ، فلقد بر (امرؤ القيس) الشاعر العربي المشهور بيمينه فشرب الخمر ، اذ البس اعداءه من بني أسد الدروع المحماة وكحلهم بالنار وشرب الخمر في قحف رأس (الاشقر بن عمر) سيد بني اسد بعد قتله انتقاما لوالده ملك كندة (١١) ، لكن هذه الاعمال نادرة الوقوع اذ تأباها المروءة والتقاليد العربية وكانوا يكتفون بوضع القيود في أيدي الاسير .

وكانت تجارة الرقيق نشطة وتعتبر الجزيرة من أهم الاسواق المستوردة ، اذ كانت دولتا الفرس والروم تبيعان ما يفيض عن حاجتهما من الاسرى فيها ، وكثيرا ما يؤم عملاء الدولتين اسواق الجزيرة لبيع العبيد فيها وكانت سوق مكة ، وسوق عكاظ ، وسوق دومة الجندل من أشهر أسواق الجزيرة ، وقد تهب الدولتان بعض الاسرى للشيوخ والرؤساء العرب استرضاء لهم وكسبا لودهم ، فيبيع هؤلاء الشيوخ عبيدهم تخلصا من نفقاتهم، وكان الاسرى يقومون بأعمال حرفية وزراعية يأنف العرب من الاشتغال بها .

ولقد كثر عدد الارقاء من عبيد واماء في العصر الجاهلي في الجزيرة العربية وبخاصة في مكة بحيث الفوا طبقة اجتماعية لها اهميتها ومعالمها المميزة ، اوكل اليها الكثير من الاعمال التي تحتاج الى خبرة ومهارة وفن ، كما قام بعض الكتابيين منهم بالتبشير ، وان بعض المصطلحات الفارسية والرومية والحبشية

....

١١ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الجزء الرابع ـ الفصل الثالث ـ الدكتور جواد علي ـ مطبعة المجمع العلمي ١٩٥٥ .

قد دخلت اللغة العربية عن طريقهم (١٢) وكانت الحروب والغزوات بين القبائل العربية تؤلف موردا مهما من موارد الرقيق بالاضافة الى الرقيق الاجنبي الذي يجلب من خارج الجزيرة العربية كالهند وفارس وبلاد الروم ومصر والحبشة . وكانت القبيلة المنتصرة تسبي النساء وتسترق الرجال وتستاق النعم .
ان من يقرأ (أيام العرب) التي تتناول حروب وغزوات وغارات القبائل في العصر الجاهلي يجد أن سبي النساء وتوزيعهن على أفراد القبيلة الغالبة كثير الوقوع ولا ضير ان يذكرن بأسمائهن ونسبهن ، ففي (يوم النسار) نجد ثبتا بأسماء النساء المسبيات والرجال الذين كن من نصيبهم ، وقد رووا أن (بسطام بن قيس بن مسعود) قال لامه : اني قد أخدمتك من كل حي أمة ، ولست منتهيا حتى اخدمك أمة من بني ضبة . وفي حرب داحس والغبراء « عارض قيس بن زهير بن جذيمة العبسي ظعائن الربيع بن زياد العبسي ، واخذ زمام امه فاطمة بنت الخرشب وزمام زوجته، فقالت أم الربيع : ماذا تريد يا قيس ؟ قال : اذهب بكن الى مكة فأبيعكن بها بسبب درعي » وكان أخذها الربيع(١٢) . « وغزت بنو جاهلة بني سليم ... فقتلوا القوم وأخذوا أسلابهم وأخذوا العائذين عائذا ومعوذا سيديهم . فباعوا احدهما بمكة وقتلوا الآخر » . (١٣) .
ومهما تكن أسباب الحروب والغزوات في الجاهلية فانها كانت تهدف الى الحصول على الغنائم والاسرى ولا مفر من قتل الاسير، ان كانت الحرب اخذا بالثأر ، اما في غير غارات الثأر فيطلق سراح الاسير بعد دفع الفدية ، وكان المغيرون يسعون لاسر نساء

....

١٢ ــ القيان والغناء في العصر الجاهلي ص ٣٥ ــ الدكتور ناصر الدين الاسد ــ طبعة منقحة ومزيدة ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .

١٣ ــ القيان والغناء في العصر الجاهلي ص ٣٥ــ الدكتور ناصر الدين الاسد ــ طبعة منقحة ومزيدة ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .

العدو طمعا في الفدية أو ليصبحن اماء عند عدم افتدائهن(١٤) .

وكانت بعض القبائل تحمل اصنامها معها عند ذهابها للحرب ، فقد حمل (ابو سفيان) في (معركة احد) (اللات والعزى) ليبعث الحماسة في نفوس جيشه وكانت الاصنام تقع في الاسر شأن البشر وقد يكون وقع أسرها اشد في نفوس القبيلة ، وقد عرف الاشوريون اهمية اسر الاصنام فأخذوا بعضها عقب انتصارهم اسيرة ثم اعادوها الى العرب بعد الصلح وكتبوا عليها ما ينبيء وقوعها في الاسر (١٥) .

أما العبيد فكانوا ادنى الطبقات منزلة في المجتمع وهم في الغالب من زنوج افريقية يقومون بالاعمال التي يأنف العربي من القيام بها ، وهم ملك لسادتهم يتصرفون بهم كما يتصرفون بأموالهم المنقولة وكانوا يلاقون معاملة شديدة القساوة ، فلا عجب ان فر بعضهم ودخلوا في الاسلام حيث الحرية والمساواة (١٦) .

وهناك (المولى) ويعتبر في طبقة المملوكين أي الرقيق وقد يكون عربيا أسر في القتال أو وقع في قبضة قطاع الطرق .

....

١٤ ــ القيان والغناء في العصر الجاهلي ص ٣٦ ــ الدكتور ناصر الدين الاسد ــ طبعة منقحة ومزيدة ــ دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .

١٥ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام الجزء الخامس ــ الفصل الرابع ــ الدكتور جواد علي مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦ .

١٦ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام الجزء الثامن ــ الفصل الثالث ــ الدكتور جواد علي مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٦٠ .

الفصل السادس

الاسلام

كان العالم كله ينتظر مولده ليعيد اليه الثقة والطمأنينة والسلام ، ففي (بيزنطة) كان الجدل الديني على أشده اذ تعددت المذاهب المسيحية وانقسمت الى فرق واحزاب واخفقت (المجامع العامة والمحلية في تسوية الخلافات الدينية واعادة الوحدة الى الكنيسة ، وفي (فارس) اصاب المجوسية ما أصاب المسيحية من انحلال وتمزق فكثرت المؤامرات والاغتيالات والفتن والدسائس من أجل العرش والسلطان ، وفي جزيرة العرب وفي قلبها بالذات، حيث تعبد الاصنام ويستشري الظلم والفساد وتتحكم فئة قوية غنية بكثرة فقيرة ضعيفة ، وتشن الغارات والغزوات ليل نهار وتراق الدماء بغزارة لاتفه الاسباب . كان السواد الاعظم من السكان يئن من قسوة السادة وظلم الرؤساء ، وربا التجار الفاحش .

كان العالم كله يتطلع الى المنقذ ويتهيأ للتبديل لينعم بالامن والسلام ، ولم يطل به الانتظار ففي عام ٥٧٠ م ولد محمد (ص) في بيت عبد المطلب سيد قريش وزعيمها ، ولما شارف الاربعين ونزل عليه الوحي واصطفاه الله عز وجل ليحمل رسالة الحق ويدعو الناس اليها بالتي هي أحسن ، فصدع بالامر وبلغ الرسالة على أحسن وجه فدعا أهله ثم عشيرته الاقربين ، فسكان مكة جميعهم .

واشتد ايذاء قريش للمسلمين فهاجروا الى الحبشة وتزايد عددهم وتمادت قريش في ايذائها واضطهادها فهاجروا الى المدينة ولحق بهم الرسول الكريم ودخل الاسلام مرحلة جديدة في صراعه مع قريش ، فكانت غزوة بدر الكبرى وغزوة أحد فغزوتا الخندق وبني قريظة ، ثم عقد صلح الحديبية بين المسلمين وقريش وتطلع المسلمون الى الشمال فكانت غزوة مؤتة ثم فتح المسلمون مكة وتوفي النبي (ص) في ٨ حزيران عام ٦٣٢ م فبدأ عهد الخلفاء الراشدين وتلته الدولة الاموية فالدولة العباسية التي عاصرتها دولة أموية في الاندلس أما في افريقية فقد قامت دولة الادارسة ، ثم دولة الاغالبة وظهرت الخلافة الفاطمية في القيروان ثم في مصر ، ودب الضعف في الدولة العباسية فظهر محمود الغزنوي كما غزا الاتراك السلاجقة بلاد الشام واستولوا على بغداد عام ١٠٥٨ م ثم ابتدأت الحروب الصليبية ودب الانحلال والانقسام في الدولة العباسية فنشب النزاع بين امراء الاقطاعات ثم ظهر عماد الدين زنكي وخلفه ابنه نور الدين محمود ثم صلاح الدين وبدأت غارات التتر على أطراف الدولة العباسية فخربت بخارى وسمرقند وغيرهما ثم زحف هولاكو على بغداد ونهبها المغول عام ١٢٥٨ وقضوا على الخلافة العباسية . واستطاع المماليك من صد المغول والانتصار عليهم في موقعة عين جالوت عام ١٢٦٠ م وبدأ ظل العرب يتقلص في اسبانيا وظهر ملوك الطوائف فتدهورت دولة المرابطين ثم انهارت دولة الموحدين واخيرا ظهر بنو الاحمر في غرناطة التي استسلمت للاسبان في الثالث من كانون الثاني عام ١٤٩٢ م .

كان النبي محمد (ص) رسولا ومصلحا وزعيما وقائدا وهي صفات لم تجتمع في احد غيره ، وكانت سيرته اعظم السير وانصعها وأكثرها تألقا ولقد أضيف اليها ما ليس منها عن حب وهوى أو تعصب وكراهية كما اتهم الاسلام بالقسوة والجمود وحب القتل وسفك الدماء ولست أشك ان الجهل والتعصب قد دفع الكنيسة

وبعض رجال الدين المسيحيين والمستشرقين الى معاداة الدين الاسلامي والنيل منه والافتراء على الرسول الكريم . ورحّب الاستعمار بهذه العداوة فغذاها وأجج نيرانها ليزعزع ايمان المسلمين ويضعف ثقتهم برجالهم وقادتهم .

لقد خاض المسلمون كثيرا من المعارك والحروب في دولة امتدت من حدود الصين شرقا الى داخل فرنسة غربا وضربوا أروع الامثلة في المروءة والتسامح مع الاقوام المغلوبة ، وكانت معاملتهم للسكان تتسم بالعطف والرحمة وان في وصايا الخلفاء لامراء الجيش وقادته وتمسك الجيش بهذه الوصايا والتزامه بها برهانا على ما كان يتحلى به الجندي المسلم من شهامة وعفة ونبل ، وقد تقع بعض الاعمال التي تأباها الشريعة السمحة ، لكنها لا تعد شيئا بالنسبة للدولة الاسلامية المترامية الاطراف وكثرة المعارك والحروب وضخامة الجيوش وتعدد الاقوام والشعوب .

الاسرى

لم يتناول القرآن الكريم شؤون الاسرى في اول الامر ولجأ الرسول (ص) الى نظام المفاداة ضنا بأرواح المسلمين وحقنا للدماء كما اطلق سراح بعضهم من دون فداء ولم يلجأ الى القتل الا في حالات نادرة جدا ، وعندما وصل المسلمون الى المدينة بعد انتصارهم في معركة بدر فرق الرسول (ص) الاسرى بين اصحابه واوصى بهم خيرا وشاور المسلمين في امرهم ثم انتهوا الى قبول الفداء ولم يؤخذ بالرأي القائل بقتل الاسرى وقد ابى النبي (ص) ان تنزع كليتا (سهيل بن عمر) اذ كان جوابه عليه السلام (لا أمثل به فيمثل الله بي وان كنت نبيا) (١) واستمرت قريش تفتدي أسراها وكان الفداء يتراوح بين الالف والاربعة آلاف درهم للرجل أما الفقراء فقد منّ عليهم الرسول (ص) بحريتهم . وكان النظام المتبع في

....

١ ـ حياة محمد ـ الفصل الثالث عشر الدكتور محمد حسين هيكل مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٨ هـ .

الحروب الاسلامية ان تجمع يدا الاسير الى عنقه ثم يوضع مقيدا في سجنه ريثما يبت في امره قائد الجيش وهكذا اتبع الرسول (ص) طرقا عدة في معاملة الاسرى غلب فيها العطف والرحمة هي :

١ ـ مبادلة الاسرى ببعضهم ، حيث اطلق سراح اسيرين من قريش مقابل اطلاق سراح اسيرين من المسلمين هما : سعد بن ابي وقاص وعتبة بن غزوان كما أطلق الرسول (ص) سراح عمر بن أبي سفيان من اسرى بدر ليفك به سعد بن النعمان كما فدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل وجارية حسناء .

٢ ـ اطلاق سراح الاسير مقابل فداء يدفعه هو أو أهله ، فقد اطلق الرسول (ص) سراح عمه العباس بن عبد المطلب بعد دفع الفداء . وقد يفتدي الاسير نفسه والذي يحسن الكتابة بتعليم عشرة من صبيان المسلمين .

٣ ـ اطلاق سراح الاسير بلا فداء لفقره او لخير مأمول منه يعود على المسلمين فقد أطلق سراح الشاعر (أبو غرة) و (أبو العاص بن الربيع) من غير فداء .

٤ ـ استرقاق الاسير لعدم دفع الفداء ولكونه لا يستأهل المن عليه .

٥ ـ قتل الاسير وهي حالات نادرة تناولت من آذى المسلمين ولج في تعذيب واضطهاد الضعفاء منهم وألب الناس عليهم ، فقد قتل من أسرى بدر (عقبة بن أبي معيط) و (النصر بن الحارث) (٢) .

ثم نزلت الآية الكريمة (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الاخرة والله عزيز حكيم) ثم بين الله لرسوله حكم الاسرى صراحة في الآية الكريمة (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا

....

٢ ـ الفن الحربي في صدر الاسلام ـ الفصل السادس عبد الرؤوف عون دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها) وأصبح النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية مخيرا بين المن والفداء (٤) أي العفو والارسال أو اخذ العوض ولكن ذلك مشروط بالاثخان في الارض ومعناه المغالبة في قتل العدو (٥) الا أننا نجد الرسول ﷺ يقتل الاسير احيانا او يسترقه (٦) ، فقد قتل الشاعر ابي غرة الحجمي في احد وقد كان عاهده في بدر الا يقضي عليه فلم يف بعهده وقتل يوم (حنين) دريد بن الصمة لانه كان يدبر لقومه ويحرضهم على قتال المسلمين وأهدر ثمانية من أهل مكة بعد الفتح لجرائم كانوا قد ارتكبوها واسترق ذراري قريظة ونساء هوازن وذراريهم .

كل هذا جعل الفقهاء يختلفون في حكم الاسرى والظاهر ان اختيار احد الامور الاربعة متروك للامام يتصرف به على ضوء الظروف والاحوال ، فقد قال ابن عمر للحجاج لما دفع اليه احد الاسرى ليقتله ليس بهذا أمرنا انما قال الله تعالى (فاما منا بعد واما فداء) (٧) وروى رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز ، قال : ما رأيت عمر رحمه الله قتل أسيرا الا واحدا من الترك ، وكان جيء بأسارى من الترك فأمر بهم ان يسترقوا ، فقال رجل ممن جاء بهم : يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا — يشير الى أحدهم — وهو يقتل المسلمين لكثر بكاؤك عليهم ! فقال عمر فدونك فاقتله فقام اليه فقتله (٨) ومهما يكن فان المن أو الفداء هو الغالب وكان القتل يقع في أحيان قليلة ولاسباب خاصة أما الاسترقاق فقد رغب

....

٤ — تاريخ التشريع الاسلامي ص ٦٧ الشيخ محمد الخضري — الطبعة الخامسة — مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٣٩ .

٥ — فجر الاسلام — الباب الثاني — الفصل الثاني الاستاذ احمدامين الطبعة الثانية ١٩٣٣ .

٦ — نظم الحرب في الاسلام — الاسرى — جمال الدين عياد .

٧ — فجر الاسلام ص ١٠٣ الاستاذ احمد امين .

٨ — تاريخ التشريع الاسلامي — اسرى الحرب — الشيخ محمد الخضري .

الاسلام ترغيبا شديدا في تحرير الرقاب وازالة الرق عنها بعدة طرق وليس في القرآن الكريم نص واحد على الاسترقاق وكان الرسول (ص) في جميع الغزوات كريما رحيما لا يبغي سوى دفع العدوان وتأمين الدعوة ومسالمة من سالم المسلمين عملا بالآية الكريمة (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم) .

وقد نقل (الماوردي) عن (الامام الشافعي) قوله في حكم الاسرى (الامام مخير بين القتل والاسترقاق والفداء بالمال والمن عليهم)(٩) .

ثم وقع عدد كبير من الاسرى العرب في قبضة المسلمين اثناء حروب الردة وفتح العراق والشام ، فأنف المسلمون من استرقاق اخوانهم العرب واكتفوا بالمفاداة او القتل وقال عمر (رض) (انه لقبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضا) وحدد فداء العربي بستة جمال باستثناء حنيفة وكندة فقد خفف عنهم اذ استحر القتل برجالهم في حروب الردة (١٠) وهو الذي وضع المبدأ الهام القائل (كل أسير كان في أيدي المشركين من المسلمين ففكاكه من بيت مال المسلمين) وقال حميد بن عبد الرحمن : قال عمر (رض) (لان استنقذ رجلا من المسلمين من أيدي الكفار أحب الي من جزيرة العرب) (١١) .

ولما اتسعت الفتوح الاسلامية وكثر الرقيق وتوفر المال ووقع بعض الاسرى المسلمين في قبضة اعدائهم اصبح القائد مخيرا بين قتل الاسير او فدائه بأسير مسلم وامتنع الفداء بالمال لغنى الدولة وكثرة مواردها وقال القاضي ابو يوسف (الامام في

....

٩ — الفن الحربي في صدر الاسلام — الفصل السادس — عبد الرؤوف عون دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

١٠ — الفن الحربي في صدر الاسلام — الفصل السادس — عبد الرؤوف عون دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

١١ — سيرة عمر بن الخطاب ص ٣١٦ علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي مطبعة الترقي في دمشق ١—٦—١٣٥٥ .

الاسارى بالتخيير بين القتل والفداء ، حسب الأصلح للمسلمين ولا يفادى بهم بذهب ولا فضة ولا متاع ولا يفادى بهم الا أسارى المسلمين (١٢) ولما انتشر الاسلام لم يعد يقبل من العربي الا الاسلام او القتال .

تبادل الاسرى مع الروم

كان المسلمون في ايامهم الاولى شديدي الحرص في القضاء على الامبراطورية البيزنطية واحتلال عاصمتها القسطنطينية فاحتلوا الشام وتوغلوا داخل بلاد الروم وحاصروا عاصمتهم التي صمدت لبعدها ومناعة موقعها واستخدام الروم للنار اليونانية التي لم يعرف العرب سرها واضاع المسلمون كثيرا من قوتهم بمنازعاتهم الداخلية والفتن وتجميد اقوى جيوشهم في بلاد فارس وتركستان لكن غاراتهم على ارض الروم لم تنقطع واضطر الروم الى دفع الجزية للعباسيين ايام المهدي والرشيد (١٣) كما كان الروم يقومون ببعض الغارات على تخوم الدولة الاسلامية ايام ازماتها ومحنها ولقد جرى اول فداء بين الروم والعباسيين عام ٧٩٨ م عند نهر (اللامس) على جانب البحر وهو يبعد عن (طرطوس) اثنى عشر فرسخا ومثل الباسيين (القاسم بن الرشيد) ومثل الروم الملك (تقفور ؛ وحضر الفداء جمهور من سكان الثغور والمناطق المجاورة بينهم عدد من العلماء والاعيان . وكان عدد الاسرى يزيد على (٣٧٠٠) اما الفداء الثاني فجرى في عهد الرشيد ايضا وكان عدد الاسرى فيه (٢٠٥٠) اسيرا ولم يبق اي اسير مسلم بأرض الروم ، وجرى فداء ثالث عام ٨٤٦ عند نهر (اللامس) أيضا وكان عدد منفوديبه

---

١٢ — الفن الحربي في صدر الاسلام — الفصل السادس — عبد الرؤوف عون دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

١٣ — الشرع الدولي في الاسلام ص ٣٠ نجيب الارمنازي مطبعة ابن زيدون ١٩٣٠ .

من المسلمين (٤٦٠٠) اسيرا وتمت عملية الفداء والتبادل ، وبقي من اسرى الروم مع المسلمين بعد التبادل مائة اسير اطلقهم المسلمون بلا مقابل (١٤) .

الرق في الاسلام

كان الرق نظاما شائعا في العالم عند الاسلام وكان الارقاء في جزيرة العرب يؤلفون قطاعا هاما في المجتمع العربي ، اذ كانوا يقومون بكثير من الاعمال التي يأنف العرب القيام بها . وكانت معاملة السادة للعبيد فظة قاسية . اما الاسلام فقد عامل الرقيق معاملة كريمة حسنة ، ورغب كثيرا في تحريرهم ، فجعل فك الرقبة خير ما يعبر به الانسان عن شكره لخالقه ، كما جعل تحرير الرقاب كفارة القتل الخطأ ، والظهار ، واليمين ، وجعل عتق العبد احد ابواب ثمانية من مصارف الزكاة .

ليس في القرآن الكريم دستور الاسلام الخالد ، نص واحد عن الاسترقاق بل نادى بالمساواة وتحرير العبيد وفك الرقاب . وكانت الشريعة الاسلامية اول قانون جعل من تحرير الرقاب ثوابا عند الله وكفارة عن الذنوب وكان الرسول ﷺ كريما رحيما مع العبيد والارقاء وما زالت كتب التاريخ والحديث تزخر بأقواله التي تدعو الامة الى تحرير الرقيق وتشجيع الناس على العتق فقد قال : «اخوانكم خولكم ، اكسوهم مما تلبسون ، واطعموهم مما تطعمون » . وجعل العتق والتحرير كفارة لكثير من الآثام وكان يردد في كل مناسبة تحبيذ العتق والدعوة اليه وتعظيم جزائه الاخروي (١٥) كما أوصى أصحابه بحسن معاملة العبيد وحثهم على الاحسان اليهم والاهتمام بطعامهم وكسوتهم

....

١٤ — الفن الحربي في صدر الاسلام — ص ٢٩٨ عبد الرؤوف عون — دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

١٥ — محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك ص ١٢٧ — محمد حسن عواد — مؤسسة دار الشعب — القاهرة ١٩٧٦ .

وشجع العبيد على حضور مجالس العلم ، فلا عجب ان نرى عمر بن الخطاب (رض) يقول في جواز أمان العبد المسلم لاحد الاعداء « عبد المسلمين من المسلمين ، وذمته من ذمتهم ، يجوز أمانة » وللعبد الحق في أن يشتري نفسه من سيده والامة تصبح حرة اذا اولدها سيدها (١٦) ومن كان اسيرا من المشركين فله ان يؤمن ويسلم فتعود اليه حريته ولو كان مخادعا ، اما الاسير من الكتابيين الذي دفع الجزية فيرفع عنه الحرب والاسر والرق (١٧) ولقد دأب خلفاء المسلمين من بعد على تحرير الارقاء كلما وجدوا الى ذلك سبيلا وتنافسوا في العتق وتحرير الرقاب وقيل عن (مروان بن الحكم) انه اعتق سبعمائة عبد وجارية في يوم واحد وان (سليمان بن عبد الملك) اعتق من الرقيق سبعين الف مملوك ومملوكة وقدم لهم الكساوى واشركهم في مجال النشاط الحر ولم يقتصر هذا التحرير على ارقاء العاصمة والبلاد العربية الاصيلة بل تناول الارقاء في خراسان والصين وجرجان وخوزستان والممالك المفتوحة حديثا كافريقيا والاندلس وقد شعر الارقاء في كل مكان بالمساواة (١٨) .

مبادىء وتعاليم

من مبادىء الاسلام انذار الخصم ودعوته الى الاسلام قبل القتال وجاء في الحديث (امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقهم وحسابهم على الله) فان اجاب كف المسلمون عن قتاله وان امتنع دعوه الى اداء الجزية فان اعطاها فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم وان ابى

....

١٦ — الفن الحربي في صدر الاسلام ص ٣٠١ عبد الرؤوف عون — دار المعارف بمصر ١٩٦١ .

١٧ — محمد محرر العبيد ص ٥٤ محمد شوكت التوني — الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة .

١٨ — محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك ص ٦٩ — محمد حسن عواد — مؤسسة دار الشعب القاهرة ١٩٧٦ .

لجأ المسلمون لقتاله .

ومن مبادىء الاسلام النهي عن الغدر وقتل الاطفال وكان رسول الله (ص) يوصي امراء جيشه وقادته فيقول : (اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى خصال فأيتهن ما اجابوك اليه فاقبل منهم وكف عنهم ...) (١٩)

ومن مبادىء الاسلام اجتناب قتل النساء والاطفال والشيوخ وصيانة اموال الاعداء ، فقد اوصى ابو بكر (رض) جيش اسامة بن زيد فقال : (لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تقعروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة الا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له ...) . وكان عمر بن الخطاب يوصي قواده بتقوى الله العظيم ثم يقول عند عقد الالوية : (بسم الله وعلى عون الله ، وامعنوا بتأييد الله بالنصر وبلزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، لا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرقوا عند الظهور ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان ...) (٢٠)

ومن مبادىء الاسلام الوفاء بالعهد مهما كان الثمن . قال الله عزّ وجل في محكم كتابه العزيز (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) وكان رسول الله ﷺ حريصا على الوفاء بالعهد متمسكا بقوله تعالى

....

١٩ — الشرع الدولي في الاسلام — مقدمات القتال — نجيب الارمنازي مطبعة ابن زيدون ١٩٣٠ .

٢٠ — الشرع الدولي في الاسلام — اساليب القتال — نجيب الارمنازي مطبعة ابن زيدون ١٩٣٠ .

(واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا) وقال عليــــــه الصلاة والسلام (ما نقض قوم العهد الا اديل عليهم العدو) . جاء رجل من قريش يدعى (ابا جندل) يريد الاسلام فرده الرسول (ص) الى قريش التزاما بصلح (الحديبية) فقال الرجل مخاطبا المسلمين أأرد الى المشركين وقد جئت مسلما .. ! الا ترون ما لقيت فيقول لــه الرسول (ص) (يا أبا جندل اصبر واحتسب فان الله جاعــــل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا واعطيناهم على ذلك واعطونا عهد الله وانا لا نغدر بهم) .

كان عليه الصلاة والسلام وفيا ملتزما بالمواثيق فما عاهده قوم ونقض وان كان قد عوهد وغدر بـــه (٢١) وكان المسلمون وغيرهم من الشعوب يحلفون الايمان لتثبيت العهـــود ويأخذون الرهائن وقد نقض الروم عهدهم في زمن معاوية وفي يـــده رهائن فأبي المسلمون قتلهم وخلوا سبيلهم وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر ، ولقد قال النبي (ص) ادّ الامانة لمن ائتمنك ولا تخن مـــن خانــك (٢٢) .

معاهدات ومفاوضات

عقدت الدولة الاموية معاهدات مع الروم ايام معاوية وعبــد الملك بن مروان ، واضطرت الى دفع المال للروم منعـــا لهجومهم ريثما يتفرغ الامويون لعدوهم الداخلي ، امـا المعاهـدات بــين العباسيين والروم فكانت لغرض تقرير الهدنة او للمفاداة ومبادلة الاسرى ، وكان الروم يبذلون المال للحصول على الهدنة وبخاصة

....

٢١ ــ نظم الحرب في الاسلام ــ العهود والمواثيق ــ جمــال الدين عياد ــ الطبعة الاولى ١٣٧٠ هـ .

٢٢ ــ الشرع الدولي في الاسلام ــ المعاهدات ــ نجيب الارمنازي ــ مطبعة ابن زيدون ١٩٣٠ .

في صدر الدولة العباسية . وفي عام ٩٤٦ م قدم وفـــد عربي الى البلاط البيزنطي للمفاوضة على تبـــادل الاسرى ، فاستقبلهـم الامبراطور وقد لبس تاجه وأثوابه وحذاءه الارجواني ، وقوبــل الوفد بمظاهرة رائعة وأقيم بهذه المناسبة عرض عسكري لجنـــود الامبراطورية مـــن المرتزقة وعـــرض للفرسان في الملعب احتفاء بالضيوف (٢٣) .

ولقد ازداد عـــدد الاسرى المسلمين ايام سيف الدولـــة الحمداني ، فدعا الناس لجمع الاموال والصدقات لفـك الاسرى ومفاداتهم وكان الجانبان يهتمان كثيرا في فك الاسرى وحـث الناس على التبرع بالمال لهذا الغرض ، وظل العالـــم منقسما بـين المسيحية والاسلام واستقرت العلاقات الحربية والسلمية بـين المسلمين وبين دول اوروبا حتى نشبت الحـــروب الصليبية التي أدت بالتالي الى انفصال يكاد يكون تاما بـــين العالمين الاسلامي والمسيحي (٢٤) .

....

٢٣ ـ تاريخ العالم ـ المجلد الرابع ص ٧٠٧ الناشر جون أ. هامرتـــن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

٢٤ ـ القانون الدولي العام في وقت السلـــم ـ تصدير الدكتـــور حامد سلطان ـ دار النهضة العربية ١٩٦٢ .

الفصـــل السابـــع

عصر الاقطـــاع والفروسية

ظهر الاقطاع في اوربا الغربية وكان منشؤه في ايطاليا والمانيا. والسمة الاساسية لهذا التنظيم اقتصاد محلي زراعـــي سياسي قوامه (الضيعة) والمزارعون والفلاحون والسيد الذي كان يقدم الحماية مقابل خدمات ورسوم شخصية (١) .
لم يأت فجأة ولم يكن منفصلا عما سبقه او لحقه من عصـــور ، فهو يمثل طورا من اطوار المجتمع الانساني ، فلقد نشأت ظروف عجيبة واحوال سيئة خلال الستمائة عام التي اعقبـــت مـــوت الامبراطور البيزنطي (جوستينيان) اثرت ببطء عـــلى المجتمـــع في اوربا الغربية ومهدت السبيل الى عهد الاقطاع . فنما وازدهر ثم افل بعد ان ساد المجتمع الانساني وبخاصة المجتمع الاوروبي عدة قرون تحول فيه الفلاحون الى ارقاء ارض وتنازل الكثيرون عـــن حرياتهم مقابل توفير الحماية والطعام .

ولقد عرفت البشرية الاقطاع قبل هذا التاريخ اذ عرفته مصر الفرعونية والبطلمية وفارس وعرفتـــه رومـــا في القرن الثالث الميلادي وتصف لنا رسائل (سيدونيس أبوليناريس) في القـــرن الخامس سادة الريف في ضياعهم الواسعة وحياة التـــرف والدذخ التي كانوا يحيونها وسط مزارع يفلحهـــا مستأجـــرون نصـــف

....

١ ـــ الموسوعة العربية الميسرة ـــ ص ١٨٥ الطبعة الاولى ١٩٦٥ .

مستعبدين (٢) .

ولقد تنوعت وتعددت اشكال الاقطاع واختلفت باختلاف الازمنة والامكنة حتى بلغت المائة ومن العسير ان نجد تعريفا جامعا مانعا للاقطاع ، كما أتعب المؤرخين شرحه وتباينت فيه الاراء ، ويعرف بأنه تجربة قاسية فرضتها الظروف والحوادث على المجتمع الانساني وبخاصة الاوربي للاستعاضة عن الحكومة المركزية البعيدة عن متناول الجماعات فتنازل الانسان راضيا ومضطرا الى اسقف او نبيل يوفر له الحماية والطعام (٣) ويعرف ايضا بأنه خضوع الرجل من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية الى رجل اسمى منه منزلة في مقابل تنظيم اقتصادي وعسكري . ان عجز الحكومات المركزية عن حماية الافراد النائية عن عواصمها وتعرض مدن (ايطاليا) و (غالة) لغارات الالمان اضطر اعيان هذه المدن الى الانتقال الى قصورهم الريفية وأحاطوا أنفسهم بمعاونيهم العسكريين والزراع والخدم والموالي فنشأت بمرور الايام وحدات اقتصادية شبه مستقلة ولما لم تعد الطرق صالحة للتنقل بسبب تخريبها بنتيجة الحروب والاهمال وفقر الحكومات تحولت قصور الاعيان الى شبه قلاع حصينة سعت الى الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية واقام الاسقف او البارون المحلي نظاما اقتصاديا وهيئة للدفاع عن مقاطعته وظل محتفظا بقوته ومحاكمه الخاصة . ولما كان معظم المغيرين فرسانا كثر الطلب على المدافعين الذين يملك كل منهم جوادا وفضل الفرسان على المشاة وهكذا نشأت في فرنسا وانجلترا في عهد النورمان وفي اسبانيا المسيحية ، طبقة

---

٢ — قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الرابع ترجمة محمد بدران ص ٤٠٥ الطبعة الثالثة عام ١٩٦٤ .

٣ — تاريخ العالم — المجلد الخامس — الفصل الثاني بعد المائة — ص ٣ الناشر جون .أ. هامرتن — اشرفت على ترجمته ادارة الثقافة لوزارة التربية والتعليم — مكتبة النهضة المصرية .

من الفرسان ، ولم تر الشعوب حرجا في هذه التطورات فقد كانت تتطلع الى نظام عسكري يؤمن لها الحماية ، لذلك نجـــد الناس يبنون بيوتهم على مقربة من قصور النبلاء والاديـــرة الحصينـــة ولم يترددوا في تقديم ولائهم وخدماتهم الى سيد يبسط عليهم حمايته القانونية او دوق يستطيع قيادتهم .

وها هم رجال احرار لم يعودوا قادرين على حماية انفسهـم يعرضون ارضهم وجهودهم على رجـــل قـــوي مقابل حمايتهم واطعامهم وتنازلت الجماعات عن الحرية التي عملـــت وبذلت في سبيلها ما بذلت منذ فجر التاريخ . ويتميز النظام الاقطاعي بتقسيم المجتمع الى ثلاث طبقات متميزة هي : النبلاء ورجال الدين والعامة وكان كثير من الاساقفة ورؤساء الاديرة من كبار المـــلاك وكانت الكنيسة تملك مساحات كبيرة من الاراضي الزراعية .

كان المجتمع الاوربي يتألـــف مـــن الاحـــرار ورقيق الارض والعبيد . ولقد نقص عدد العبيد بازديـــاد عـــدد ارقاء الارض (الاقنان) وتضخمت هذه الطبقة الجديـــدة وازدادت احوالها سوءا ولم يعد (القن) يختلف عن العبد اذ عليه تأدية واجبات معينـــة واتاوات معلومة للسيد ولم يكـــن يسمح له بالهجـــرة والتحرر الا نادرا ثم بدأت منذ مطلع القرن الحادي عشر أحواله في التحسن واصبح في الامكان تحريره مقابل مبلغ يدفعه لسيده او بسبب تنازل النبيل عن حقوقه زلفى لوجه الله (٤) .

أما العبيد فكان عملهم مقصورا على الخدمة المنزلية سواء في انكلترا أو جنوب فرنسا وازداد عددهم في المانيا في القرن العاشر ولم يعد النـــاس يتحرجون من القبض على الصقالبـــة الوثنيـــين ليقوموا بالاعمال اليدوية الحقيرة في الضياع الالمانيـــة أو ليبيعوهم في البلاد الاسلامية أو البيزنطية كما قام التجار الصقالبة باختطاف

....

٤ — تاريخ العالم — المجلد الخامس . الناشر جون أ. هامرتن — ص ١٦ اشرفت على ترجمته ادارة الثقافة لوزارة التعليم المصرية .

المسلمين أو اليونانيين من الذكور والاناث من سواحل آسية الصغرى وافريقية الشرقية وشواطىء البحر الاسود ، ليبيعوهم للعمل في المزارع أو الخدمة المنزلية كخصيان أو سراري أو عاهرات وازدهرت تجارة العبيد في ايطاليا بسبب قربها من البلاد الاسلامية اذ كان بوسع التجار اختطافهم بسهولة وهو في رأيهم انتقام عادل من المسلمين لغاراتهم الكثيرة على البلاد المسيحية .

وخيل للمصلحين ولرجال الاخلاق ان نظام الرق نظام أبدي وان المجتمع الانساني لن يتخلى عنه مختارا ووقفت الكنيسة موقف المؤيد لهذا النظام البغيض بالنسبة لغير المسيحيين وبالرغم من أن البابا (البابا غريغوري الاول) أعتق اثنين من عبيده ونطق بعبارات تستحق الثناء والاعجاب حول منح الحرية لجميع الناس والذي هو حق طبيعي فانه ظل يستخدم مئات العبيد في المزارع البابوية كما وافق على القوانين التي تحرم على العبيد أن يكونوا قساوسة أو يتزوجوا من المسيحيات الحرائر (٥) ، لقد حرمت الكنيسة بيع الاسرى المسيحيين الى المسلمين، لكنها أيدت استرقاق المسلمين والاوربيين الذين لم يعتنقوا الدين فامتلأت الاديرة بآلاف من الاسرى المسلمين والصقالبة . وظل الاسترقاق قائما في أراضي الكنيسة ومزارع الباباوات حتى القرن الحادي عشر واعتبر العبد سلعة قابلة للتداول وحرم على عبيد الكنائس الايصاء لاحد بأملاكهم بل كانت تؤول الى الكنيسة وكانت أراضي الكنيسة ترتفع قيمتها تبعا لما فيها من عبيد وأقنان . وفسر القديس (توما الاكويني) الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم وهو وسيلة اقتصادية في عالم يقتضي كدح بعض الناس ليتمكن البعض الاخر من الدفاع عنهم . كانت القاعدة المقررة بعدم جواز تنازل الكنيسة عن أملاكها الا بقيمتها الكاملة في السوق مصدر شر وأذى كبير لحق بالعبيد

....

٥ — قصة الحضارة — الجزء الثالث من المجلد الرابع ص ٤٠٩ تأليف ول ديورانت ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة ١٩٦٤ .

والاقنان ، اذ جعلت عتق العبيد والارقاء في أملاك الكنيسة أصعب منه في المزارع والضياع الاخرى وأخيرا حرمت الكنيسة استرقاق المسيحيين ، وتسرب الوهن والاضمحلال الى نظام الاسترقـــاق نتيجة تطورات اقتصادية ، اذ تبين أن الانتاج الذي يؤدي اليـــه القسر والشدة أقل نفعا وكمية من الانتاج الذي يكون الحافز عليه الرغبة في التملك وأصبح رقيق الارض لا العبد هو الذي يصنـــع الخبز لعالم العصور الوسطى(٦) .

....

٦ ــ قصة الحضارة ــ الجزء الثالث ــ المجلد الرابع ول ديورانـــــت ض ٤١٠ ترجمة محمد بدران الطبعة الثالثة ١٠٦٤ .

الفصل الثامن
الحروب الصليبية

موقف العالم الاسلامي :

كان العالم الاسلامي في أواخر القرن الحادي عشر ضعيفاً منقسما وفقدت الخلافة العباسية سلطتها وهيبتها ومكانتها وخرجت صقلية من أيدي المسلمين وضعف شأن السلاجقة وأخذت حملات فرنسية ــ اسبانية بتحريض من البابا تغزو مدن الاندلس فتغنم الاموال وتقتل الرجال وتأسر النساء ثم سقطت (طليطلة) ومدن اندلسية أخرى وألف (الحسن بن الصباح) جماعة الحشاشين (الباطنيين) أخطر جمعية ارهابية عرفها الشرق الاسلامي فتكت بالكثير من زعماء المسلمين وقادتهم واستولت على عدة قلاع ومواقع منيعة في شمال فارس والعراق والشام ولم تلبث أن تعاونت مع الصليبيين .

كان كل ما في الشرق الاسلامي من اضطراب وتمزق وضعف وثروة يغري أوروبا ويدفعها الى الوثوب ، فالصراع بين الغرب والشرق لم ينته وان اختلفت أسبابه وبواعثه ، فصراع الفرس مع اليونان ، وصراع الفرس مع البيزنطيين وصراع المسلمين مع الروم وصراع الاسلام مع المسيحية وصراع العثمانيين مع الدول الاوروبية واستعمار الغرب للشرق ونهب ثرواته واستغلاله ، وتآمر الغرب المستمر لوأد حركات التحرر والاطاحة بالحكومات التقدمية في آسيا

وافريقيا كلها فصول من مسرحية لم تنته بعد وستتوالى الفصول وتطول المسرحية حتى تفنى البشرية أو تهتدي الى طريق الخير والمحبة والسلام .

مهما اختلفت الآراء وتباينت بشأن دوافع الحروب الصليبية وأسبابها فان الهوس الديني والطمع في ثروة الشرق والرغبة في تأسيس ممالك جديدة(١) وسوء المعاملة التي كان يلقاها الحجاج المسيحيون وضعف الدولة البيزنطية وسوء الاحوال المعاشية في بعض الامارات الاوروبية ورغبة البابوية في السيطرة والتوجيه(٢) على عالم مسيحي موحد وسعي المدن الايطالية الى توسيع ميدانها التجاري كل هذه الاسباب اجتمعت فدفعت أوروبا لمهاجمة العالم الاسلامي في أواخر القرن الحادي عشر فتتابعت الحملات واستمرت المعارك والحروب زهاء قرنين . وكانت حربا قاسية تخللتها أحداث مروعة ومجازر رهيبة وحشية غذاها الحقد والجهل والتعصب وارتكب الصليبيون باسم الدين وهو منهم براء أبشع الجرائم وأفظع الاعمال .

الحملات الصليبية :

امتدت الحروب الصليبية من عام ١٠٩٥ م حتى عام ١٢٩١ م ، قام الصليبيون في خلالها بثماني حملات ، زحفت الحملة الاولى عام ١٠٩٥ م واستطاعت الاستيلاء على القدس عام ١٠٩٩ وأسست مملكة القدس اللاتينية وأقامت هيئتي فرسان الداوية والاسبارتية وزحفت الثانية عام ١١٤٧ م بسبب سقوط الرها في أيدي المسلمين وكان قادتها كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك

....

١ ــ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ــ الفصل التاسع عشر سيد امير علي ترجمة رياض رأفت ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

٢ ــ نور الدين محمود ــ مأساة الحملة الصليبية الاولى الدكتور حسين مؤنس ــ القاهرة ١٩٥٩ .

فرنسا ولم تلق هذه الحملة سوى الكوارث والويلات فقد هـــزم كونراد واصيب بالمرض ورجع الى المانيا يجر اذيال الفشل ، وعادت زوجة لويس والفرسان الفرنسيين الى فرنسا اما لويس فبقي في فلسطين عاما اخر . ثم سقطت مدينة القدس في يد صلاح الدين فجهز الصليبيون حملة ثالثة زحفت عام ١١٨٩ م قادها فردريـــك الاول امبراطور المانيا وريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا وفيليب اغسطس ملك فرنسا . ولقد نجحت هذه الحملة في احتلال عكا وظلت القدس بأيدي المسلمين .

لم تحقق الحملة الصليبية الثالثة النتائج المرجوة منها فأصاب العالم المسيحي ذهول ويأس وفقد ثقته بقادته وزعمائه لكن موت صلاح الدين المبكر وانقسام دولته بعد وفاته احيا الامـــل في نفوس رجال الدين المسيحيين فأخذ البابا يطالب العالـــم المسيحي ببذل مجهود جديد (٣) وتجمعت الجيوش في مدينة البندقيـــة في صيف عام ١٢٠٣ م فتوجهت نحو القسطنطينية واستولت عليها عـــام ١٢٠٤ وأقام الصليبيون فيها امبراطورية لاتينية ثم تقدمت الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢١٧ م وقد سبقتهـــا حملة الصليبيـــين الفاشلة عام ١٢١٢ وقد نزلت هذه الحملة في مصر واحتلت دمياط ثم اضطرت الى اخلائها وتولى امبراطور المانيا فردريك الثـــاني قيادة الحملة السادسة عام ١٢٢٨ م الذي اضطر الى عقد معاهدة مع الملك الكامل سلطان مصر نصت احدى بنودها على اطـــلاق سراح جميع الاسرى من الطرفين وفي عام ١٢٤٨ م توجهت الحملة الصليبية السابعة الى مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ومنيت بهزيمة ساحقة عند المنصورة وأسر الملك لويس مع عشرة آلاف من جيشه وكانت الحملة الصليبية الثامنة عام ١٢٧٠ م آخر الحملات

....

٣ ــ قصة الحضارة الجزء ١٥ الفصل السابع ول ديورانت ترجمة محمـــد بدران ــ القاهرة ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ .

حيث قادها لويس التاسع وتوجهت نحو تونس وباءت بالفشل وانتهت بوفاة لويس التاسع (٤) .

وبالاضافة الى هذه الحملات فقد توجهت جموع اخرى هلكت وابيدت في اوروبا او اسيا الصغرى .

دمار ونهب وقتل

كان الصليبيون كالاعصار المدمر لا يبقي ولا يذر ولقد انقضوا كالوحوش الكاسرة فنهبوا وقتلوا واحرقوا ودمروا اينما ساروا او أقاموا سواء في أوروبة أو اسيا وفتكوا بالشيوخ والنساء والاطفال وقتلوا الاسرى ومثلوا بالجثث ونبشوا القبور وارتكبوا جميع الجرائم والموبقات فاغتصبوا الفتيات وهتكوا الاعراض وتنكروا لكل القيم الانسانية ولم يحفلوا بعهد او اتفاق فنقضوا شروط الصلح مرات عديدة وغدروا بالسكان ولقد اضطر المسلمون في أحيان قليلة الى مقابلتهم بالمثل وذهب عن الحكومات الاسلامية تسامحها بسبب فظاعة الهجمات الصليبية وبشاعة جرائمها ووحشية رجالها .

وقامت جموعهم الاولى بكثير من الاعتداءات والجرائم ثم لجأوا الى السلب والنهب وهتك الاعراض فقاومهم أهل البلاد وأغلقت المدن أبوابها وقضى البلغار المسيحيون على أحد هذه الجموع وانقضت حملة (بطرس الناسك) على مدينة (مالفيل) فذبحت سبعة آلاف من سكانها وحين وصلت ضواحي القسطنطينية نهبت الكنائس والمنازل والقصور واضطر (اليكسوس) ملك الروم بتجهيزها بالمؤن والسفن انقاذا لعاصمته من الدمار وتوغلت في آسيا فارتكبت أشنع الفظائع ، اذ كانوا يقتلون الاطفال في أحضان أمهاتهم وينثرون أشلاءهم في الهواء .

---

٤ ــ الحروب الصليبية ص ٣٠ انتوني ولسيت ترجمة شكري محمود نديم ــ بغداد ١٩٦٧ .

وثار أهل المجر بوجه جمع اخر يتألف من أحط الطبقات وأجهلها بقيادة الراهب الالماني (هودسكال) لهتكه الاعراض ولجوئه الى النهب والقتل ولم ينج منه الا نفر قليل .

ثم جاء جمع اخر من انكلترا وفرنسا وفلاندرس واللورين ويسميهم المستر ميلس (عصابة اخرى من المتوحشين البائسين فانقضوا على اليهود وذبحوا الالوف منهم في كولونيا والمدن الاخرى على ضفاف الرين والموزيل وقتلوا في مدينة (ميانس) سبعة آلاف دفعة واحدة وواصلوا زحفهم الى الجنوب يدمرون وينهبون فقاومهم الجيش المجري في مدينة (ميمسبرغ) وفتك بهم(٥) ، وعندما استسلمت (انطاكية) الى الصليبيين بعد حصار دام تسعة أشهر ذبحوا ألفين من الاتراك ويقدر المؤرخون عدد الذين قتلوا في المدينة زهاء عشرة آلاف وسالت الدماء غزيرة في الميادين والطرق وفي خلال الحصار ألقى الصليبيون القبض على ابن أمير من أمراء الجيش السلجوقي وحاولوا ارغام أهله على تسليم المدينة فداء ابنهم من الاسر ولما أبوا أذاقوا الشاب أنواع العذاب ثلاثين يوما ثم حملوه أخيرا الى أسوار المدينة وذبحوه على مرأى من والديه وسكان المدينة(٦) ولما استولوا على (معرة النعمان) ذبحوا مائة ألف من سكانها واستعرض (بوهيموند) الاسرى واستبقى النساء الجميلات والشبان الاقوياء ليبيعهم في سوق الرقيق وأمر بذبح الشيوخ والاطفال كما قام الصليبيون في حادثة أخرى بنبش قبور المسلمين وقطعوا رؤوس الجثث وعرضوا منها ألفا وخمسمائة بمرأى من السكان الخائفين وأقدم الصليبيون على أكل اللحوم البشرية ويقال أنها كانت تباع علنا في معسكراتهم(٧) ولما فتحوا

....

٥ — مختصر تاريخ التمدن الاسلامي الفصل العشرون سيد أمير على ترجمة رياض رأفت — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

٦ — مختصر تاريخ التمدن الاسلامي الفصل العشرون سيد أمير علي ترجمة رياض رأفت — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

القدس ذبحوا سبعين ألفا من المسلمين ويقول شاهد العيان ريمند الاجيلي (شاهدنا أشياء عجيبة اذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رميا بالسهام أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الابراج وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام ثم أحرقوا في النار وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والايدي والاقدام وكان الانسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل) وقد وصلت الدماء في مسجد عمر الى الركب ولم يكف الصليبيون عن سفك الدماء الا عندما تقدموا الى الله بالشكر على انتصارهم ثم واصلوا القتل وذبحوا جميع من أبقوا على حياتهم طمعا في الفدية كما أحرقوا بعضهم وهم أحياء ثم جاءوا بالذين حاولوا الهرب ووضعوهم على جثث الموتى المكدسة وأخذوا يمثلون بهم اشنع تمثيل ويروي بعض المعاصرين تفاصيل أدق وأبشع فيقولون ان النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب أما الاطفال الرضع فيختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم أو يقذف بهم من فوق الاسوار أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد(٨) أما اليهود الذين بقوا أحياء فسيقوا الى كنيس لهم وأحرقوا ولاقت مدن قيصرية وطرابلس وصور وصيدا المصير نفسه ولما احتل الصليبيون القسطنطينية في حملتهم الخامسة أحرقوا ربع المدينة وقتلوا السكان وأحرقوهم وظلت الحرائق مستعرة لمدة ثمانية أيام ودمروا الكنائس ونهبوا جميع الكنوز والتحف وحطموا التماثيل والصور ويقول ميشو (أصبحت القرى والكنائس خرابا يبابا لا تصلح الا للمحراث يشق ركامها ، وأخذت الطرق تزدحم بالجموع المروعة وهي لا تدري أين

....

٧ ــ مختصر تاريخ التمدن الاسلامي الفصل العشرون سيد أمير علي ترجمة رياض رأفت ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

٨ ــ قصة الحضارة الجزء ١٥ الفصل الثاني ول ديورانت ترجمة محمد بدران ــ القاهرة ١٩٥٧ .

تسير يلاحقها الخوف ، وقد ناء كاهلها بالمتاعب والأوصاب) (٩) .

ولقد أثنى المؤرخون على شجاعة قادة الحملات الصليبية وفروسيتهم وأطنبوا في وصف أخلاقهم وسجاياهم وشهامتهم بينما هم لم يشتركوا الا لغرض الكسب وقد ارتكبوا وهم يجتازون أوروبا في طريقهم الى الشرق جرائم يندى لها الجبين وحسبنا أن نقتبس بعض فقرات من مقال أنا كوفيني ابنة الامبراطور الكسيوس البيزنطي عن بعضهم (فاما كبير أولئك الرجال — رايموند كونت تولوز — فقد كان شيخا في الستين من عمره لم تعرف عنه الى ذلك الحين كفاية أو مقدرة ، وقد أخذ بنصيب في الحملات المخربة التي قام بها أهل جنوبي فرنسا على المسلمين في الاندلس ... وكان دعيا مغرورا باردا ، بدت له الحروب الصليبية وكأنها فرصته الكبرى في الرياسة والقيادة ... وقد كذب فيما أعلن أنه سيقضي البقية من عمره في حرب المسلمين وزعم أنه تخلى عن أملاكه لانه حرص في السر على أن يتفق مع ابن غير شرعي له على أن يدير له أراضيه أثناء غيابه ... وعندما حاصر الصليبيون بيت المقدس كان أقلهم بلاء وثباتا ، فلما دخلوا البلد كان من أكثرهم اسرافا في قتل الاهلين العزل الآمنين ، ومع ذلك فقد أخذ رشاوى من بعض المصريين وتركهم يسيرون الى عسقلان ... أما جودفروا دي بويون ... فدخل المعمعة على أمل أن يجد لنفسه في الشرق ملكا ولكي يحصل على مال يستعد به للخروج الى الشرق . صادر أموال اليهود في امارته ونهب دورهم وقتل بعضهم قتلا ذريعا حتى ليقال أنه كان يشويهم على السفود ... ولم يكن بلدوين هذا الا سفاكا للدماء عاتيا بعيدا عن خلق الفرسان وقد اشتهر بقتل الاسرى واحراق القرى ونهب الماشية والنعم ، وهو أقرب الى حرب

....

٩ — مختصر تاريخ التمدن الاسلامي — الفصل الثالث والعشرون سيدامير علي ترجمة رياض رأفت مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

العصابات منه الى قادة الجيوش) (١٠) .

أما المسلمون فكانوا رحماء بالشيوخ والاطفال وكانوا يعاملون الاسرى بالحسنى ولما احتل عماد الدين زنكي مدينة الرها ورفضت حاميتها شروط التسليم لم يتملكه الغضب والانتقام فأطلق سراح جميع الرجال والانساء والاطفال ورد اليهم أموالهم ولم يقتل سوى المحاربين وبعض الرهبان والقسس الذين كانوا يحرضون الصليبيين على القتال (١١) .

أما مروءة صلاح الدين وعدله وتسامحه فقد كانت مضرب الامثال وقد أثنى عليه ومدحه خصومه فعامل الاسرى معاملة حسنة ورد زوجة ريموند أمير طرابلس الى زوجها معززة مكرمة عقب احتلال حصن طبرية ولما احتل القدس سمح للروم ونصارى المدينة بالسكن في بلاده وضمن لهم الحرية الكاملة وأمر الجنود الصليبيين داخل المدينة بالرحيل مع عائلاتهم وأطفالهم في خلال أربعين يوما وضمن لهم سلامة الوصول الى صور أو طرابلس وتساهل في تحديد فدية الرجل والمرأة والطفل وأهمل شروط الصلح التي تقضي أن يؤخذ أسيرا من يعجز عن أداء الفدية وافتدى صلاح الدين وحده عشرة آلاف شخص كما أطلق أخوه سراح سبعة آلاف وسمح لرجال الدين بنقل جميع أمتعتهم وأموالهم وأمر أن توزع الصدقات على الفقراء من النصارى النازحين وأن يزود الضعفاء والمرضى والشيوخ بالدواب لركوبهم واستجاب لرجاء الملكة ايزابيلا فأمر برد الاسرى الى أقاربهم ووعدها بحسن معاملة الباقين ووزع الصدقات على الايتام والارامل ويقول ميلز (ان كثيرا من المسيحيين الذين غادروا بيت المقدس رحلوا الى انطاكية لكن أميرها بوهيموند سلبهم

....

١٠ — نور الدين محمود — مأساة الحملة الصليبية الاولى الدكتور حسين مؤنس القاهرة ١٩٥٩ .

١١ — مختصر تاريخ التمدن الاسلامي — الفصل الحادي والعشرون — سيد أمير علي ترجمة رياض رأفت مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

أموالهم بينا كان هؤلاء البائسون يلاقون العطف أينما ساروا في بلاد المسلمين) ولقد أغلقت طرابلس أبوابها دون المسيحيين ومات الكثير منهم جوعا (١٢) .

وكان حريصا على حقن الدماء حتى دماء أعدائه ويقال أن أولاده طلبوا في برج عكا أن يأذن لهم في قتل أسير فأبى ولما سئل عن سبب المنع أجاب : لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدماء وتهون عليهم بعد ، ولم يكن معروفا بالقتل أو اذلال الاعداء وكان يسارع الى العفو عنهم اذا تم تأديبهم (١٣) . وكان صلاح الدين كريما مع الملوك والامراء الصليبيين في خلال مرضهم حيث كان يرسل اليهم الاطباء والفاكهة والثلج بينا نرى ريكاردوس قلب الاسد الذي يعده مؤرخو الغرب ندا لصلاح الدين يذبح جنود حامية عكا خلافا لشروط الاتفاق بحجة تأخر دفع الفدية أما ما صنعته الحملة الصليبية الخامسة في القسطنطينية من قتل وحرق ونهب وتدمير وهتك للاعراض فكانت فاجعة ومأساة بحيث اضطر البابا الى انتقاد هذه الاعمال وأنحى باللائمة على الصليبيين المتوحشين (١٤) .

كما قتل الصليبيون جماعة من المسلمين يصلون في مسجد مقام في مدينة مسيحية وأشعلوا النار في المسجد ويقول المؤرخون العرب أن صلاح الدين كان يبقي على سكان المدن التي يحتلها كما كان يؤمنهم على أموالهم ومتاعهم .

والحقيقة فان الصليبيين كانوا وحوشا لا يعرفون للفروسية معنى ، تنكروا لكل القيم والاخلاق ، وهم مسيحيون بالاسم وقد عم

---

١٢ — مختصر تاريخ التمدن الاسلامي — الفصل الثاني والعشرون — سيدامير علي ترجمة رياض رأفت .

١٣ — ايام صلاح الدين — حب السلام — عبد العزيز سيد الاهل المكتب التجاري بيروت ١٩٦١ .

١٤ — مختصر تاريخ التمدن الاسلامي الفصل الثالث والعشرون سيدامير على ترجمة رياض رأفت مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

أذاهم وتدميرهم فشمل الكنائس والمساجد والمسلمين والنصارى ، فقد نهبوا وسلبوا كل ما صادفهم واذا ما وقع في يدهم أسير مسلم باعوه فان لم يجدوا من يشتريه قتلوه .

الفصل التاسع

التتر والمغول

كانت قبائل التتر والمغول منتشرة على حدود الصين الشمالية في صحراء جوبي وسيبيريا وكانت دائمة الارتحال طلبا للكلأ والمرعى . وقد اعتادت الاغارة على بلاد الصين والعودة بالاسلاب والغنائم واضطرت الصين الى بناء سورها العظيم لصد أذاهم . وكانت مضارب القبائل التترية أقرب الى الصين من القبائل المغولية فأطلق الصينيون اسم التتر على جميع القبائل الرحل التي تعيش وراء حدودها ومنهم التتر والمغول والاتراك وغيرهم .

وبالرغم من أنهما جنسان مختلفان لكنهما تشابها في بعض الصفات وقد اندمج التتر في المغول في مستهل القرن الثالث عشر فامتزج تاريخهما وتوحد كفاحهما وغلب اسم التتر وكان المغول يكرهون هذه التسمية ويعتبرون أنفسهم سادة التتر فعاهلهم هو جنكيز خان امبراطور المغول وذريته تتولى العرش بعده وقد يكون من التتر أمراء وقادة ولكنهم لا يرثون العرش .

وانقلبت الآية في عهد تيمورلنك فدان المغول للتتر وسميت البلاد التي فتحها بامبراطورية التتر وتوارث عرشها أبناؤه وأحفاده (١) .

---

١ — تيمورلنك — تمهيد . محمد محمد فياض — سلسلة اقرأ ١٣٩ .

وظهر في صحراء جوبي زعيم مغولي يسمى (تيموجين) اعترفت له بالسيادة جميع القبائل التترية والمغولية. وما أن بلغ الثانية والاربعين من عمره حتى كان له جيش قوي فقرر ترك منطقته الصحراوية فجمع رؤساء القبائل ونادى بنفسه امبراطورا باسم (جنكيز خان) وبدأ في غزو العالم المتمدن وشن عليه حربا مدمرة لا عهد للانسانية بمثلها ففي عام ١٢١٢ م احتل (بكين) عاصمة الامبراطورية الصينية ثم اتجه غربا فاكتسح (تركستان الشرقية) و (ايران) و (أرمينية) و (الهند) حتى بلغ (لاهور) واحتل (روسيا الجنوبية) حتى وصل (هنغاريا) و (سيليزيا) فامتدت امبراطوريته الواسعة من المحيط الهادي حتى (نهر الدنيبر) (٢) ولما بلغ الخامسة والستين من عمره توفي بمرض عضال وخلفه ابنه أوجداي الذي غزا الجزء الباقي من الامبراطورية الصينية واكتسح روسيا عام ١٢٣٥ م وضمها الى امبراطوريته ثم انحدر الى بولندا فخربها واحتل المجر ومثل بأهلها أشنع تمثيل ومات فجأة عام ١٢٤١ م فخلفه ابنه قيوق ثم خلفه مانجو الذي سعى لاقامة امبراطورية عالمية الا أن المنية عاجلته عام ١٢٥٥ م (٣) بعد أن ولى أخاه قبلاي خان امبراطورا على الصين وبعث أخاه الثاني هولاكو ليغزو غرب آسيا ففتح بلاد الفرس وسورية واحتل بغداد ثم هبط الى فلسطين قاصدا مصر وهزم في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠. وتوقف تيار الفتوحات المغولية وانقسمت الامبراطورية المغولية الى أجزاء يحكم كل منها خان مستقل واعتنق المغول في شرق آسيا البوذية أما مغول أواسط آسيا وغربها فدخلوا الاسلام وتمكن الصينيون عام ١٣٦٨ من طرد المغول من بلادهم وهكذا

....

٢ — التأريخ العسكري اسفار بعض القادة العظام — الفصل الثالث كتاب رسمي .

٣ — تاريخ العالم — المجلد الخامس الفصل ١١١ الناشر جون ٠آ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية القاهرة — مطبعة مصر .

انتهت امبراطورية المغول العظيمة التي أسسها جنكيز خان وتمزقت بعد قرن واحد من موت هذا الطاغية الجبار وفي عام ١٣٦٩ استطاع تيمورلنك من تنصيب نفسه ملكا على سمرقند وقضى خمسة وعشرين عاما في حروب متواصلة شنها على القبائل التترية وأصبح الزعيم المطلق عام ١٣٩٥ وامتدت فتوحاته فشملت بلاد العجم وجورجيا وتوجه شطر الهند فاحتل البنجاب واستباح دلهي ثم تراجع وتوجه الى سورية فأنزل الخراب والدمار بمدينة دمشق واصطدم بالجيش التركي عند مدينة أنقرة عام ١٤٠٢ فمزقه ووقع السلطان بايزيد أسيرا في يده ثم توجه الى الصين وعاجلته المنية وهو في طريقه اليها عام ١٤٠٥ وقد بلغ السبعين من عمره (٤) بعد أن اختار بيرمحمد بن جاهنجيز ليرث عرشه واجتمع الامراء واتفقوا على مواصلة الزحف الى الصين وازدهرت امبراطورية التتر في عهد شاه رخ وأولوغ بج وتمكن أحفادهما من فتح الهند وتأسيس أسرة حكمت الهند باسم المغول العظام .

واستطاعت بعض البلاد التحرر من نير التتر ونقضت مصر الميثاق الذي ارتبطت به مع تيمورلنك واستعاد الاتراك قوتهم وتحرر الروس من نير التتر عام ١٤٨٠ م (٥) ولفظت امبراطورية التتر أنفاسها بسرعة أيضا شأن امبراطورية المغول .

امبراطورية المغول :

عرف المغول بالقسوة والوحشية وسفك الدماء كما اشتهر جنكيز خان مؤسس امبراطوريتهم بالبطش والقتل وحب التدمير والابادة . واندفعوا كالسيل الجارف يحمل الدمار والخراب ، وبدأ خانهم الجبار بالصين ولعله أراد الانتقام بسبب الجزية التي كان

....

٤ — تاريخ العالم — المجلد الخامس — الخبر الثاني والعشرون الناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

٥ — تيمورلنك — محمد محمد فياض — اقرأ ١٣٩ .

يدفعها المغول للصينيين فخرب المدن وعاد الى الصحراء مثقلا بالغنائم والاسلاب ثم قتل الاسرى ليتخلص من متاعبهم وطعامهم وعاد فاحتل العاصمة وتوجه الى آسيا الوسطى ثم انطلق نحو الغرب كالاعصار يدمر المدن ويفتك بالسكان ولم يلبث أن اشتبك مع شاه خوارزم علاء الدين وأحرق المغول (بخارى) ونهبوا ثرواتها واغتصبوا النساء وسيق الاسرى الى سمرقند ولما صعب عليهم اللحاق بالفرسان أمر جنكيز خان بقتل كل من يتخلف عن السير ، قال أحد الاهالي وقد فر الى خراسان يصف ما فعله المغول ببلده (جاءوا فخربوا وأحرقوا وقتلوا ونهبوا ثم مضوا) واستحالت بخارى الى أنقاض وخرائب ولاقت (سمرقند) المصير نفسه حيث نهبت وقتل السكان وأسر ثلاثين ألفا من أمهر الصناع وأرسلهم جنكيز خان الى أبنائه في الشمال كما جند عددا كبيراً لاستخدامهم في الاشغال العسكرية والنقل ، أما في (خراسان) فقد جمعوا الاهالي في ساحة واسعة وأمروهم أن يكتف بعضهم بعضا ثم شرعوا بذبحهم فقتلوا سبعين ألفا ولما احتلوا (مرو) وزعوا سكانها على المحاربين المغول ليذبح كل منهم نصيبه ولم يبقوا الا على أربعمائة صانع لحاجة الجيش اليهم وعلى بعض الاطفال لاتخاذهم عبيدا ولاقت بقية المدن هذا المصير المفجع نفسه ولما سمع المغول أن بعض الاهلين رقدوا بين جثث القتلى أصدروا الاوامر بفصل الرؤوس عن اجسادها واتبعوا ذلك في جميع معاركهم اللاحقة وكانوا يطاردون الفارين كما يطارد الصياد فريسته واستخدموا شتى أنواع الحيل لاخراج المختبئين من مخابئهم فارغموا مؤذنا من أسراهم على الآذان للصلاة وخرج المسلمون من مكامنهم معتقدين بذهاب الغزاة الذين كانوا لهم بالمرصاد فأبادوهم واعتادوا على احراق الغلات والمحاصيل قبل مغادرتهم المدن ليموت من اختبأ أو فر من السكان جوعا (٦) وكانت معاركهم معارك ابادة

---

٦ — اعصار من الشرق — في خراسان — ثروت عكاشة ١٩٥٧ .

وامحاء وصمموا على القضاء على اعدائهم من البشر اينما وجدوا ولجأ جنكيزخان الى افظع ضروب القسوة مع المسلمين وأنب احد قواده لانه امن اهالي (هراة) على حياتهم ولم يقتل عشرة آلاف من جنود جلال الدين وكان في احيان قليلة يبقي الاسرى ليستخدمهم في زراعة القمح لتموين جيشه خلال فترات الاستجمام الطويلة ولما كف عن مطاردة جلال الدين الذي عبر السند هاربا قفل راجعا الى وطنه وعلى مقربة من خرائب (سمرقند) امر بقتل الاسرى كعادته واستبقى نساء الامراء والملوك المسلمين(٧) .

وكانت سياسة جنكيزخان في السنة الاولى من حربه مع شاه خوارزم ذبح جنود الحاميات وتهجير سكان المدن ثم البدء بالسلب والنهب وبعد ذلك بغرق الاسرى ويصنفوا ويحتفظ بالقوي من الرجال للكد في أعمال حصار المدن الاخرى ويقوم ارباب الحرف الماهرين بصنع ما يقترحه قادة المغول ثم تغيرت هذه السياسة وطغت سياسة الامحاء والابادة على سكان المدن لكيلا تقوم لها قائمة في المستقبل أو بسبب مقاومتها ، فلقد قاومته (نيسابور) بضعة أيام فكان جزاؤها ذبح الرجال والنساء والاطفال وصنع المغول في روسيا ما صنعوا في دولة خوارزم فأبادوا ودمروا وأحرقوا كدأبهم وأسروا عددا من قواد الروس عن طريق الغدر والخيانة فكبلوهم بالاغلال واقاموا فوقهم طوارا جلس عليه كبار قادة المغول ليطعموا وليمة النصر بينما كان القادة الروس يموتون اختناقا ثم عاد المغول الى منغوليا وفي عام ١٢٣٧م رجعوا بقيادة باتو فذبحوا البلغار القاطنين على ضفتي نهر الفلجا وخربوا مدينة (بلغار) ونهبوا جميع مدن (ريازان) ودكوا ابنيتها وحرقوا (موسكو) وحاصروا (فلومير) وقص النبلاء شعرهم واختبأوا في الكنائس ولبسوا مسوح الرهبان ثم احرقت الكنيسة والمدينة

....

٧ ــ جنكيزخان ــ بخارى ــ هارولد لامب ترجمة اللواء بهاء الدين نوري ــ مطبعة السكك الحديدية العراقية ــ بغداد .

فهلك الجميع ودمرت النيران (سزاول) و (روستوف) وخربت (شرنجوف) و (كيف) وقتل الآلاف من سكانها وتقدم المغول الى وسط أوروبا ثم عادوا الى روسيا يعيثون فيها فسادا وسمح للامراء الروس بالاحتفاظ باراضيهم شريطة اداء الجزية للمغول اما من يعجز عن الدفع فيباع بيع الرقيق (٨) .

وتابع هولاكو الزحف في غرب اسيا على الحشاشين وهدم قلاعهم ثم زحف الى (تبريز) واتجه نحو بغداد قاعدة الخلافة العباسية بجيوش جرارة وحاول جنود الخليفة مقاومة الغزاة قبل وصولهم بغداد ففشلوا وهزموا ثم أطبق المغول على بغداد وحاصروها اربعين يوما ونصبوا المنجنيقات على جميع القلاع والحصون وامطروها بالحجارة والنار المشتعلة واحدثوا ثغرة كبيرة في اسوارها واحرقوا المنازل واضطر الخليفة لطلب الصلح وابدى استعداده للتسليم شريطة الابقاء على حياته وحياة السكان وخرج مع ثلاثة آلاف من القضاة والاعيان والاشراف لملاقاة هولاكو الذي خان الاتفاق وغدر بهم كما فتك بسكان المدينة الذين اوعز اليهم الخليفة بالقاء السلاح والوقوف خارج ابواب المدينة لاحصائهم وفي اليوم التالي امر هولاكو بنهب المدينة وذبح سكانها ووطئت اجساد المستغيثين بحوافز الخيل واغتصبت النساء وسالت الدماء غزيرة في الشوارع مدة ثلاثة ايام حتى اصبح ماء دجلة لعدة اميال احمر قانيا واستبيحت المدينة ستة أسابيع فذبح السكان وانتهكت الحرمات وخبت المنازل وأحرقت الدور وتهاوت القصور وتقوضت الجوامع والضرائح بسبب النار أو بالمعاول من أجل قبابها الذهبية وذبح المرضى في المستشفيات وقتل طلاب العلم والاساتذة في المدارس ونبشت قبور الاولياء وأضرحة الائمة الصالحين واستمرت المذابح اربعة ايام وضرب

....

٨ ــ قصة الحضارة الجزء (١٥) ــ الفصل الثالث ول ديورانت ترجمة محمد بدران ــ القاهرة ١٩٥٧ .

الخليفة المستعصم واولاده وافراد اسرته ضربا شديدا حتى فارقوا الحياة وامست بغداد خرابا بلقعا وهلك في سكانها اكثر من مليون ونصف وعبر المغول الفرات متجهين صوب الجزيرة يطاردون الاهلين فيقتلون ويسلبون فأبادوا جميع سكان الرها وحران ونصيبين وذبحوا في حلب خمسين الفا وسبوا عشرة آلاف من نسائها واطفالها فأحتلوا سورية ثم انحدروا الى فلسطين قاصدين مصر لكنهم هزموا في موقعة (عين جالوت) عام ١٢٦٠ م وتخلص العالم الاسلامي والانسانية من شرورهم (٩) .

امبراطورية التتر

أعلن تيمورلنك نفسه ملكا على (سمرقند) عام ١٣٦٩ م وبدأ يضم المدن الى مملكته التي بدأت تنمو بسرعة فامتدت غربا الى بحر قزوين وشمالا الى بحر آرال وضمت اليها مدينة هراة في الجنوب واستقرت الزعامة المطلقة لتيمورلنك عام ١٣٩٥ م ، وكان قد قارب الستين من عمره وقد عرف بالقسوة وشدة البطش والفتك ويقول المؤرخون أن جنكيزخان كان يدمر أما تيمورلنك فكان يمحو . فقد أقام في أصفهان هرما من الجماجم البشرية بلغ عددها سبعين ألفا ولما انتصر على المغول في روسيا وفر ملكهم (تكتميش) جمع تيمور الاسرى وأمر بقتلهم والقاء جثثهم في مستنقعات (الفولجا) ويقول المؤرخون ان مائة الف من المغول قد لقوا حتفهم في هذه المعركة واستولى تيمور على مخلفات جيش المغول واموالهم الطائلة المكدسة في الخيام واطلق رجاله للسلب والنهب فبدأ بالبلاد الواقعة على ضفتي الفولجا ثم انحدروا الى روسيا وعادوا ومع كل منهم رعيل من الخيل محمل بالنفائس والاموال عدا السبايا من الفتيات الجميلات (١٠) .

....

٩ — مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي — الفصل الثالث والعشرون سيدامير على ترجمة رياض رأفت — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .

١٠ — تيمورلنك — المطاردة — محمد محمد فياض — اقرأ ١٣٩ .

ولما صمدت مدينة (تكريت) وابت الاستسلام امر مهندسيه بصنع منجنيقات ضخمة لقذف المباني والسكان بالاحجار ثم قام جنوده بتسلق الصخور وفتح فجوات في اساس السور ملئت بالوقود والزيت ثم أشعلت النار فيها فتصدعت الجدران في مواضع كثيرة وتسلق تيمور الصخور يتبعه جيشه ودخل المدينة وقتل جميع المحاربين وفصل رؤوسهم واقام من الجماجم هرمين كبيرين ثبتهما بالجص وكتب على قاعدة كل منهما (تلك عاقبة الباغي الاثيم) (١١) ولما علم تيمورلنك بمقتل ثلاثة آلاف رجل من جنوده الذين دخلوا مدينة اصفهان للهو والتسلية والعبث ، غضب واصدر امره الى الجيش باقتحام المدينة وان يعود كل جندي مع رأس قتيل من اهلها ونفذ الجيش الامر وتحولت المدينة الى مجزرة بشرية مروعة وأحجم بعض الجنود عن الاشتراك لئلا يقتلوا رجلا مؤمنا ، لكنهم ابتاعوا رؤوس القتلى من زملائهم وتكدست عند المساء سبعون الف جمجمة من الضحايا ، فأمر ان تقام منها ابراج في شوارع المدينة(١٢) .

واستغلت (جرجانية) فرصة نزول (تكتميش) أحد أحفاد جنكيزخان من الشمال بجيش كبير فخرجت على حكم تيمور واغار اهلها على البلاد المجاورة يسلبون وينهبون فسار اليها تيمور وحاصرها وترك الجوع يفتك بها وهدم حصونها واسوارها واوعز الى جنوده بتأديب اهلها فسلبوا الاموال وذبحوا السكان ثم اشعلوا النار في المدينة وتركوها ركاما تملؤها اكداس جثث القتلى .

وعرف تيمور بالغدر والتنكر للوعود والمواثيق ولم تكن له سياسة ثابتة مستقرة بل كانت تتغير طبقا للظروف والاحوال

....

١١ — تيمورلنك ابراج من جماجم البشر — محمد محمد فياض اقرأ ١٣٩ .
١٢ — تيمورلنك — غزو فارس محمد محمد فياض اقرأ ١٣٩ .

ولما دخل مدينة (دلهي) تنكر لوعده بالابقاء عليهـــا فأباحها لجنوده خمسة ايام يسلبون ويذبحـون وفي عـــام ١٤٠٠ م دخل مدينة (سيواس) عنوة فجمع اربعة آلاف ارمني حاولوا مقاومته وقبرهم احياء في الخندق المحيط بالمدينة .

ورحل عن دمشق التي رضيت بالشروط التي فرضهـا عليها لكنه عاد اليها بعد ان هاجمت حاميتها المصرية مؤخـــرة جيشه فدخلها قسرا واطلق رجاله للسلب والقتل ثم اشعل النار فيهـا فتقوضت مبانيها ودفنت الآلاف من جثث القتلى تحت أنقاضها ثـم عاد الى حلب ولما سمع باهتمام قائد حامية بغداد بتحصين المدينة وترميم اسوارها توجه الى بغداد في مائة الــف مقاتل فحاصرها أسبوعا كاملا ثم قضى على حاميتها كما قتل من الاهالي تسعـين الفا بنى من رؤوسهم مائة وعشرين هرما ثم امـــر بهدم المباني واشعال النار فيها وهكذا اصبحت مدينة السلام مرة ثانية مدينة الخراب والبؤس والموت(١٣) .

ولم يعرف التاريخ مثيـلا لتيمورلنك في التخـريب والقتـــل والابادة ، فقد فاق جنكيزخان وأضرابـه من السفـاحين العتـاة وانصرف مليـا الى القتـل والفتـك والنهب ولم يفكـر في بنـاء امبراطوريته وربط اجزائها ولم يسجل له التاريخ اي عمل انشائي لذلك انهارت امبراطوريته اثر موته لخلوها من كل عوامـل البقاء والتماسك (١٤) وتبخـرت الدمـاء الغزيرة التي أراقهـا ونجت الصين من بطش هذا الطاغية الجبار والسفاح الماكر .

....

١٣ ـ تيمورلنك ـ محنة دمشق وبغداد ـ محمد محمد فياض اقرأ ١٣٩ .

١٤ ـ تاريخ العالم ـ المجلد الخامس ـ الجزء الثاني والعشرون ـ الناشر جون ٠أ٠ هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية ، مكتبة النهضة المصرية.

الفصل العاشر

الامبراطورية العثمانية

في منتصف القرن الثالث عشر او قبله كانت قبيلة تركية تتجول في سهول الاناضول بحثا عن الكلأ والمرعى لقطعانها ، بينما كانت اقوام وقبائل اخرى تهرب مذعورة الى الغرب امام سيل المغول الجارف واستطاع ارطغرل زعيم القبيلة بتدبيره وحنكته اتقاء خطر المجاعة التي حلت بالمنطقة وحالت دون هلاك قبيلته ثم دارت معركة ضارية في سهل فسيح على مقربة من مضارب القبيلة وهب رجال القيلة لنجدة فرسان السلاجقة ابناء عمهم وانتصر السلاجقة على عدوهم وكافأوا القبيلة فمنحوها ارضا بالقرب من نهر انقره (١) ولما انهارت امبراطورية السلاجقة اعلن عثمان بن ارطغرل استقلاله ثم توفي السلطان علاء الدين السلجوقي عام ١٣٠٧ فاتخذ عثمان لنفسه لقب السلطان وأصبح سيد آسيا الصغرى وبه ابتدأت دولة الاتراك العثمانيين واستولى على بروصه واتخذها عاصمة لدولته وخلفه ابنه اورخان عام ١٣٢٦ وتوسعت الدولة العثمانية في عهده وتوطدت اقدام الاتراك لاول مرة في ادرنة بعد احلال غاليبولي عام ١٣٥٤ وهو الذي اسس نظام الانكشارية وفي عام ١٣٦١ استولى مراد الاول على ادرنة

....

١ ــ سليمان القانوني ص ٣٤ هارولد لامب ترجمة شكري محمود نديم مطبعة دار التضامن بغداد ١٩٦١ .

واكره ملك الروم على دفع الجزية وحطم في (قوصوه) عام ١٣٨٩ جيوش الحلف العظيم الذي نظمته الدول السلافية لمقاومة الغزو العثماني وخلفه بايزيد الذي دانت له الصرب وضم بلغاريا الى دولته وارغم اقليم الافلاج عبر الدانوب على دفع الجزية (٢) وتمكن عام ١٣٩٦ من صد جموع الصليبيين في الحملة التي قادها ملك المجر والحق بها هزيمة نكراء في موقعة نيقوبوليس ، وتوقف الفتح التركي في اوربا بسبب زحف التتر على اسيا الصغرى وتأخر فتح القسطنطينية واضطر السلطان بايزيد الى التراجع للدفاع عن ارض الوطن وفي صيف عام ١٤٠٢ م وعلى مقربة من أنقره انتصر تيمورلنك واسر بايزيد وافاق الاتراك من هزيمتهم بعد اثنتي عشرة سنة واستطاع محمد الاول أحد أبناء بايزيد من فرض سلطانه واسرع ملك الروم الى اعلان طاعته وولائه وخلفه السلطان مراد الثاني الذي حاصر القسطنطينية مرتين وأرغم ملك الروم على زيادة الجزية وانتصر على المجر وحلفائها في معركة فارنا عام ١٤٤٤ م وخلفه محمد الثاني الذي فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ ولقب بالفاتح وبذلك انتهت الامبراطورية البيزنطية وفي عام ١٤٥٤ م اتفق مع امارة البندقية ومنحها بعض الامتيازات وحاصر بلغراد بجيش كبير عام ١٤٦٦ م ولكنه فشل في الاستيلاء عليها وانسحب (٣) ثم بدأت الحرب بين العثمانيين والبنادقة عام ١٤٦٣ وارغمت البندقية على دفع جزية كبيرة مقابل سيادتها على بلاد المورة ثم غزا ايطاليا عام ١٤٨٠ م واستولى على ميناء اوترانتو وتمكن قبل موته عام ١٤٨١ م من اخضاع كل شبه جزيرة البلقان واضطر خلفه بايزيد الى الجلاء عن ايطاليا ، وفي عام ١٥١٦م

....

٢ — تاريخ العالم — المجلد الخامس — الجزء الحادي والعشرون اناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

٣ — تاريخ العالم — المجلد الخامس — الفصل ١٢٣ الناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

انتصر السلطان سليم على المماليك في معركة مرج دابق واحتل مصر عام ١٥١٧ واسر المتوكل آخر خلفاء العباسيين بعد ان حمله على النزول له عن الخلافة وخلفه ابنه سليمان القانوني عــام ١٥٢٠ م الذي استولى على بلغــراد ورودس وبودابست وتبريز وبغـداد وعدن والجزائر ووصلت الجيوش العثمانية الى اسوار فيينا .

وامتد نشاطه الى البحر الابيض المتوسط فعـين في عــام ١٥٣٣ خير الدين بربروسه قائدا عاما للاسطول العثماني ووضع بأمرته (٨٤) سفينة ، فشن الغارات على المــدن الواقعة عـلى شواطىء صقلية وايطاليا وأسر آلاف المسيحيين الذيــن بيعوا في اسواق الرقيق واستطاع بربروسه من ضم تونس الى الامبراطورية العثمانية . وفي عام ١٥٣٥ م استطاع شارل الخامس من احتلال تونس بعد ان اخفــق بربروسه في صــده ، وحطم الارقــاء المسيحيون في سجون تونس اغلالهم وتسلقوا الابواب ودخــل (شارل الخامس) المدينة من دون مقاومة واباح لجنــوده السلب والنهب لمدة يومين فلقي الكثير من المسلمين حتفهم ودمرت حصيلــة قرون من الحضارة والفن في يومين فقط ، وحرر الارقاء المسيحيــون وسط مظاهر من الابتهاج واسترق من بقي حيا مــن السكــان المسلمين .

ولقد بلغت الامبراطورية العثمانية في عهد سليمان القانوني ذروة مجدها وأقصى اتساعها اذ كانت تمتد من جبال الكربات الــى الخليج العربي ومن بحر قزوين الى غرب البحــر الابيض المتوسط وتضم كثيرا من بلدان آسيا وافريقيا واوروبا وخلفه ابنه سليــم الثاني عام ١٥٦٦ م وكان سكيرا وضعيفا وظل العثمانيون خطــرا دائما يهدد اوربا في البر والبحر مدة قرنين ثم بدأت نكساتهم تتلاحــق فقد غلبوا في معركة ليبانتــو البحرية عــام ١٥٧١ م وهزموا في سان جوتار عام ١٦٦٤ وفشلوا في الاستيلاء على فيينا عام ١٦٨٣ م

واضطروا الى الانسحاب (٤) وتوارث العرش سلاطين ضعفاء انغمسوافي الملذات مع جواريهم وسيطر الخوف والشك على نفوسهم فخافوا من اخوانهم وابنائهم وزوجاتهم كما خافوا خيانة الوزير الاعظم ، فلقد اعدم احد السلاطين اخوانه التسعة عشر وتدخلت النساء في شؤون الحكم ودب الوهن في اجزاء الامبراطورية وتململت شعوب البلقان وغيرها وخاضت حروبا عديدة في اوربا مع النمسا وروسيا وتوالت الهزائم على العثمانيين ، وانسلخت المقاطعات وتحررت الاقاليم وفرضت على الاتراك معاهدات جائرة وسميت الدولة العثمانية بالرجل المريض واخيرا هزم العثمانيون في الحرب العالمية الاولى وانتهت الامبراطورية العثمانية فتمزقت اوصالها وزالت الخلافة الاسلامية وقامت دولة تركية حديثة رأت في الحضارة الغربية مثلها الاعلى فتنكرت لماضيها وتراثها .

اعتنقت القبائل التركية الاسلام في القرن السابع للميلاد وكانت من أشد المسلمين حماسة وغيرة عليه،وكان الاتراك العثمانيون قساة خشني الطباع ، استطاعوا ان يقيموا امبراطورية مترامية الاطراف بنت امجادها على الغزو والفتح وبالرغم من تعصبهم للدين وتمسكهم بالشريعة الاسلامية فان التزمت والجمود والتمسك الحرفي بظاهر النص كان هو الغالب على تصرفات السلاطين والحكام وكان قتل الاسرى البالغين وسبي الناس واخذ الاطفال قسرا من عوائلهم يجري في أكثر الاحيان ، لقد كانوا يأخذون رأي شيخ الاسلام في الامور الخطيرة ، لكن شيخ الاسلام كان يستشف رأي السلطان فيصدر فتواه تبعا لرغبة السلطان وهواه .

كان العثمانيون الاول يدربون الصبيان الذين يأسرونهم ليشتركوا معهم في الحرب وكان السلطان اورخان الذي احدث نظام الانكشارية يخير المسلمين الذين يعيشون تحت الحكم التركي

---

٤ — تاريخ العالم — المجلد الاول — الفصل ١٣ الناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

بتسليم أطفالهم لينشأوا نشأة اسلامية ثم ينخرطـون في سلـك الانكشارية او يلتحقون بالخدمة المدنية بدلا مـن دفع الجزية (٥) واتبع السلاطين من بعده هذه الطريقة فأضافـوا الصبيان مـن الاسرى المسيحيين الى الغلمان الاتراك ليدربوا ثم يعملوا في سلك الانكشارية ، وكانوا يجندون غلمانا كل ثلاث سنوات او اربع مـن العوائل المسيحية تتراوح اعمارهم بين سبع سنوات او ثمان ولا بدّ للعائلة ان تسلم احد أطفالها ، وكان هؤلاء الصبيـان يمتحنون ويصنفون وتعطى لهم اسماء جديدة ثم يرسلون للعمـل في الخارج ريثما تشتد سواعدهم ويتعلموا اللغة التركية ثم ينتخـب الاذكياء منهم فيرسلون الى المدارس ويدربون على مختلف اسلحـة القتال والرياضة وعندما يبلغون العشرين من عمرهم ينتظمون في سلـك الانكشارية اما المتبقون وهم الغالبية فيعملون بحسب رغبتهـم في الحدائق او السفن او مطاعم الانكشارية ، وكان بعـض الآباء الاجانب يسعون لادخال ابنائهم في خدمة السلطان علهـم يتسلموا مناصب خطيرة في المستقبل ، ولقد انشأ السلطان محمد الفاتـح مدرسة اطفال الجزية لخلق اجيال ذكية قويـة ، وكانت المدرسة تستخدم قبل ذلك لتدريب الاحداث على الرياضـة لينخرطوا في صفوف الانكشارية او صفوف الجيش الاخرى وغدت المدرسة تعج بالاطفال الاجانب من الصرب والالبان واليونان والالمـان والكرج والشركس وغيرهم وكان معظمهم من عوائل مسيحية ومن اطفال الجزية ، حيث كان السلاطين يطلبون ثلاثة آلاف طفل من الملـل الاجنبية كل ثلاث سنوات او يشترونهم من الاسواق في (اليمنوس) و (كافا) أو أبناء يجلبهم اباؤهم لتسجيلهـم في المدرسة . واهتم السلطان سليمان القانوني بهذه المدرسة ، فلم تقبل الا أفضـل الاطفال وبعد اختيارهم بدقة ، وكانوا الاقلية المختارة والمرشحين

....

٥ ـ تأريخ العالم ، المجلد الخامس ـ الجزء الحادي والعشرون الناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

للحكم (٦) واصبح للامبراطورية العثمانية جيش قوي لا مثيل له وكانت القوة الضاربة فيه جنود الانكشارية الذين عرفوا بالمهارة والتفاني والاخلاص وكانوا من ابناء المسيحيين الذين انتزعوا من اسرهم في سن الطفولة المبكرة ، فانشأوهم نشأة اسلامية في بيئة عسكرية صرفة وحرموا عليهم الزواج ولم تعد لهم رابطة بعائلة او قريب والحقيقة فانهم كانوا قوة مثالية ممتازة ومرعبة في ايدي السلاطين والقواد والحكام لا يعرفون غير اداء الواجب والطاعة العمياء (٧) .

وكان صفوة المشاة في الجيش العثماني من ابناء الاسرى ودافعي الجزية المسيحيين وكان عددهم في عهد سليمان القانوني يناهز العشرين الفا وكان مراد الاول قد انشأ هذه الفرقة الممتازة عام ١٣٦٠ كوسيلة لتجريد رعاياه المسيحيين من الشبان الذين يحتمل ان يكونوا مصدر خطر . وكانوا يتلقون تدريبا عاليا على كل فنون الحرب ومهارات القتال وكان محرما عليهم الزواج والاشتغال بالاعمال الاقتصادية ، كما يجري تلقينهم الروح العسكرية والمجد الحربي والعقيدة الاسلامية (٨) .

كان السلاطين قساة غلاظ الاكباد سواء في حروبهم او مع ابنائهم واحفادهم وزوجاتهم واخوانهم وقادتهم ، ولقد وضع محمد الفاتح قانونا قاسيا يقضي باعدام جميع ابناء السلطان عند وفاته والابقاء على واحد فقط يرث العرش خوفا من الفتنة والانقسام ، كما اعدم السلاطين في حياتهم الكثير من ابنائهم

....

٦ ــ سيمان القانوني ــ مدرسة اطفال الجزية ــ هارولد لامب ــ ترجمة شكري محمود نديم مطبعة دار التضامن بغداد ١٩٦١ .

٧ ــ تاريخ العالم الحديث الجزء الاول ــ الفصل الاول روبرت. ر. بالمر ترجمة الدكتور محمود الامين ، مطبعة أسعد بغداد .

٨ ــ قصة الحضارة ــ الاصلاح الديني ــ ج ٢ ــ مجلد ٦ ، ص ١١١ ول ديورانت ترجمة محمد علي ابو درة ١٩٧٢ .

واحفادهم ووزرائهم بسبب السعاية والوشاية والدس ، وكانوا يعاملون المدن التي تقاومهم بمنتهى القسوة فيبيحونها لجنودهم عدة أيام ويذبحون الاسرى البالغين ويوفرون الأطفال ليضموهم الى الانكشارية ، لقد وجه السلطان محمد الفاتح نداء لجنوده قبل فتح القسطنطينية واعدا بترك المدينة لهم بعد فتحها ثلاثة ايام ، وان سكانها وثرواتها ستكون تحت تصرفهم ، وقبيل الهجوم جمع قواده وخطب فيهم يذكرهم بالثواب الذي سينالونه وبالنساء الفاتنات ، وبرّ السلطان بوعده فانتشر القتل والنهب واغتصاب النساء في المدينة (٩) كما اشتهر السلطان سليم بقسوته وسفكه للدماء . ففي عام ١٥١٤ عندما انتصر على الفرس في موقعة (جالدران) أمر بذبح جميع الفرس وصنع من جماجمهم هرما اقيم في ساحة المعركة ، ونكث عهده ١٥١٧ م ففتك بالمماليك في القاهرة بعد ان اعلن الامان لمن يلقي سلاحه منهم ، فقتل منهم ومن سكان القاهرة حوالي خمسين الفا (١٠) . وتشير يوميات السلطان سليمان القانوني بعد انتصاره في معركة (موهاكس) عام ١٥٢٦ م انه أمر بقتل الفين من الاسرى ، لكنه خرج على العرف القديم فمنع حرق القرى او تخريب المدن خلال زحفه كما طلب المحافظة على النساء والاطفال وقد اخذ صغار الاطفال واجملهم ارقاء ليباعوا او للاحتفاظ بهم للخدمة ، الا ان الاتراك ابادوا المدافعين في طريقهم كما احرقوا الكنائس الضخمة التي تجمع فيها الناس ليدافعوا عن انفسهم ، فاحترقوا ودفنوا تحت انقاضها ، ولما احتل العثمانيون (بودابست) أمر السلطان سليم بعدم الاضرار بها او نهبها ، ولكن النار شبت واحترقت المدينة ، وعندما رجع أمر بنقل اليهود

....

٩ — لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث ، الجزء الاول ، الفصل الاول — الدكتور علي الوردي ، مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٩ .

١٠ — تاريخ اوربا الحديثة — الفصل الرابع — الاستاذ محمد قاسم والدكتور حسين حسن الطبعة الاولى ١٩٣٤ .

الذين كانوا بلا مأوى الى الآستانة ، وفي طريقـــه الى (فيينـــا) اعدم احد جنود الاتراك لرعيه جواده في المزروعـــات ، لكنه باع الالمان الذين قاوموه في (بودابست) عبيدا ، ولما اضطر الى رفـع الحصار عن (فيينا) عام ١٥٢٩ أمر بقتل الاسرى البالغين والابقـاء على الصغار فقط وجرى تبادل للاسرى على نطـــاق ضيق ، وفي خلال الانسحاب دمرت الخيالة العثمانية مناطق واسعة وقتلـت آلاف الاسرى ، وفي عام ١٥٤١ استطاع سليمـــان القانوني ان يمنع (فرديناند) من احتلال (بودابست) والحق به خسائر كبيرة ثـم أعدم جميع الاسرى النمسويين (١١) .

ولقد استولى خير الديـن بربروسة في معاركه البحريـــة في الارخبيـــل على ١٢ جزيـــرة يونانيـــة ونهب ١٣ أخـــرى وأسر (١٦٠٠٠) اسير وغنم اموالا كثيرة ولما عاد الى (القرن الذهبـــي) اقام عرضا امام السلطان من مائتي غلام باللباس الاحمر يحملـــون الذهب والفضة ، ومثلهم يحملون على اكتافهم اكيـــاس النقود وآخرين يحملون الاقمشة النفيسة (١٢) . وكـــانت البحريـــة العثمانية تستخدم عددا كبيرا من الاسرى والارقاء ، لكن خير الدين بربروسة قائد الاسطول العثماني في البحر الابيض المتوسط لم يقبل سوى الاتراك في سفنه لاسباب تتعلق بالامن وللتخلص من حرس الرقيق والاسرى وبذلك تتضاعف قوته المقاتلة ولقـــد فتك جنود السلطان مراد الرابع بالحامية الايرانية التي استسلمت في بغداد عام ١٦٣٧ م والبالغة عشرين الفا فلم يبق منهـــا سوى ثلثمائة بالرغم من تكريم السلطان لقائد الحاميـــة الايراني الـــذي اعلن

....

١١ ــ سليمان القانوني ــ الانسحاب ــ هارولد لامب ترجمة شكري محمود نديم مطبعة دار التضامن بغداد ١٩٦١ .

١٢ ــ سليمان القانوني ــ غارة على ايطاليا ــ هارولد لامب ترجمة شكري محمود نديم مطبعة دار التضامن بغداد ١٩٦١ .

استسلامه . ولما انفجر مخزن للبارود في بغداد وذهب ضحيته ثمانمائة من الانكشاريين امر السلطان بالذبح انتقاما فقتلوا ثلاثين الفا من السكان وثلاثمائة زائر ايراني جاؤوا لزيارة الكاظمية كما أمر بقتل الف اسير جيء بهم بين يديه فقطعت رقابهم حالا (١٣) .

ولقد حاول السلاطين تطبيق الشريعة في حروبهم وغزواتهم فكانوا ينذرون عدوهم في بعض الاحيان فيعرضون عليه السلم ثم يهاجم اذا لم يستجب ، لكنهم تنكروا لذلك في احيان اخرى لئلا تنكشف خططهم ويتهيأ العدو لمقاومتهم كما لم يرغموا احدا على اعتناق الاسلام ووقعت حالات كثيرة اسلم فيها النصارى واليهود ليتمتعوا بامتيازات المسلمين واكتفى العثمانيون بأخذ الجزية ومنحوا غير المسلمين حرية تامة في ادارة شؤونهم الخاصة وممارسة شعائرهم الدينية كما تخلوا عن قتل الاسرى في ايامهم الاخيرة وتمت مبادلات للاسرى في حالات كثيرة وعرف السلطان سليمان القانوني بالمحافظة على العهد والتسامح فقد امر باعدام القائد التركي الذي تنكر لشروط استسلام حامية كامسترو في ايطاليا ومنع جيوشه الزاحفة من التخريب والحرق والنهب وعامل حامية رودس بمنتهى العطف والتسامح لكننا نجده يلجأ احيانا الى القسوة فقد أمر باعدام الاسرى الايرانيين في غاليبولي لما علم باتصال طهماسب شاه ايران بملك هنغاريا ليعاونه على العثمانيين (١٤) .

وكانت تجارة الرقيق رائجة تعتمد على الاسرى بالدرجة الاولى وقد استخدم العبيد والغلمان والخصيان والجواري في قصور السلاطين والامراء والحكام ودخل الصبيان المستوردون

---

١٣ — لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث الجزء الاول — الفصل الاول الدكتور علي الوردي — مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٩ .

١٤ — لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث الجزء الاول — الفصل الاول — الدكتور علي الوردي — مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٩ .

من اسواق النخاسة في خدمة الامبراطورية العثمانية وتسلموا مناصب خطيرة فيها وكانت اسواق تفليس وغيرها من موانىء البحر الاسود تتعامل بالاسرى من المستعمرات الروسية والقفقاس والبلقان وكانت علاقة العبيد بالسادة حسنة وقد تزوج بعضهم بنات سادتهم كما انجبت الجواري سلاطين وقادة وامراء وحكام (١٥) .

....

١٥ — سليمان القانوني — القوى المخربة — هارولد لامب ترجمة شكري محمود نديم مطبعة دار التضامن ١٩٦١ .

الفصل الحادي عشر

نهايـــة وبدايـــة

انتهت الحروب الصليبية عـام ١٢٩٠ م وظهـرت الدولة العثمانية واحتل اورخان غاليبولي عام ١٣٥٤ م فتوطـدت اقـدام العثمانيين لاول مرة في اوربا ، وتوسعت الدولة العثمانية فضمت الصرب وبلغاريا وفي فجر ٢٩ ايار عام ١٤٥٣ احتـل العثمانيون القسطنطينية فاستباحوها وباعوا ستين الفا مـن سكانهـا في اسواق الرقيق وانتهت الامبراطورية البيزنطية واتسعت رقعـة الامبراطورية العثمانية ، وتوغـل العثمانيـون في اوربا فاحتلوا بلغراد وبودابست وحاصروا فيينا .

وبدأ عصر النهضة الايطالية في مطلع القرن الرابـع عشر ، كما ظهرت آلة الطباعة حوالي ١٤٤٣ م وفي عام ١٤٩٢ اكتشـف كولومبس امريكا ، ودخلت جيوش المسيحيين غرناطة بعد حصـار طويل فانتهى حكم العرب في اسبانيا ، واكتشفت طـرق بحرية جديدة بين اوربا والشرق وبدأت حركة الاصلاح الديني في اوربا ، وقامت في الهند امبراطورية مغولية اسلامية ، وثبـت البرتغاليون اقدامهم في الخليج العربي ثم في الهند واصبحـوا سادة البحـار الشرقية ، وتوسعت اسبانيا وضمت الى املاكها اراضي واسعة في العالم الجديد ، وبدأ عصر الاستعمار ونمو القوة البحريـة وظهرت على المسرح العالمي اربع قوى كبرى : اسبانيـا وفرنسا واسرة هابسبورج وانكلترا، وفي عام ١٥٨٨ حطم الاسطول الانكليزي

الارمادا الاسبانية وتوطدت سيطرة هولندا وانكلترا على البحار وبلغ التنافس اشده بين هذه القوى الكبرى واحتدم الصراع بينها وخاضت الكثير من الحروب لغرض السيطرة على التجارة واقامة المستعمرات وظهر مصطلح ميزان القوى ثم نشبت حرب الثلاثين عاما التي انتهت بصلح وستفاليا وبذلك انتهى عصر ليبدأ عصر جديد .

فترة طويلة زخرت باحداث جسيمة ، دول زالت واخرى اتسعت ، اكتشفت قارات ومناطق وطرق تجارية ، اساطيل تحطمت وقوى بحرية نمت ، مآسي ومذابح وغارات وحروب .. لقد تغير كل شيء ، لكن الانسان ظل هو هو ، قاسيا جشعا ، فقتل الاسرى ومثل بهم ، وازدهرت تجارة الرقيق ، وتعرضت القارة الافريقية لطوفان من الشقاء والبؤس والالم ، اذ اصبحت مصدرا يمد الاسواق الاوربية والمستعمرات بالرقيق ليعملوا في المزارع والمناجم عن طريق الاقتناص والخطف ، وسادت القرصنة في كثير من البحار واصبحت مصدر ربح وفير .. كانت القسوة والعنف والجشع من سمات هذه الفترة الطويلة ، قسوة في القوانين ، قسوة في العقاب ، قسوة في معاملة الاسرى ، انتقام رهيب ، غدر وخيانة .. ولا بد لنا ونحن ندخل عهدا جديدا من جولة سريعة في الشرق والغرب في البر والبحر نستقصي فيها اخبار الاسرى ونتعرف احوالهم .

ففي عام ١٣٨١ م وافقت البندقية على عقد الصلح مع جنوه وعاملت الجنويين الذين استسلموا معاملة كريمة وتبادل الطرفان الاسرى ، ولما التجأ بايزيد ابن السلطان سليمان القانوني واتباعه الى ايران خوفا من بطش والده وانتقامه ، اصرّ السلطان سليمان على تسليمه وارسل (٤٠٠٫٠٠٠) قطعة ذهبية الى شاه ايران مع جلاد تركي ، وشتت الايرانيون اتباع بايزيد بحجج واهية ثم اخذت اسلحتهم وذبحوا ، وقبض على بايزيد بينما كان جالسا في

مأدبة مع الشاه ، وسرعان ما اعدمه الجلاد مع جميع اولاده .

وفي عام ١٣٧٦ اتهم البابا اهل فلورنسا بتزعم الثورة عليه ولما عصوا امره اصدر مرسوما اعلن فيه ان جميع الفلورنسيين خارجون على القانون واباح لاي انسان في أي مكان ان يستولي على املاكهم ويتخذهم ارقاء وكان رد فلورنسا قاسيا فظيعا فزجت في السجن رجال الدين وشنقت بعض القساوسة ، وفي خلال ذلك سير البابا الى ايطاليا قوة من الجنود المرتزقة البريطانيين بقيادة مندوبه الكاردنال (روبرت) الذي سرعان ما تنكر للعهد الذي قطعه على نفسه بالعفو على اهالي (كازينا) حيث قتل كل من كان فيها من رجال ونساء واطفال وفي (فائندسا) ذبح قائد المرتزقة اربعة آلاف) من سكانها لارتيابه بهم (١) .

وفي عام ١٩٦٤ صمد الفرسان في مالطة بوجه هجمات العثمانيين ووقع بعض المهاجمين في ايدي الفرسان الذين لم يأخذوا أي اسير بل كانوا يقتلون من يقع في ايديهم .

وفي عام ١٥٧١ طلب الاتراك من مدينة البندقية تسليمها جزيرة قبرص فرفضت الطلب ، فهاجموا الجزيرة واسروا جميع النساء وحملن الى الشرق ليبعن جوار واماء ، اما قائد الحامية فقد قبضوا عليه وقطعوا اذنه وانفه واخيرا علق من يديه وسلخ جلده وهو حي على مهل امعانا في تعذيبه ثم حشى جلده وحمل الى القسطنطينية ، لكن رجلا من انصاره المخلصين سرق هذا الجلد وجاء به الى البندقية (٢) .

وفي البندقية كان السجن في معظم الاحيان بغرف انفرادية

---

١ ــ قصة الحضارة ــ الجزء ١٨ الفصل الثاني ول ديورانت ترجمة محمد بدران ــ مطبعة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٩٥٨ .

٢ ــ تاريخ العالم ــ المجلد الخامس ــ النصل الثامن عشر الناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

ضيقة لا يدخلها الا قدر ضئيل من النور والهواء وكانت العقوبات تتضمن الجلد والكي بالنار وبتر الاعضاء وسمل العينين وقطع اللسان وتهشيم الاطراف ، وكان من المألوف خنق المحكوم عليهم بالاعدام داخل السجن او حرقهم وهم مشدودون على عمود الاحراق او شنقهم في احدى نوافذ القصر ، اما مرتكبو الجرائم الشنيعة او السرقات من الاماكن المقدسة فكانوا يعذبون بملاقط محمية في النار ثم تجرهم الجياد في شوارع المدينة ثم تقطع رؤوسهم وتمزق اشلاؤهم (٣) ، ولقد اعدم آلاف الابرياء بتهمة السحر حرقا او شنقا او بالجلوس على الخوازيق او الخنق بالحبال .

وفي مطلع القرن الخامس عشر اصبحت (البرتغال) وريثة (جنوه) ونصيرة المسيحية وأخذت على عاتقها مهمة الكشف والارتياد وتزعم هذه الحملة الامير هنري الملاح الابن الثالث للملك يوحنا ، ففي عام ١٤١٥ احتل (سبتة) عنوة وجهز حملة لاحتلال (طنجة) لم يكتب لها النجاح ، ثم حشد جميع موارده وقواته لارتياد وكشف ساحل افريقية الغربي تمهيدا للوصول الى الهند واستخدم كثيرا من اسرى المغاربة الذين لهم علم بالجزر النائية ولقد استطاع من اكتشاف جزر (ماديرا) وجزر (ازورس) ، وبعد القيام بأربع عشرة محاولة تمكنت احدى حملاته من عبور (رأس باجادور) في ١٤٣٤ وبدأت حملاته لاقتناص الرقيق تترى على الشاطىء الافريقي ولقد قبض في احدى هذه الحملات على رئيس زنجي يدعى (ادلن) وكان رجلا في غاية الذكاء يجيد التحدث بلغات المغاربة وسبق له أن قام بأسفار عديدة وهو الذي أخبر الامير هنري بنبأ القوافل التي كانت تعبر الصحراء الى السودان ومنه تسير قدما الى البحر الاحمر (٤) .

---

٣ — قصة الحضارة الجزء ١٩ الفصل الثالث ول ديورانت ترجمة محمد بدران القاهرة ١٩٥٩ .

٤ — اسيا والسيطرة الغربية — القسم الاول — عصر التوسع تأليف =

وفي منتصف القرن الخامس عشر بدأ الاوروبيون يلتفتون الى قارة افريقيا ويحاولون كشف الستار عن مجاهلها ومعرفة أمرها وكانت أول هذه الدول البرتغال بحكم موقعها الجغرافي وبراعة سكانها في الملاحة وحبهم للمغامرات فوصلوا في عام ١٤٦٠ الى سيراليون وكان قصدهم الوصول الى الهند للظفر بتجاراتها والحصول على غنائم افريقية وبدأ البرتغاليون يتجرون مع سكان افريقية بتبادل السلع من المعادن والاسلحة والمشروبات والحلى ثم كف البرتغاليون في شرق افريقية وجنوبها عن جمع تراب الذهب من قبائل (البنتو) وشرعوا باقتناص الرقيق وتصدير الآلاف منهم عبيدا الى البرازيل وغيرها من البلاد الخاضعة لهم (٥) ، وهكذا أصبح العبيد في النصف الاول من القرن السادس عشر أهم السلع جميعا وبدأت صفحة من أنصع الصفحات وأشنعها في تاريخ الانسانية وأصبحت القارة الافريقية مسرحا للصيد والقنص ، وتعرضت لالوان من الشقاء والبؤس وارتكبت آلاف الفظائع والموبقات التي يندى لها جبين الانسانية (٦) .

والحقيقة فان الرق قد ازدهرت تجارته في بداية القرن الرابع عشر وكان منتشرا في الامبراطورية العثمانية وصقلية وشمال افريقيا وكان الارقاء يخدمون في القصور والبيوت وفي الحقول احيانا وكان تجار البندقية وجنوه يستوردونهم من بلاد البلقان وجنوب روسيا وبلاد المسلمين ، ولقد اشتهر العبيد والاماء المغاربة الذين كانوا يعتبرون زينة لبلاط الملوك والامراء في ايطاليا ، وقد تلقى البابا (اينوقنتيوس الثامن) عام١٤٨٨ م مائة رقيق مغربي هدية

....

= ك. م. باتيكار — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .

٥ — تاريخ العالم — المجلد السادس — الفصل ١٣٣ الناشر جون أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

٦ — محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك ص ١٣٦ — محمد حسن عواد — مطبوعات الشعب القاهرة ١٩٧٦ .

من فرديناند الكاثوليكي فاهداهم بدوره الى كرادلته واصدقائه ، وبيعت كثير من نساء (كابو) جواري في روما بعد الاستيلاء عليها عام ١٥٠١ .

وكانت تفليس سوقا رئيسيا للنخاسة يمد الامبراطورية العثمانية بالصبيان والجواري والاماء ، وكانت الجواري يعملن مرضعات وخليلات وكان للدوج (بيترومدتشيخو) وهو في سن السبعين جاريتان تركيتان يستمتع بهما ، كما دخلت الجواري بيوت رجال الدين المسيحيين .

كما كان رقيق الارض منتشرا في الهند والصين وأوربا حيث كان لدى السادة ملاك الارض مئات العبيد يعملون في حقولهم ومزارعهم ، ثم بدأ يزول في السويد والنروج وسويسرا ونال الفلاحون حريتهم في الدانمرك وبروسيا وسيليزيا وبوميرانيا ثم اعيد رق الارض في القرن الخامس عشر على يد الحكام العسكريين ، وقام البارونات والفرسان التيتون في أراضي البلطيق باسترقاق اهل البلاد التي غزوها ، ولما نقصت الايدي العاملة بسبب الطاعون والحروب البولندية عام ١٤٠٩ استرقوا جميع المتسكعين في الطرق والمدن وعقدت المعاهدات مع الحكومات المجاورة بشأن تسليم الهاربين من رقيق الارض (٧) .

وفي عام ١٥٧١ م تحطم الاسطول التركي في معركة (ليبانتو) وانكمشت التجارة البحرية الاسلامية ، وقد اخذ المغاربة ، وقد عزلوا ومنعوا من الاتجار والاتصال بأوربا ، يقومون بأعمال القراصنة ، وكانوا يهاجمون كل سفينة مسيحية فينهبون بضائعها ويأسرون بحارتها ثم يباعون رقيقا او يفتديهم اهلهم بالمال ، وظلت الموانىء الافريقية والبرابرة مصدر خطر عظيم على السفن والتجارة البحرية طوال ثلاثة قرون بسبب منعهم من الاتجار حيث لم يبق

....

٧ — قصة الحضارة الجزء ٢٢ الفصل السابع ول ديورانت ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس القاهرة ١٩٦٨ .

لديهم اي عمل سوى القرصنة (٨) .

واستمر البرتغاليون على توغلهم في المحيط الهندي وشرع (فاسكو دي جاما) يطبق بالقوة ادعاء ملكه انه (سيد الملاحة ومولاها) فكان يقطع الطريق دون اي تحذير على السفن التي يلتقي بها ويدمرها ، فنشر الارهاب والقرصنة في المياه الهندية ومن سوء الصدف ان التقت العمارة البرتغالية ببعض السفن غير المسلحة العائدة من مكة المكرمة فألقى القبض عليها وعمد الى تفريغها مما تحمله من البضائع ومنع أي فرد من اخراج أي عربي منها ثم امر باشعال النيران فيها .

ولما تم للبرتغاليين احتلال (جوا) في الهند ابلغ (البوكرك) قائد الحملة مولاه الملك انه عرض على السيف كل عربي بمدينة (جوا) مردفا بذلك قوله : « حيث امكنه العثور على اعرابي كان افلاته من يده من المحال وانه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النيران » .

وعرف (البوكرك) بشدة تعصبه للمسيحية وكراهيته للعرب والمسلمين . ففي خطبة القاها على رجاله قال : « الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وباطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب » . ولقد فشل هجومه الاول على (ملقا) بسبب شجاعة السلطان واستبسال المدافعين ، لكن المدينة لم تلبث ان سقطت بعد قتال عنيف اثر انسحاب حاكم الملايو وجيشه ، وبيع المسلمون الذين نجوا من السيف بيع الرقيق ، بينما ابقى الفاتحون على نزلائها الصينيين والهنود والبرميين ، فنهبت المدينة وبلغ النصيب المرسل الى الملك وحده مائتي ألف (كروسادو) من الذهب(٩) .

....

٨ ــ تاريخ العالم ــ المجلد السادس ــ الفصل ١٣٣ ــ الناشر جون. أ. هامرتن ترجمة وزارة التربية والتعليم المصرية .

٩ ــ آسيا والسيطرة الغربية ــ القسم الاول ــ عصر التوسع تأليف ك.م. بانيكار ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .

الفصل الثاني عشر

امريكا قبل اكتشافها

حين بدأ الاستعمار الاوروبي لامريكا اثر اكتشافها كان يسكنها شعبان ينعمان بحضارة مزدهـــرة : شعب (الازتك) في المكسيك وأمريكا الوسطى وشعب (الانكا) في (بيرو) بما فيها (بوليفيا) ومعظم (الاكوادور) وكان يفصل بين هذين الشعبين اقليم مترامي الاطراف تسكنه قبائل بدائية(١) .

ويرى المؤرخون أن دولة (الانكا) هي السابقة كمــا انهــم يستبعدون نشوء الانسان في القارة الامريكية ويرجحون أنهم قــد وفدوا عليها من الشرق والغرب . بدأ الانسان في هذه القارة يجمع الاقوات ثم تحول الى الصيد والرعي وانتهى بالزراعة أمــا سكان (بيرو) و (بوليفيا) فقــد اعتمــدوا على الرعي حيث كانت تربى قطعان اللاما والالباكا من أجل أصوافها وكانت اللاما أيضا تستخدم في حمــل الاثقال . وكان الاسكيمو وسكان السهول المتوسطــة يستخدمون الكلاب في الجر(٢) .

....

١ — تاريخ العالم — المجلد الخامس — نشره جون .أ. هامرتن — اشرفت على ترجمته وزارة التعليم العالي المصرية ص ٨٧ .

٢ — تاريخ العالم — المجلد الرابع — نشره جون .أ. هامرتن — اشرفت على ترجمته وزارة التربية والتعليم المصرية ص ٦٥٠ .

سكنت قبائل الاسكيمو شواطىء المحيط المتجمد الشمالي الممتد من (جرينلند) الى (الاسكا) أما في جنوب بلاد الاسكيمو فكانت تعيش قبائل هندية ـ سميت خطأ بالهنود الحمر ـ تعتمد على الرعي والصيد كما سكن الهنود الساحل الغربي أيضا . وكانت الزراعة تمارس في أمريكا الشمالية في المنطقة التي تؤلف الجزء الجنوبي من الولايات المتحدة من قبل هنود (اليوبلو) أما في الجنوب في اقليم (كولومبيا) و (فريزر) و (كاليفورنيا) فكانت تسكن عدة قبائل هندية اعتمدت على الصيد وما تمدهم به الطبيعة من غلات نباتية ، كالتوت البري وثمار شجر البلوط والنقل(٣) .

ومع أن الهنود كانوا يسكنون منطقة واسعة لكن عددهم عند اكتشاف أمريكا لم يتجاوز ثلثمائة ألف نسمة ولعل قلة نفوسهم ترجع الى طبيعة حياتهم المعتمدة على القتال والفروسية والصيد . كانت المعارك مستمرة والحرب الاهلية قائمة على قدم وساق. فالهنود لا يملون الصراع ويجدون لذة ومتعة في خوض المعارك ومع ذلك فقد وجدت عشائر قليلة جنحت للسلم وكرهت الحرب وعزفت عن القتال .

كانت الحرب في نظر الهنود اجراء مشروعا يقره العرف والدين وهي ليست الا ضربا من ضروب الصيد والقنص ومن حق كل انسان أن يطلب الصيد لسد حاجاته أو اشباع هواياته . لقد استحوذت عليهم نزعة الحرب ولا يجدون سعادتهم الا في ميادين القتال(٤) . كانت الاسباب المباشرة للحرب كثيرة مختلفة ، لكن معظمها كان تافها وكانوا يشنون الحرب أحيانا بقصد السلب والنهب وبخاصة الاستيلاء على الخيول المطهمة التي كانت في

---

٣ ـ تاريخ العالم ـ المجلد الرابع ـ نشره جون أ. هامرتن اشرفت على ترجمته وزارة التربية والتعليم المصرية ص ٦٥٠ .

٤ ـ الهنود الحمر ـ الدكتور علي عبد الواحد وافي ـ سلسلة اقرأ ـ ص ١٠٦ .

نظرهم أنفس الغنائم وأغلاها قيمة . وكانت بعض العشائر تستنكف عن مزاولة أية مهنة وتتخذ الحرب هواية وحرفة .

كانت القاعدة الغالبة عند معظم عشائر الهنود الحمر معاملة أسرى الحرب معاملة انسانية بعيدة عن القسوة باستثناء عشائر الاباشي اذ كانت تقطع أصابع الاسرى وهم أحياء لتتخذ منها أساور وقلائد يتحلى بها الرجال لتكون دليلا على شجاعتهم وكثرة أسراهم وكانوا يعهدون الى نسائهم بتعذيب الاسرى وكن يؤدينه بعنف وقسوة كما لجأن الى التمثيل بأجسامهم .

أما الاسير فكان يتحمل الاذى والتعذيب بصبر وجلد وهيهات أن يطلب الرحمة من آسريه ، ان تقاليد الهنود أوجبت ترفعهم عن الظهور بمظهر الذل والاستكانة وعلى الهندي أن يتحمل شتىأنواع العذاب والاستخفاف بآلام الجسم . فقد كان الاسير يشد وثاقه الى عمود وتصب عليه أسواط العذاب والاذى ومع ذلك يظل يردد أغنيات حماسية تصف اقدامه وشجاعته ، ويستخف بآسريه ويوجه اليهم الشتائم والاهانات . لم يكن الباعث اذن على تعذيب الاسير مجرد الرغبة في التعذيب وانما كان نابعا من شدة حرص الظافر على اعتراف المقهور بالخسارة وشدة عناد المقهور وتحديه واصراره على انكار الهزيمة .

اشتهر الهنود بعادة غريبة في التمثيل بالاسرى وهي انتزاع دائرة من جلد رأس الاسير حيث يغزر الشعر ، فيفصلون محيطها بمشرط عن بقية جلد الرأس ثم يمسكون بخصلة شعرها ويجذبونها بقوة فتنفصل مع جلدها عن الرأس . وكان يكتفى أحيانا بانتزاع خصلة الشعر وحدها اذا تعذر انتزاع الجلد أو لم يتسع الوقت وكان هذا يتبع مع الاعداء أي من غير أفراد العشيرة وتجرى هذه العملية في الغالب بعد موت العدو ، وكانت العشيرة تعني بجمع ما تنتزعه من رؤوس أعدائها وتتخذ منه مادة للتفاخر ، لذلك نجدهم يحرصون على اظهارها وعرضها ، فيحملونها بأيديهم كالمذبات

ويعلقونها في أعنة خيولهم وفي أسلحتهم ويزينون بها خيامهم(٥) الا أن تقاليد الهنود منعت قتل الاطفال والنساء .

لقد نشأت حضارة المايا الاول في وادي المكسيك ثم خلفهم الطلتيك الذين وفدوا على الوادي مهاجرين من الشمال ، واستمر تدفق القبائل وتمكنت من تحطيم امبراطورية الطلتيك وتدل مخطوطات الازتك أنهم في البداية كانوا بدوا رحلا يرتدون جلود الحيوان ويمارسون الزراعة بشكل غير منتظم ثم استقلوا ، وأخيرا فرضوا سيادتهم على الوادي لاستخدامهم القوس سلاحا بينما كان اعداؤهم مسلحين بسيوف من خشب حدها من الحجر ، واستطاع الازتك بما وهبوا من عبقرية في التنظيم السياسي تأليف امبراطورية غير متماسكة ضمت جميع قبائل الوادي فضلا عن الاقاليم التي تبعد عنها بمسافات طويلة ويعتبر (اتيز كواتل) رابع ملوك الازتك من اقدر زعمائهم اذ كان واسع الحيلة بعيد النظر فلقد انتصر عام ١٤٣٠ م على اعدائه لكنه استطاع وهو في نشوة الظفر من استرضاء خصومه وحلفائه وعقد معاهدة دفاعية هجومية تضمنت تقسيم الاسلاب واناطة شؤون الحرب في ايدي حاكم المكسيك وحده ، واستطاع من انشاء اتحاد تحت زعامته وبلغت قوة الازتك اوجها عند تولي (موتكيوزوما) الثاني الحكم سنة ١٥٠٢ م الذي كان محاربا وقسيسا فاستطاع من بسط سلطانه على مناطق جديدة واتخذ لنفسه مركزا شبه الهي ومكنته الجزية الضخمة التي انهالت عليه من تزيين عاصمة ملكه واضافة الكثير من المباني اليها .

كان الازتك يعبدون آلهة متعددة اما شهورهم فقد بلغت ثمانية عشر شهرا حسب تقويمهم الشمسي وكانوا يبدأون كل شهر

....

٥ — الهنود الحمر — الدكتور علي عبد الواحد وافي — سلسلة اقرأ ، ص ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ .

بعيد خاص حيث يجري الاحتفال لتكريم اله هذا الشهر مصحوبا بالضحايا والقرابين المنصوص عليها اذ تربط الضحية من البشر ثم يقوم كاهن متقنع بقناع مخيف برميها بحربة او رمح قصير من جهاز خاص ثم ينتزع القلب من تجويف الصدر بعد شقه بسكين من الزجاج البركاني . وكانت تقدم في العيد العظيم الذي يقام احتفالا بالاله (اكسيب) ضحايا من اسرى الحرب . وكانت قلوبهم تنتزع على حجر التضحية ثم تسلخ جلودهم ليرتديها آسروهم طيلة انعقاد الحفل فاذا انتهى العيد الذي يستمر عدة ايام ، خلع لابسو الجلود جلودهم جماعة في وقت واحد وطمروها في حفرة بظاهر المدينة (٦) .

....

٦ ــ تاريخ العالم ــ المجلد السادس الناشر جون .أ. هامرتن ترجمة وزارة التعليم العالي المصرية الفصل ١٣٢ .

الباب الثالث

العصور الحديثة

الفصل الاول

القانون الدولي

ازدهار القانون الدولي

انفسح المجال في العصور الحديثة امام القانون الدولي فذاعت مبادئه ورسخت قواعده وتأكدت للعالم اهمية وجوده واتسع نطاقه ولم يعد مقتصرا على الدول المسيحية حيث قبلت تركية الاسلامية في عضوية الاسرة الدولية بمقتضى المادة السابعة من معاهدة صلح باريس المنعقدة في عام ١٨٦٥ ثم قبلت اليابان وبذلك تحرر نطاق القانون الدولي من رابطة الدين والقارة الاوربية ودخل كثير من الدول عقب الحرب العالمية الاولى في عضوية الاسرة الدولية كالصين وايران وسيام والحبشة وغيرها . وتمكنت دول اخرى من التخلص من ربقة الاستعمار فانضمت الى الاسرة الدولية أيضا . وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية ، شاركت جميع الدول الاسلامية والعربية والاسيوية والافريقية — والتي كانت في حالة حرب مع دول المحور — في وضع ميثاق الامم المتحدة وهكذا خطا القانون الدولي خطوات رائعة وتحرر من الكثير من عيوب الاقليمية والطائفية وسرعان ما انتابته عيوب جديدة فكثير من احكامه لا ينسجم مع الروح التحررية ولم يعد يلبي حاجة المجتمع الدولي وانقسم العالم وتكتل وظهر التمييز واضحا بين مختلف الدول بسبب أديانها وأجناسها وألوانها . ومع ذلك ما زال القانون الدولي في تطور مستمر ولا بد ان تنتصر في النهاية ارادة

الخير وترفرف راية الحرية والمساواة (١) .

قانون الحرب

لم تكن الحرب في البداية تخضع لقواعد معينة تلتزم بها الدول او تسير على مقتضاها بل كان قانون الغاب هو السائد وكانت الحرب فوضى وقتلا مشوبة بالقسوة والهمجية والعنف ، ثم اثر الدين والفروسية فخفت القسوة ووجدت الرحمة مكانا في قلوب القواد والجنود كما ساعد ظهور الجنود النظاميين على تنظيم الحروب ووضع التعاليم والقواعد العسكرية (٢) .

وكانت أغلب قواعد قانون الحرب عرفية استخلصت مما جرت عليه عادة الدول في حروبها وقد عقدت في خلال القرن السابع عشر والثامن عشر معاهدات ثنائية عسكرية وتجارية ، تناولت العسكرية تنظيم اتفاقات التسليم وتبادل الاسرى ومعاملة الجرحى والمرضى وسكان الاقاليم غير المحتلة وقد قامت بعض الدول بمحاولات لتجميع قواعد الحرب ووضعها في صيغة مكتوبة كالاعلانين اللذين اصدرتهما الحكومة الفرنسية عام ١٧٩٢ و ١٧٩٣ بخصوص اسرى الحرب وكذلك القواعد التي اصدرتها الحكومتان الانجليزية والفرنسية أثناء حرب القرم ومجموعة القواعد التي وضعتها الحكومة الامريكية اثناء حرب الانفصال (٣) .

ولم تكتف الدول ببقاء بعض قواعدها عرفية بل نصت عليها فيما ابرمته من معاهدات ثنائية وشارعة . والفرق بين الثنائية أو الخاصة والشارعة ، ان الثنائية تكون خاصة بالحرب المبرمة

....

١ — القانون الدولي العام في وقت السلم — الفصل الاول — الدكتور حامد سلطان يناير ١٩٦٢ .

٢ — القانون الدولي العام — الكتاب الثالث — الدكتور محمود سامي حنينة الطبعة الثانية ١٩٣٨ .

٣ — قانون الحرب — المبحث الثالث — الاساتذة : عبد العزيز علي ، عبد الفتاح عبد العزيز ، حسين درويش — مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٢ .

من أجلها بعكس المعاهدة الشارعة فانها تنظم قواعد خاصة بالحروب بصفة عامة دون النظر الى حرب معينة كما أن عدد الدول الموقعة على المعاهدة الشارعة قد يتجاوز الاربعين دولة .

وتعتبر معاهدة جنيف عام ١٨٦٤ والتي عدلت نصوصها سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩٢٩ من أهم المعاهدات الشارعة فقد نظمت معاملة جرحى الحرب البرية وأسرى الحرب وقد وضعت مبادئها موضع التطبيق في الحرب البحرية في اتفاقية لاهاي سنة ١٨٩٩ و ١٩٠٧ .

ولا شك أن القواعد العرفية ملزمة لجميع الدول أما القواعد الموضوعة في معاهدة ما فلا تلزم الا الدول الموقعة عليها .

أسرى الحرب :

كانت معاملة اسرى الحرب في العصور الماضية في غاية القسوة والفظاعة ، فكان الاسير يقتل فورا ثم تطورت المعاملة فأصبح عبدا يباع ويشترى واستخدم في أشق الاعمال وأصعبها وبقي الاسترقاق الذي حل محل القتل جاثما على صدر الانسانية آلاف السنين ثم زال الرق بفضل تعاليم الاديان وكتابات رجال القانون وظهر نظام المفاداة ومبادلة الاسرى . وأصبح من المألوف تبادل الاسرى خلال القرن السابع عشر وكان يتم أثناء الحرب اتفاق الدولتين المتحاربتين ، اما الاسير الذي لم يدفع الفدية او لم يتم له التبادل أثناء الحرب فيبقى في الاسر حتى تنتهي الحرب ولا يطلق سراحه الا بالتبادل أو دفع الفدية هذا وقد حدثت مفاداة ومبادلة للاسرى في القرون الوسطى بين العباسيين والبيزنطيين وبين الحمدانيين والبيزنطيين لكنها حالات قليلة وظل الاسترقاق هو الاصل .

وما دام الاسير في دولة عدوة فهو مجرم ولا بد أن يعامل بقسوة وفظاظة فيسجن أو يوضع في أماكن غير صحية ثم تطورت المعاملة وتحسنت في أواخر القرن الثامن عشر وعقدت أول معاهدة صداقة

بين بروسيا والولايات المتحدة عـــام 1785 نظمـــت احـــوال الاسرى وفرضت عـــلى الدولتين واجـــب معاملـــة الاسرى معـــاملة لائقـــة ومنعت حبس الاسرى في السجـــن أو وضـــع القيود في أيديهم واشترطت اعتقالهم في أماكن صحية وأن يمنحـــوا فرصة للتريض ويطعموا طعام الجنود .

وقد بينت معاهدة عام ١٨٧٠ بين فرنسا وانجلترا نظام الفدية وأصبحت الدول المتحاربة هي التي تدفعها لا الاسير وكان الـــذي يأخذ الفدية دولة العدو لا الجندي الآسر أو الوحدة التي أسرتـــه كما عنيت الدول المجتمعة في بروكسل عام ١٨٧٤ بأمر أسرى الحرب ووضعت نصوصا تنظم أحوالهم ضمن قرارات المؤتمر التي لـــم تنفـــذ .

وفي مؤتمر لاهاي عام ١٨٩٩ نظمت حالة الاسرى ، لكن وقائع الحرب العالمية الاولى أثبتت عدم كفايـــة المؤتمرات والاتفاقيـــات والمعاهدات لحماية الاسرى فاجتمعت الدول في جنيف عـــام ١٩٢٩ لتعديل اتفاقية الصليب الاحمر ووضعت نظاما كاملا لاسرى الحرب يلزم جميع الدول سواء وقعت أم لم توقع ثم جاءت بعد ذلك اتفاقيـــة لاهاي سنة ١٩٣٢ وأدخلت كثيرا من التعديل (٤). ولما نشبت الحرب العالمية الثانية وأصاب المدن والسكان الكثير من الاذى والقتـــل والتدمير بدت الحاجة الى اعادة النظر في الاتفاقيات السابقة فدعا مجلس الاتحاد السويسري الى عقد مؤتمر للنظر في :

١ ـــ اتفاقية جنيف لسنة ١٩٢٩ الخاصة بتحسين حال الجرحى والمرضى بالقوات المسلحة في الميدان .

٢ ـــ اتفاقية لاهاي العاشرة المؤرخة ١٨ ايلول ١٩٠٧ الخاصة بتطبيق اتفاقية جنيف عام ١٩٠٦ على الحرب البحرية .

....

٤ ـــ قانون الحرب ـــ المبحث الرابع ـــ الاساتذة : عبد العزيز علي ، عبد الفتاح عبد العزيز ، حسين درويش ـــ مطبعة الانجلو المصرية ١٩٥٢ .

٣ ـ اتفاقية جنيف عام ١٩٢٩ والخاصة بمعاملة أسرى الحرب .

ولوضع :

٤ ـ اتفاقية خاصة بحماية الاشخاص المدنيين وقت الحرب .

ولقد انعقد المؤتمر في جنيف من ٢١ نيسان الى ١٢ اب عام ١٩٤٩ وتباحث في مشروعات الاتفاقيات الاربع ، التي بحثها وأقرها المؤتمر الدولي السابع عشر للصليب الاحمر الذي عقد في استوكهلم وقد أقر المؤتمر نصوص الاتفاقيات الاربع آنفة الذكر(٥).

....

٥ ـ اتفاقية جنيف لحماية ضحايا الحرب الموقعة في ١٢ اب ١٩٤٩ ص ٢. ترجمة وزارة الدفاع العراقية .

الفصل الثاني

حــــرب العـــــراق

نشبت الحرب العالميــة الاولــى في عــام ١٩١٤ عقب مقتــل الارشيدوق (فرانسوا فرديناند) وزوجه في (سراجيفـــو) وكان العراق جزءا من الامبراطورية العثمانية وكانت بريطانيا تطمع في احتلاله لموقعه السوقي ونفطه وثرواته الاخرى وقد سبق أن توفرت لديها دراسات عن امكانات البلاد وثرواتهــا . وفي ٣٠ تموز ١٩١٤ أعلنت تركيا النفير العام وبدأ رجال البعثات الالمانية في تركيا يبذلون أقصى جهودهم لادخال تركيــا الحرب بجانب المانيــا وكان وزير الحربية أنور باشا ووزير الداخلية طلعت باشا يميلان لالمانيا بينما كان الصدر الاعظم وبقية الوزراء يفضلون ابقاء تركيا على الحياد، أما جمال باشا وزير البحرية فلم يستقر على رأي ، وتوالت الاحداث بسرعة في شهر اب واتضحت سيطرة الفريق الموالي للالمان على شؤون تركيا ولجأت السفينتان الحربيتـــان الالمانيتان (غـــوبن) و (برسلاو) الى المضائق التركية . فأعلنت تركيا ضمهما لاسطولها مكتفية بتغيير اسميهما وبقي فيهما بحارتهما الالمان ، وترك رجـــال البعثة الالمانية مهمة التفتيش وأصبحوا قادة الجيش ومستشاريـــه وأخذت البعثات الالمانية العسكرية والفنية تترى سرا الى تركيـــا ونشطت الدعاية ضد دول الائتلاف وارسل الوكـلاء والجواسيس الى الافغان والهند وبلوجستان ومصر للحث على الثورة وترغيـــب

المسلمين في الجهاد ، وأعلنت في العراق الاحكام العرفيــة ودعي جنود الاحتياط وفرضت بعض التكاليف الحربية على التجار وكدست الارزاق والتجهيزات وأرسلت بعض القوات الى البصرة وكلف والي بغداد والبصرة بحث العشائر وترغيبها للاشتراك في الحرب بجانب الجيش وجرى الاتصال سرا بين أنور باشا وابن سعود لمساعــدة أمير نجد في حالة الحرب وكانت الحكومة البريطانية مطلعة على ما يجري في تركيا وبالرغم من توقعها قيام الحرب معها واتخاذهـــا جميع التدابير التي تضمن حماية مصالحها في الخليج العربي فانها ظلت دائبة السعي لابقاء تركيا على الحياد خوفا من العالم الاسلامي الذي سيلتف حولها عند دخولها الحرب .

وفي ٢٩ تشرين أول هاجم الاسطول التركي بعد أن انضمت اليه البـــاخرتان الحربيتـــان الالمانيتـــان (غوبن) و (وبرسلاو) السفن الروسية في البحر الاسود وفي ٣٠ تشرين أول غادر سفراء بريطانية وفرنسا وروسيا الاستانة وفي ٢ تشرين الثاني أعلنت روسيا الحرب على تركيا وتلتها في ٥ تشرين الثاني انكلترا وفرنسا وابتدأ القتال في القفقاس والعراق وكانت قد أبحرت من الهند في ١٦ تشرين الاول قــوة بريطانية رمز اليها بالحرف (D) تتألف مــن اللواء السادس عشر المختلط بقيادة العميد (ديلاني) وكانت الاوامر الصادرة اليه تنص على احتلال (عبادان) للاسباب التالية :

١ ــ حماية مصافي النفط ومستودعاته وأنابيبه .
٢ ــ تغطية انزال النجدات .
٣ ــ تطمين الشيوخ العرب (١) .

وكانت القيادة العليا البريطانية تعتقد بكفاية القوة ، أما اذا دعا الموقف الى احتلال البصرة فلا بد من جلب بقية الفرقة السادسة

....

١ ــ ص ٢٢ حرب العراق ــ العميد طه الهاشمي ــ مطبعة النجاح ــ بغداد ١٩٣٦ .

من الهند .

وصلت القوة البحرين في ٢٣ تشرين الاول ثم غادرتها في ٢٩ منه متجهة الى العراق وكانت عند (حاجز الطمي) في فم الخليج يوم ٥ تشرين الثاني عند اعلان الحرب على تركيا فنزل قسم منها الى الفاو فاحتلها بسهولة تسانده نيران الباخرة الحربية البريطانية (أودن) وترك العميد ديلاني حامية صغيرة في الفاو وواصل تقدمه في شط العرب فاحتل (السنية) (٢) وبدأت النجدات تصل الى القوات البريطانية التي استمرت في زحفها فاحتلت البصرة وكانت معركة الشعيبة وفشل الاتراك فيها فكانت نقطة تحول في حرب العراق حيث فقدوا أملهم نهائيا في استرجاع البصرة وتوالت انسحاباتهم وتبددت مخاوف الشيوخ الموالين لبريطانيا وتم احتلال القرنة والعمارة والناصرية وتوالت التعزيزات البريطانية واشتدت مقاومة الاتراك وخاض الطرفان معارك ضارية في الكوت وسلمان باك ثم اضطر الانكليز الى الانسحاب وقبول الحصار في الكوت وفشلت معارك الانقاذ في فك الحصار وأخيرا استسلم الجنرال (طاوزند) وأعاد البريطانيون تنظيم قواتهم وقاعدتهم وحسنوا خطوط مواصلاتهم وتوالت التعزيزات فزحفوا من جديد فأعادوا احتلال الكوت ثم استولوا على بغداد . وبعد أن رسخوا مواقعهم فيها واصلوا تقدمهم غربا وشرقا وشمالا وتراجع الاتراك في كل مكان وفي ١ تشرين الثاني من عام ١٩١٨ وعلى مسافة اثني عشر ميلا جنوب الموصل توقف القتال ورفعت الاعلام البيضاء تنفيذا لعقد الهدنة الذي وقع في اليوم السابق وقد بلغت القوات البريطانية في العراق حوالي (٤٢٠،٠٠٠) وكانت قد بدأت بلواء هندي مختلط واحد .

كانت معاملة الاسرى في هذه الحرب سيئة وكان الاجهاز على

....

٣ — ص ٦٩ بلاد ما بين النهرين بين ولاءين ، الجزء الاول ولسن — ترجمة جميل ، الجزءالاول — الطبعة الاولى ١٩٦٩ .

الجرحى مألوفا وأخرجت بعض الجثث حديثة الدفن طمعا في ثيابها ويعود ذلــك الى التعصب الديني وضعف السيطــرة واشتراك العشائر مع الجيوش المحاربة التي كثيرا ما تلجأ الى النهب والسلب والقتــل .

ففي ٢ مارس عام ١٩١٥ جرت معركة في منطقة الاهواز بين القوات البريطانية والتركية تؤازرها قوة كبيرة من العشائر بقيادة الشيخ غضبان وكانت خسائر البريطانيين ٦٢ قتيلا و ١٢٧ جريحا ، ولقد أجهزت العشائر على كل جريح بريطاني وقع في أيديهم ، فجزوا رأسه حالا طمعا في الجائزة وكانت بضع ليرات ذهبية خصصهــا غضبان لكل من يأتي برأس بريطاني أو هندي(٣) . وفي ٢٩ نيسان ١٩١٦ سلم الجنرال (طاوزند) بعد أن يئس من فك الحصار وفشلت جميع معارك الانقاذ وتفشي الجوع والمرض في صفــوف قواته واحتل الاتراك الكوت وفقــد الانضبــاط وسادت الفوضى والارتباك وقام الجنود الاتراك والعرب بسلب المأسورين من ضباط وجنود ومرضى وجرحى وسرق طعام المحاصرين وانتزعت احذيتهم وأغطيتهم قسرا وكانت أية مقاومة يبديها الاسير تقابل بعنف وشدة، كما عذب بقسوة كل السكان الذين تعاونوا مع البريطانيين ، ولقد أنذر الجنرال طاوزند (خليــل باشا) بأن الجنود منهوكو القــوى لا يستطيعون السير فوعد خطيا بأنه سيعتني بهم وانهم سينقلون بالبواخر الى بغداد ومنها بالعربات ، لكن الاطباء الاتراك سمحوا بسير الجنود الاسرى الى بغداد بالرغم من تردي حالتهم الصحيــة وضعفهم واصابة بعضهم بجــروح وكسور وكان عــدد الاسرى (١٤،٠٠٠) مات منهم أكثر من (٤٠٠٠) في الكوت نفسهــا وفي

....

٢ ــ ص ٣٦ ، بلاد ما بين النهرين بين ولاءين ــ ولسن ــ ترجمــة فــؤاد جميل ــ الطبعة الاولى ١٩٦٩ .

الطريق الى بغداد (٤) .

وكانت رحلة طويلة وشاقة فوصل الاسرى (شمران) ومكثوا فيها بضعة أيام ومات في شمران أكثر من ثلثمائة بسبب أمراض المعدة والامعاء ولم يدفن منهم الا القليل ورميت جثث الباقين في واد قريب وكان طعام الاسرى رديئا وقليلا وباع كثير من الجنود أحذيتهم وملابسهم الى الاعراب لقاء حفنات من تمر وخبز أسود .

وكان في مستشفى الكوت ١٤٥٠ من الجرحى ولقد جرى تبادل ١١٣٠ منهم لسوء حالتهم الصحية ونقلوا بالسفن .

وفي ٦ مايو غادر الجنود (شمران) يحملون على ظهورهم حقائبهم وأمتعتهم الشخصية فوصلوا (النعمانية) ثم (العزيزية) فبغداد ، وأخذت أفواج الاسرى تغادر بغداد بالقطار الى (سامراء) خلال شهري حزيران وتموز ، ومن بعد (سامراء) مضى الاسرى سيرا على الاقدام وأخيرا عبروا جبال (أمانوس) في تركيا لينضموا الى العمال في شق الانفاق القليلة المتبقية كي تتصل سكة حديد بغداد بالاستانة عبر سورية وكانت رحلة طويلة شاقة هلك فيها عدد غير قليل من الاسرى بسبب الجوع والمرض والاعياء .

....

٤ ــ ص ١٨٧ بلاد ما بين النهرين بين ولائين ، الجزء الاول ولسن ــ ترجمة فؤاد جميل الطبعة الاولى ١٩٦٩ .

الفصـــل الثالث

أتفاقية جنيف سنة ١٩٢٩

اجتمعت في جنيف عام ١٩٢٩ دول كثيرة شعورا منها بالواجب الانساني ورغبة في تخفيف ويلات الحرب وآلام جرحى الحرب ونشر المبادىء الباعثة على اتفاقات لاهاي ولا سيما الاتفـــاق المتعـــلق بقوانين الحرب وعاداتها والانظمة المذيل بها ذلك الاتفاق ووقعت في ٢٧ تموز عام ١٩٢٩ اتفاقية أسرى الحرب .

ولقد تناولت هذه الاتفاقية شؤون الاسرى بالتفصيل ونصت على كثير من المواد التي تكفل حمايتهم ورعايتهم ومعاملتهـــم معاملـــة لائقة كريمة وحددت المشمولين بهذه الاتفاقية وواجبـــات الدولـــة المعادية نحو الاسير وواجب الاسير نفسه ونقل الاسرى وتشغيلهم واعتقالهم وأطعامهم وشكاواهم ومرتباتهم وتعويضاتهم واجراءاتهم وغير ذلك مما سنفعله أدناه :

أ ـــ نطـــاق الاتفاقيـــة :

يعتبر أسير حرب كل شخص يقع في يد العدو بسبب عسكري لا بسبب جريمة ارتكبها ويشمل :

١ ـــ القوات النظامية البرية والبحرية والجوية .

٢ ـــ أفراد الميليشيا المتطوعين شريطة أن يقودهـــم شخص مسؤول وأن يكون لهم شارة خاصة تميزهم وأن يحملوا الســـلاح

علنا وأن يراعوا في حركاتهم العسكرية قوانين الحرب وعاداتها .

٣ ــ سكان القطر اذا تسلحوا مختارين لمقاومة الجيوش التي تهاجم اقليمهم غير المحتل ولم يتسع لهم الوقت لتنظيم أنفسهم كما جاء في (٢) أعلاه فيعتبرون في عداد المحاربين متى حملوا السلاح علنا واحترموا قوانين الحرب وعاداتها .

٤ ــ القوات المسلحة للدولة وان لم يكونوا من المقاتلين ولقد أشارت اليها لائحة الحرب البرية في مادتها الثالثة اذ نصت على أن قوات الدولة تتكون من مقاتلين وغير مقاتلين وان لهؤلاء جميعا الحق في حالة أسرهم أن يعاملوا معاملة أسرى الحرب .

٥ ــ رئيس دولة العدو ووزرائها وذلك اذا قبض العدو عليهم في ميدان القتال .

٦ ــ الهاربون من الجيش يعاملون معاملة أسرى الحرب(١) .

ب ــ واجبات الدولة المعادية :

يعتبر أسرى الحرب في حوزة الدولة التي أسرتهم وتحت سيطرتها ولا علاقة لهم بالقوات الآسرة ويجب أن يعاملوا بعطف ومروءة واحترام وان لا يتعرضوا لاعمال العنف والاهانة وازدراء الجماهير وأن يظلوا محتفظين بحقوقهم المدنية التامة كما يمنع الانتقام منهم وأن تظل جميع الامتعة والمواد الشخصية المستعملة استعمالا شخصيا في حيازة الاسرى وكذلك خوذهم المعدنية وأقنعة الغاز .

ولا يجوز أن تؤخذ منهم النقود التي يحملونها الا بأمر ضابط وبعد تسجيل المبلغ المحجوز في حساب الاسير كما لا يجوز أن تؤخذ من الاسرى علامات هوياتهم وشارات رتبهم وأوسمتهم وأمتعتهم الثمينة .

....

١ ــ قانون الحرب ــ المبحث الرابع ــ الاساتذة : عبد العزيز علي ، عبدالفتاح عزيز ، حسين درويش ، مطبعة الانجلو المصرية ، ١٩٥٢ .

وعلى الدولة الحاجزة أن تقوم باطعام أسرى الحرب ولا يجوز التفريق في معاملــة الاسرى الا اذا كانت بسبب رتبــة الأسير أو صحته البدنية والعقلية أو مهارته أو جنسه .

ولا تجوز مضايقة الاسرى للحصول منهم على معلومات متعلقة بموقف قواتهم المسلحة أو بلادهم كما يمنع تهديــد الاسرى الذين يرفضون الاجابة أو اهانتهم أو تعريضهم للاذلال والضرر مهما كان نوعه .

جـ ــ واجبات الاسير :

أوجبت المادة الخامسة من اتفاقية جنيف أن يصرح أسير الحرب باسمه ورتبته أو رقم وحدته عند استنطاقه والا حرم من الامتيازات الممنوحة للاسرى الذين من صنفه وله أن يمتنع عن اجابة أي سؤال آخر يوجه اليه .

د ــ نقل الاسرى :

ينقل الاسرى بعد أسرهم بأسرع ما يمكن الى مستودع يقع على بعد كاف من منطقة القتال لوقايتهم من أخطار القصف والنيران ولا يجوز الاحتفاظ بهم مؤقتا في مناطق الخطر الا اذا كان نقلهم أشد خطورة بسبب جروحهم أو أمراضهم كما ينبغي أن لا تطول فتــرة انتظارهم النقل من ساحة المعركة ويتم نقلهم مشيا على الاقــدام في الظروف الاعتيادية بمراحل بمعدل عشرين كيلومترا في اليــوم الواحد ويجوز أن تكون المرحلة أطول لغرض الوصول الى المــاء أو مستودعات الطعام .

ونصت المادة الخامسة والعشرون من اتفاقية جنيف بعدم جواز نقل أسرى الحرب المرضى أو الجرحى اذا كان السفر يؤخر نقاهتهم وشفاءهم ما لم يقتض سير الحركات العسكرية ذلك وأوجبت المادة السادسة والعشرون تبليغهم بالنقل بصورة رسمية قبل حلول

الموعد ، والمحل الذي سينقلون اليه كما يسمح لهم حينئذ بأخذ أمتعتهم الشخصية ورسائلهم وصورهم الخصوصية وعلى السلطة المختصة اتخاذ التدابير التي تضمن تسليمهم الرسائل والصور المعنونة الى معسكرهم القديم .

هـ ــ معتقلات أسرى الحرب :

للدولة مطلق الحرية في اختيار أماكن الاسرى سواء كانت مدينة أو قرية أو قلعة أو ثكنة شريطة أن يكون محل الاعتقال صحيا يراعى فيه ما يراعى في معسكرات جيش الدولة الآسرة نفسها ويجب أن يكون محل اقامة كبار الضباط الاسرى تتناسب مع رتبهم العسكرية ويفضل أن يكون المكان مسورا بعيدا عن المناطق المكتظة بالسكان ولا يجوز سجن الاسرى أو الحجر عليهم الا اذا اقتضت ذلك شؤون الامن والصحة ، أما الاسرى المأسورون في مناطق غير صحية وذات مناخ سيء بالنسبة لمناخ أقطار الاسرى المعتدل فيجب أن ينقلوا بسرعة الى مناطق ملائمة وأن يتحاشى المسؤولون بقدر الاستطاعة وضع الاسرى المنتمين الى قوميات وأجناس مختلفة في مكان واحد .

و ــ طعام الاسرى وملابسهم :

ان استحقاق الاسير من الارزاق مساو لاستحقاق جنود الدولة الآسرة ومن الواجب توفير الوسائل والمعدات لتمكين الاسرى من اعداد أطعمتهم الاضافية الخاصة وتزويدهم بكميات كافية من مياه الشرب والسماح لهم بالتدخين ولا يجوز اتخاذ أية اجراءات تأديبية عامة تتعلق بطعام الاسرى ، وعلى الدولة الآسرة أن تجهز الاسرى بالملابس والثياب الداخلية والاحذية والجوارب وأن تضمن تبديلها وتصليحها بانتظام كما يجب تجهيز العمال ببدلات الشغل المناسبة لطبيعة العمل وانشاء الحوانيت في جميع المعتقلات ليستطيع الأسرى الحصول بسهولة وبأسعار ملائمة على البضائع والمواد الاخرى وأن تنفق أرباح الحوانيت لمتعة الاسرى .

ز ـ الشؤون الصحية :

نصت المواد (١٣ و ١٤ و ١٥) من اتفاقية جنيف على وجوب اتخاذ التدابير للمحافظة على نظافة معتقلات الاسرى وتوفير الشروط الصحية فيها ومنع تفشي الامراض الوافدة وان يعطى الاسرى المعدات والادوية التي تمكنهم من تطبيق ذلك كما ينبغي اعطاء الاسرى كميات كافية من المياه لتنظيف أبدانهم على أن لا يؤثر ذلك على ذهابهم الى الحمامات وان تهيأ لهم الوسائل والوقت للرياضة البدنية والتمشي في الهواء الطلق خارج أماكنهم وقاعاتهم ولا بد من وجود المستشفيات في معسكرات الاسرى تتيسر فيها كل الوسائل والادوية على نفقة الدولة الآسرة كما يجب فرز ردهات خاصة للمرضى المصابين بأمراض معدية ويجوز للاطراف المتحاربة الاتفاق على أن يأذن أحدهما للآخر بالاحتفاظ في معسكرات الاسرى بأطباء وموظفين صحيين ومضمدين للعناية بمواطنيهم الاسرى أما المصابون بأمراض خطيرة أو تستدعي حالتهم اجراء عملية جراحية في مكان آخر فينقلون ويعالجون على نفقة الدولة الحاجزة كما ينبغي القيام بتفتيش طبي شهري للتأكد من النظافة والوقوف على الحالة الصحية واكتشاف الامراض السارية والمعدية .

ح ـ رواتب الاسرى :

يتناول الضباط رواتب شهرية تحدد بأقل الراتبين ، راتب الضابط الاسير في دولته وراتب الضابط من نفس الرتبة في جيش الدولة الحاجزة ولا يجوز قطع شيء منه لتسديد نفقات ترتبت للدولة الحاجزة ولا يتناول أسرى الحرب أي راتب عما له علاقة بادارة معسكراتهم وتنظيمها وادارتها .

ط ـ تشغيل الاسرى :

منعت المادة (٢٧) من الاتفاقية تشغيل الضباط وأجازت

تشغيل الآخرين وبوسع الضباط الاشتغال اذا رغبوا وقدموا طلبا بذلك ويجوز تكليف ضباط الصف بمهمة الاشراف فقط على الاعمال الا اذا طلبوا صراحة مزاولة عمل معين لقاء أجرة وفي حالة تعرض الاسير للاصابة بسبب العمل فتطبق قوانين الدولة الحاجزة بصدد التعويض .

وتتكفل الدولة الحاجزة باعالة أسرى الحرب الذين يؤدون عملا خاصا للاشخاص والعناية بهم ومعالجتهم ودفع أجورهم ولا يجوز استخدام الاسير في شغل لا يلائم حالته البدنية وينبغي أن لا تزيد ساعات العمل عن الساعات المقررة بالنسبة لانظمة العمل في الدولة الحاجزة وأن يدخل ضمنها وقت الذهاب والعودة ويمنح الاسير استراحة اسبوعية لمدة يوم واحد كما يمنع تشغيل الاسير في الاعمال الخطرة أو الضارة بالصحة أو التي لها علاقة مباشرة بالحركات العسكرية كصنع الاسلحة والاعتدة أو نقلها .

ي ــ علاقة أسرى الحرب بوطنهم :

على الدول المتحاربة أن تعلن في بداية الحرب طريقة اتصال الاسرى بأوطانهم وأسرهم وأن يتم تبليغ ذلك لكل المعنيين ولا بد من بيان عدد الرسائل المسموح بها شهريا واختيار أقصر الطرق لنقلها ولا يجوز تأخير الرسائل أو منع الاسرى من الكتابة لاغراض تأديبية ويجب السماح للاسير بارسال بطاقة بريدية لاسرته خلال أسبوع من وصوله الى معتقله وكذلك في حالة مرضه وتكتب الرسائل عادة بلغة الاسير كما يسمح لهم بتسلم رزم بريدية تضم الاطعمة والملابس وعليهم تأكيد التسلم تحريريا وتعفى الرسائل والحوالات والرزم والهدايا والمواد العينية من الرسوم في جميع البلدان ويجوز للاسرى عند الضرورة الابراق الى أسرهم كما يسمح لهم بتلقي الكتب والمجلات التي تخضع للرقابة .

ك ــ الشكاوى والتظلمات :

يجب الاسراع ببحث شكاوى الاسرى وتدوينها في سجل خاص وعلى آمري معسكرات الاسرى البت في الشكاوى وانصاف المظلومين ولقد منحت الفقرة الثانية من المادة (٣١) من الاتفاقية الاسير حق التظلم والشكوى من العمل المحظور الذي أداه قبل أو بعد التنفيذ .

ل ــ العقوبات :

يخضع أسرى الحرب لقوانين وأنظمة وتعاليم وأوامر قوات الدولة الحاجزة ولا يجوز الحكم عليهم بعقوبات غير العقوبات المترتبة على الجرائم المماثلة للجرائم التي يرتكبها أفراد قوات الدولة الآسرة ولا يجوز أن يعامل أسرى الحرب المعاقبين بعقوبات تأديبية معاملة أشد من المعاملة المترتبة على أمثالهم في القوات الحاجزة ويجب الامتناع عن العقوبات البدنية والسجن في أبنية لا يدخلها ضوء الشمس أو استخدام القسوة ولا يوقف الاسير الا عند الضرورة القصوى ولاقصر فترة على أن تطرح من مدة العقوبة .

ولا يجوز حرمان الاسير من رتبته أو تنزيلها كعقوبة وأن يسجن الضباط في غير المكان الذي يسجن فيه الجنود ولا يجوز تجريدهم من رتبهم .

ولقد نصت المادة الخمسون على خضوع الاسرى الهاربين الذين يؤسرون مرة أخرى قبل التحاقهم بقواتهم المسلحة أو قبل مغادرةالاراضي التي احتلتها الدولة الآسرة للعقوبات التأديبية فقط أما الذين وقعوا في الاسر ثانية بعد تمكنهم من الالتحاق بقواتهم المسلحة أو مغادرة الارض التي استولت عليها الدولة الحاجزة فلا يعاقبون عن هروبهم السابق .

ويعتبر السجن أشد العقوبات التأديبية ولا يجوز أن تزيد مدة العقوبة الواحدة على ثلاثين يوما .

وعلى وزارة دفاع الدولة الحاجزة أن تبلغ وزارة الخارجية لتتولى تبليغ دولة الاسير الذي سيحاكم على جريمة عقوبتها الاعدام أو السجن بجميع التفاصيل والبيانات وتمنح مهلة ثلاثة أسابيع بين ارسال البيانات والشروع في المحاكمة وللاسير أن يستعين بمحام من أية دولة أو صديق للدفاع عنه وتكون الجلسات علنية يحضرها ممثل الدولة الراعية لشؤون الاسير الا اذا رأت المحكمة جعلها سرية مراعاة للنظام العام والآداب العامة . ويخضع اصدار الحكم ومصادقته والطعن فيه لنفس اجراءات المحاكم العسكرية في الدولة الحاجزة ويبلغ الحكم عقب صدوره وينفذ فورا ، الا حكم الاعدام فيجب الانتظار ثلاثة شهور .

م ـ انتهاء حالة الاسر :

تنتهي حالة الاسر باطلاق سراح الاسير أو هربه أو تبادله مع أسير من جيش العدو أو بدخوله اقليما محايدا مع الوحدة التي أسرته اذا اضطرتها ظروف القتال الى دخول الاقليم المحايد أو احتلت دولة الاسير معتقل الاسرى أو انتهت الحرب بعقد الصلح وحينئذ تعيد الدول المتحاربة الاسرى الى أوطانهم فورا أما اذا انتهت الحرب بالاخضاع والضم فينبغي اطلاق سراح الاسرى بمجرد ملاءمة الظروف .

الفصل الرابع

الحرب العالمية الثانيـــة

١ ايلول عام ١٩٣٩ غزت ألمانية النازية بولندا فابتدأت الحرب العالمية الثانية حيث أعلنت انكلترا وغالبية دول الكومنولث وفرنسا الحرب على ألمانيا في ٣ أيلول وهكذا اشتبك العالم في حرب ضروس تعتبر أفظع الحروب التي شهدتها البشرية وأشدها تدميرا وأكثرها شمولا واتساعا فقد اشتركت فيها دول كثيرة وشملت أغلب القارات وامتدت ميادينها آلاف الاميال وخاضتها أضخم الجيوش وأقواهـــا واستخدمت فيها أحدث الاسلحة وأشدها فتكا كالصواريخ والاسلحة النووية وظلت ست سنوات وهلك فيها زهاء عشرين مليونـــا من الجنود الى جانب ضحايا المعتقلات والسجون والغارات الجوية من المدنيين وضحايا القنبلتين الذريتين (١) .

لقد كانت حربا عصرية وصراعا هائلا بين الشعوب سخر فيها العلم والتقنية والطاقات والموارد للقتل والابادة والتدمير ولو امتد بها الاجل لاستخدمت الجراثيم والغازات.ولم يعد النصر والعمل الحاسم يقتصر على ساحة القتال بل تشعبت الميادين فشملت السياسيـــة والاقتصادية والفكرية والعسكرية وقد انتهت الحرب البولونيـــة بعد سبعة عشر يوما واحتلت روسيا القسم الذي خصص لهـــا بموجب اتفاقها المعقود مـــع المانيا وتابعت المانيا الغـــزو فاحتلت الدانمرك والنرويج في نيسان عام ١٩٤٠ ثم احتلت هولندة ولوكسمبورغ وبلجيكا

....

١ ـــ الموسوعة العربية الميسرة ص ٧٠٠ باشراف محمد شفيق غربـــال القاهرة ١٩٦٥ .

وانقضت على شمـــال فرنسا واكتسحت الجيوش الالمانية موانـــيء القنال الانكليزي ومزقت جيوش الحلفاء الذين أسرعوا بالانسحاب من دنكرك ثم دخلت ايطالية الحرب في ١٠ حزيران واستسلمت فرنسا في ٢٢ حزيران ووقفت بريطانيا وحدها تقاوم الغارات الجوية الالمانية ونشب القتـــال في شمال أفريقيـــة بين الايطاليين والبريطانيين وفي البلقان بين الايطاليين واليونانيين . وفي نيسان ١٩٤١ غزت المانيا هنغارية وبلغاريا ويوغوسلافية واصبحت الجيوش الالمانية مسيطرة على البلقان واليونان وجزيرة كريت وشمال افريقية وسواحل المحيط الاطلسي وفي ٢٢ حزيران من هذه السنة اشتبكت الجيوش الالمانية مع الجيوش الروسية في حرب دموية قاسية واصبحت المانية تقاتل في اكثر من جبهة واحدة تعاونها القوات الايطالية والرومانية والمجرية ودنت الولايات المتحدة الامريكية مـــن الحرب اذ اعلن الكونجرس الاميركي نظام الاعارة والتأجير واحتلت الولايـــات المتحدة ايسلندا وجرينلاند واستلم هتلر(٢) قيادة القوات البرية الالمانية بعد استقالة الفيلد مارشال براوشيش وتأزم الموقف بسبب اعتداء اليابان على الهند الصينية وتايـــلاند ثم هاجمت اليابان بيرل هـــاربر والفيليبين والملايو في ٧ كانون اول ١٩٤١ ، واعلنت الولايـــات المتحدة ومعظم حلفائها الحرب على اليابان وأعلنت المانيا وحلفاؤها عدا فنلندة الحرب على الولايات المتحدة واحتلت اليابان الفيليبين وعدة جزر في المحيط الهادي جنوب شرقي آسيا وما ان حل صيف ١٩٤٢ حتى كانت الجيوش الالمانية تقف على ابواب ليننغراد وفي شوارع ستالينغراد وعلى قمم جبال القفقاس واقتربت جيوش رومـــل من القـــاهرة وهـــددت الغواصات الالمانية بملاحقة الحلفاء في جميع البحار وبلغت المانيا في هذا العام ذروة قوتها ومجدها العسكري. وبدأت الانتكاسات الالمانية وقام الحلفاء بالهجوم في جهات عديدة وانتصروا في بعضها وانهزمت

....

٢ — امير الحرب هتلر — ص ١٠ تأليف فرانس هالدر ترجمة الدكتور عبـــد الحميد الهلالي مطبعة بغداد — بغداد .

جيوش المحور في شمال افريقيا بعد انتصار مونتكمري في العلمين ونزلت قوات الولايات المتحدة في الجزائر وتمزقت القوات الالمانية في ستالينغراد واستسلمت ، كما انسحب الالمان من القفقاس وانتهى القتال بانتصار الحلفاء في شمال افريقيا ونزل الحلفاء في جزيرة صقلية جنوب ايطاليا وسلمت الجزيرة في أيلول ١٩٤٣ وتوالت انتصارات الولايات المتحدة البحرية وبدأ الانهيار يدب في اكثر الجهات الالمانية وتخلى حلفاء المانيا عنها الواحد اثر الآخر وقامت روسيا بهجوم مضاد على طول الجبهة لطرد الالمان ووصلت قواتها عام ١٩٤٤ الى بولندة وهنغاريا وطردت قوات المحور من البلقان كما فشلت حرب الغواصات الالمانية وسيطر الحلفاء من جديد على البحار والمحيطات واصطدم الحلفاء بمقاومة شديدة في ايطاليا التي انسحبت من الحرب. وفي فجر ٦ حزيران من عام ١٩٤٤ نزلت قوات الحلفاء بقيادة الجنرال ايزنهاور في نورماندي غرب فرنسا كما نزلت قوات أخرى في جنوبها وهكذا فتحت الجبهة الثانية التي طال انتظارها والح الروس كثيرا على فتحها لتكون الفصل الاخير من مسرحية الدم والخراب . واشتدت الغارات الجوية على المانيا وتحررت فرنسا وبلجيكا واتجه القتال الى هولنده وقلب المانيا التي دمرت الغارات الجوية مدنها ومراكزها الصناعية والعسكرية وفي الاسبوع الاخير من شهر شباط من عام ١٩٤٥ تم تطهير منطقة الراين وفي ٦ مارس احتل الحلفاء مدينة (كولون) رابع مدن المانيا والتي تحولت الى خرائب وانقاض وبينما كانت جيوش الحلفاء تطهر ضفة الراين الغربية من القوات الالمانية كان الروس قد انفتحوا على امتداد نهر (الاودر) عند أبواب (برلين) بعد ان طوقوا كل من (دانزج) و (شتاين) في الشمال وتوغلوا في (سيلسيا العليا) كما كانوا قد احتلوا (بودابست) بعد حصار شاق وتقدموا نحو ثغرة (براتسلافا) المؤدية الى (فيينا) وفي ٢٣ مارس تم للحلفاء احتلال منطقة الراين واقاموا جبهة متماسكة على امتداد الراين من سويسرا حتى البحر يتقدمها رأس جسر قوي كان قد اسس امام النهر ثم اتصلت الجيوش الروسية بالجيوش

الامريكية في وسط المانيا وفي ٢٣ نيسان اطبق الجيش الروسي على برلين واستمر القتال في شوارعها أكثر من ثلاثة أسابيع وفي ٢ أيار اعلن رسميا مقتل هتلر واخيرا استسلمت المانيا بدون قيد او شرط في ٧ أيـــار ١٩٤٥ .

وفي ٦ آب عام ١٩٤٥ القيت اول قنبلة ذرية على (هيروشيما) باليابان وبعد ثلاثة أيام ألقيت قنبلة ذرية أخرى على (نجازاكي) فاحدثتا دمارا شاملا وأهلكتا عشرات الالوف من البشر ثم اعلـــن الاتحاد السوفييتي الحرب علـــى اليابان وغزت قواته منشوريـــة واستسلمت اليابان في ١٤ آب ووقعت شروط الاستسلام في ٢ ايلول وهكذا انتهت الحرب العالميـــة الثانية اكبر وافظـــع مأساة شهدتها البشرية في تاريخها الطويل الحافل بالحـــروب والمآسي والنكبات والحقت بالعالم خسائر مادية وبشرية لا يتصورها العقل وبدأ العالم المجنون يبني من جديد مـــا خربه بسلاحه الفتاك وقنابلـــه المدمرة وصواريخه الفظيعة.ولا بد أن نذكر بعض الارقام لنقف على هول الفاجعة وفداحة الحرب وعمق المأساة ، لقد كانت خسائر الالمان في الرجال ثلاثة امثال الخسائر التي الحقوها بالحلفاء وبلـــغ مجموع الاسرى الالمان منذ فتح الجبهة الغربية اكثر من مليونين وتكبد الالمان (٤٠٠ر٠٠٠) قتيل واضعافهم من الجرحى وألقى الحلفاء في يومي ٢٢ و ٢٣ شباط عشرين الف طن من القنابل على المانيا ، ودمـــرت طائرات الحلفاء خلال السبعة عشر يوما الاولى من نيسان (٤١٣٩) طائرة المانية أغلبها كان في المطارات بسبب فقدان الوقود (٣) ، ودمرت مدن المانية كثيرة تدميرا تاما فتحولت الى خرائب وانقاض ، هذا غيض من فيض وفي (هيروشيما) و (نجازاكي) بلغت المأساة ذروتها وخيم الموت والفناء .

لقد كانت الحرب العالمية الثانية حربا شاملة مدمرة لم يشهد

....

٣ ــ الصفحة الاخيرة ــ الخاتمة ــ والتر ملز ترجمة : المقدم الركن عبدالقادر سعيد ــ مطبعة الجيش العراقي .

لها العالم مثيلا من قبل فدمرت مئات المدن والمصانع والمنشآت والحقول وطرق المواصلات ولم ينج منها ميدان او مرفق وهلك الملايين من المدنيين والجنود وتعرض الانسان لافظع ضروب القسوة والوحشية وداس الغزاة والفاتحون بأقدامهم اتفاقية جنيف لعام ١٩٢٩ وعومل الاسرى اسوأ معاملة وقتل الالمان آلاف الاسرى وقضى الكثيرون نحبهم بسبب الجوع والمرض والاعمال الشاقة ، وجرت في معسكرات الاعتقال النازية افظع الاعمال واشدها وحشية الانتقام على القوات الروسية ففتكت بالاسرى في بولندة والمانيا
الانتقام على القوات الروسية ففتكت بالاسرى في بولنده والمانيا
وغيرها كما احتفظت بالالاف منهم في روسيا لفترة طويلة ليعمروا ما خربته الحرب ، كما تنكرت اليابان لاتفاقية اسرى الحرب فعاملتهم بقسوة واتبعت وسائل بربرية في استنطاقهم ، وما ان انتهت الحرب العالمية الثانية حتى بدأت محاكمة (نورمبرغ) للزعماء والقادة النازيين عن تهمة جرائم الحرب كقتل السكان المدنيين وأسرى الحرب والرهائن وتسخير العمال والجرائم الموجهة ضد الانسانية وجرائم الابادة والافناء والاستعباد والاضطهاد واحتلال الأراضي الاوروبية ، وقررت المحكمة اعدام أحد عشر شخصا من الزعماء النازيين المتهمين ، ونفذ فيهم الحكم باستثناء (غورنغ) الذي انتحر قبل تنفيذ الحكم بساعات قلائل(٤) .

ان فظائع الحرب وكوارثها وأهوالها وتدميرها للمدن وقتلها للسكان ، أقنع قادة العالم ومفكريهم بضرورة اعادة النظر في اتفاقيات جنيف ووضع الضمانات الكفيلة بعدم تعرض الانسان للاذى والاضطهاد ، فوقعت الدول اتفاقية جنيف لحماية ضحايا الحرب في ١٢ اب ١٩٤٩ التي عدلت الاتفاقيات السابقة وتضمنت في الوقت نفسه اتفاقية خاصة بحماية الاشخاص المدنيين وقت الحرب .

---

٤ — محاكمات نورمبرغ — الفصل الثالث — الدكتور ج٠م جلبرت ترجمة فتح الله محمد وجووج شاهين — مطبعة المنار ، دمشق .

الفصل الخامس

مشروعية الحرب

اختلف الفقهاء وعلماء القانون من قديم الزمان اختلافا كبيرا على الحرب ومشروعيتها ، فيرى بعضهم أن الحرب عمل غير مشروع لا يصح أن تلجأ اليه الدول ويرى أغلبهم أن الحرب عمل مشروع لعدم وجود سلطة عليا تعاقب المعتدي وترد الحق المغتصب الى صاحبه وان للدولة حق دفع العدوان واسترداد حقوقها المغتصبة بجميع الوسائل بما فيها اعلان الحرب . وسار العرف الدولي على هذا الرأي وتعددت الحروب شريطة أن تلتزم الدول باتباع القواعد المنظمة لها والتي جرى عليها العرف الدولي أو نص عليها في معاهدات شارعة (١) .

وكانت معظم الحروب حتى قيام الحرب العالمية الاولى ثنائية بين دولتين أو ثلاث على الاكثر وكانت ساحتها محدودة وآثارها قاصرة على الجيوش المتحاربة ولا تتعدى ميادين القتال التي كانت في مناطق الحدود غالبا أما الاسلحة فكانت البندقية والرمح والسيف والمدفع ولم تتجاوز الجيوش عشرات الالوف ومئات الالوف في أحيان نادرة وكان سكان المدن والريف بمنجاة من شرور الحرب وويلاتها ولم تكن أضرارها على العموم جسيمة بخلاف حرب عام ١٩١٤ التي تحولت لاول مرة في تاريخ الانسانية الى حرب عالمية شملت جميع الاقطار والمحيطات وأصبحت الجيوش تضم الملايين من الشبان واستخدمت أسلحة حديثة فتاكة وعانى السكان المدنيون من آثارها أكثر مما عانته الجيوش المتحاربة فأغرقت الغواصات الالمانية مئات

---

١ ـ القانون الدولي العام ـ الكتاب الثالث ـ الدكتور محمود سامي جنينة الطبعة الثانية ١٩٣٨ .

السفن من دون انذار واستخدمت الغازات السامة ، وقصفت المدن المكشوفة واستعملت الوسائل الارهابية لتحطيم معنويات السكان المدنيين وبلغ مجموع القتلى تسعة ملايين من الانفس وزاد عدد الجرحى الذين أصيبوا في أجسامهم وصحتهم وأعصابهم على ٣٠ مليونا وطالت الحرب أكثر من أربع سنين ولولا تدخل الولايات المتحدة ودخولها الحرب لامتدت الى أكثر من ذلك (٢) .

وشعر العالم بقسوة الحرب وفظاعتها ورأى مدى الدمار الذي أصابه بسببها واكتشف أنه أصبح وحدة اقتصادية وسياسية متماسكة وان المدنية في طريقها الى الزوال اذا لم تقم العلاقات بين الشعوب على السلم والعدالة ونبذ الحرب وتجنب آلامها ومآسيها وما تجره من دمار وهلاك وبدت الحاجة ملحة الى اعادة النظر في بعض قواعد القانون واستنباط قواعد جديدة تلائم ما استجد من تطورات وأخذ المفكرون والساسة في جميع البلاد وبخاصة في بريطانيا وأمريكا يتشاورون لوضع قواعد نظام عالمي يكفل للعالم أمنه وسلامه وللمدنية رقيها وازدهارها وفي كانون الثاني عام ١٩١٨ أعلن الرئيس ولسن في خطبة له (المبادىء الاربعة عشر) (٣) التي اعتبرها بعضهم قواعد للسلم الجديد فاهتمت الشعوب بهذه المبادىء وطلب الالمان الهدنة على أساسها وانتهت الحرب وخرجت الدول منهوكة القوى تريد السلام تلعن الحرب . وكان أول ما اهتم به ساسة العالم هو انشاء نظام دولي يسود فيه القانون والعدل والسلام ووضع فكرة نبذ الحرب موضع التنفيذ ثم وقعوا ميثاق عصبة الامم الذي أخفق في تحقيق آمال وأماني الشعوب وهكذا انهارت نقاط ولسن وتبددت أحلامه .

....

٢ — التعاون الدولي والسلام العام — الفصل الثالث محمد رفعت ، دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٤٥ .

٣ — النتائج السياسية للحرب العظمى — الفصل الثاني — رمزي ميور ترجمة محمد بدران — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ .

ميثاق عصبة الامم :

نصت مقدمة الميثاق على أن المتعاقدين يوافقون على الميثاق لغايتين رئيسيتين هما : تعزيز التعاون الدولي وتحقيق السلم والامن الدولي وذلك باتباع ما يلي :

١ — الالتزام بعدم الاتجاه الى الحرب .

٢ — قيام العلاقات الشريفة بين الامم على أساس الصراحة والعدالة .

٣ — توطيد القانون الدولي كأساس للتعامل بين الدول .

٤ — اتباع العدالة والاحترام الدقيق للمعاهدات بين الشعوب .

وقد عهد الى العصبة حسب ميثاقها الاصلي بست وظائف رئيسية أهمها تأييد السلام العام وتحكيم العقل في حسم المنازعات الدولية بدلا من تحكيم الحرب والوصول بالتدريج الى نزع سلاح الدول المنضمة اليها .

ويلاحظ أن الميثاق لم يتضمن نصا عاما بتحريم الحرب كمبدأ مسلم به وانما قيد من حق الدول في الدخول فيها الا بشروط خاصة كما حرم على الدول الدخول فيها في حالات معينة تناولتها المواد من ١١ الى ١٧ .

فالمادة ١١ نصت على أن كل حالة حرب أو حالة تهدد بالحرب سواء في ذلك تعلقت بدولة عضو في العصبة أو غير عضو تهم العصبة بأجمعها وعليها واجب أن تتخذ ما يلزم من الاجراءات لصون سلم العالم . ووضعت المادة (١٢) قيدا على حق الدول في الدخول في الحرب وهو انتظار مهلة ثلاثة شهور قبل بدء الحرب لكنها لم تحرم الحرب بصيغة نهائية .

ونصت المادة (١٣) على قيام الاعضاء بتنفيذ القرارات التي يصدرها المحكمون أو المحكمة برضا وبكل أمانة وأن لا يلجأوا الى محاربة الدول التي تنفذ هذه القرارات واذا لم ينفذ القرار فيقترح المجلس الاجراءات الكفيلة بتنفيذه .

وتنص المادة (١٥) على أنه اذا قام بين عضوين خلاف يخشى أن يؤدي الى قطع العلاقات بينهما ولم يعرض الخلاف للتحكيم أو على محكمة العدل فان الاعضاء يبلغون موضوع الخلاف للمجلس وعلى المجلس اصدار قراره في الموضوع فاذا كان قرار المجلس بالاجماع عدا العضوين المتنازعين فان الاعضاء يوافقون على عدم الالتجاء للحرب ضد الدولة الموافقة على القرار اما اذا كان بالاكثرية فيحتفظ الاعضاء بحريتهم في العمل على نصرة الحق والعدالة .

وتضمنت المادة (١٦) العقوبات اذا لجأ العضو الى الحرب ناقضا عهوده ومواثيقه وهي العقوبات الاقتصادية والعسكرية وأخيرا الطرد من عضوية العصبة .

وتنص المادة (١٧) على ما يطبق اذا قامت الحرب بين عضو في العصبة وآخر غير مشترك فيها أو بين عضوين غير مشتركين (٤) .

وهكذا يتضح أن الميثاق لم يحرم مبدأ الحرب ولم يمنع الدول من حقها في الدخول في الحرب ولكنه قيد هذا الحق في بعض صوره وان هناك حالات يمكن اللجوء فيها الى الحرب بدون أن تعتبر اخلالا بأحكام الميثاق (٥) .

لقد أخفقت عصبة الامم في تحقيق غاياتها وأهدافها وانتابها الضعف ساعة ميلادها ولعل أول ما دعا الى ضعفها اخفاقها في ضم الدول الكبرى الى صفها وهي دول قوية تستطيع أن تنهض بالعبء وتتحمل مسؤولية الامن المشترك وتضمن عدم نشوب حرب عالمية أخرى ومهما يكن فانها خدمت السلام وحالت دون وقوع الحرب أكثر من مرة . واذا كان نظام العصبة قد عجز عن ردع المعتدي فان اللوم يقع على الرأي العام الذي لا يسوغ لحكوماته

....

٤ — التعاون الدولي والسلام العام — الفصل الرابع — محمد رفعت دار المعارف للطباعة والنشر ١٩٤٥ .

٥ — قانون الحرب — مشروعية الحرب — الاساتذة : عبد العزيز علي ، عبد الفتاح عبد العزيز ، حسين درويش مكتبة الانجلو مصرية ١٩٥٢ .

الدخول في حرب من أجل شعب اخر ليس له مصلحة عاجلة في مناصرته .

جهود ومحاولات :

ان فشل عصبة الامم في اقرار مبدأ تحريم الحرب لا سيما وأن ميثاقها نفسه يبيح الحرب في حالات معينة ولتعذر تحريم الحرب بصورها المختلفة تحريما تاما جعلت جهود السياسيين والمفكرين ومحبي السلام تنصرف الى تحريم حرب الاعتداء . فوضع مشروع معاهدة المعونة المتبادلة سنة ١٩٢٣ الذي نص على اعتبار حرب الاعتداء جريمة دولية وعلى الدول الموقعة عليه بالامتناع عنها كما أوجب على الدول الموجودة في قارة الدولة المعتدى عليها والموقعة معها على المعاهدة القيام بمعاونة الدولة التي تقوم ضدها حرب اعتداء شريطة أن تكون قد خفضت تسليحها تنفيذا للمعاهدة ، لكن أغلبية الدول لم توافق على المشروع فسقط (٦) .

وجاء بروتوكول جنيف سنة ١٩٢٤ فحرم الاعتداء أيضا واعتبرها جريمة دولية ووضع نظاما خاصا لفض المنازعات بالطرق السلمية وفرض على الدول الموقعة عليه قبول اختصاص محكمة العدل الدولية الدائمة اختصاصا الزاميا في حدود الاختصاص الالزامي الموضوع لهذه المحكمة (٧) . ولم توافق أغلبية الدول على البروتوكول فسقط وانتهى ثم انعقد مؤتمر لوكارنو عام ١٩٢٥ وقد نجح في عقد عدة اتفاقات هي المعروفة باتفاقات لوكارنو وتشمل :

١ — ميثاق ضمان وعدم اعتداء مبرم بين بريطانيا وفرنسا

....

٦ — القانون الدولي العام ص ٤٧٧ الدكتور محمود سامي جنينه الطبعة الثانية ١٩٣٨ .

٧ — القانون الدولي العام الكتاب الثاني الفصل الرابع الدكتور محمود سامي جنينة ، الطبعة الثانية ١٩٣٨ .

وايطاليا وبلجيكا وألمانيا وهو المعروف بميثاق الرين .

٢ ـ ميثاقي معونة متبادلة يكملان ميثاق الرين أبرما بين فرنسا وبولندة وبين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا .

٣ ـ أربع معاهدات تحكيم وتوفيق تكمل المواثيق الثلاثة سابقة الذكر .

ولقد نص ميثاق الرين على تعهد الدول الموقعة عليه بعدم القيام بهجوم أو غزو أو بعدم الالتجاء الى الحرب مع استثناء حالة الدفاع عن النفس والحالة المنصوص على جوازها في المادة (١٥) من ميثاق العصبة كما تعهدت الدول الموقعة باللجوء الى الوسائل السلمية في حل منازعاتها مهما كانت طبيعة المنازعات .

ويلاحظ أن عبارة ميثاق الرين عامة في تحريم الحرب لم تميز بين حرب الاعتداء وبين غيرها من الحروب ولم تعرف حرب الاعتداء واعتبرت كل حرب تقوم اخلالا بالميثاق حرب اعتداء .

وأصدرت الجمعية العمومية في اجتماعها عام ١٩٢٧ قرارا باجماع الآراء أعلنت فيه عن عزمها على حماية السلم العام واقرار فكرة أن حرب الاعتداء لا يصح استخدامها كوسيلة لفض المنازعات وانها جريمة دولية وصاغت ذلك في القاعدتين التاليتين :

١ ـ ان كل حرب اعتداء محرمة وستبقى محرمة .

٢ ـ ان واجب الدول يقضي باللجوء الى جميع الوسائل السلمية لفض المنازعات الدولية مهما كانت طبيعتها (٨) .

وفي ٢٧ اب عام ١٩٢٨ وقعت أربع عشرة دولة على ميثاق بريان كيلوج وانضمت اليه دول كثيرة تباعا ويمتاز هذا الميثاق ببساطته وباستنكاره الحرب صراحة كوسيلة لحل الخلافات الدولية وباقرار الجميع بوجوب تسوية الخلافات بالطرق السلمية وانتقد البعض هذا الميثاق بأنه حرم الحرب بالمعنى القانوني ولم

....

٨ ـ قانون الحرب ص ٤٧ الاساتذة : عبد العزيز علي ، عبد الفتاح عبد العزيز ، حسين درويش مطبعة الانجلو مصرية ١٩٥٢ .

يحرم وسائل الاكراه كما لم ينص على طريقة ارغــام الدول التي تخالف الميثاق كما أن الدول التي خسرت الحرب أعطت المواثيق باستنكارها هي الحرب الهجومية واعتبرت الحرب الدفاعية حقا لها لا سبيل الى التنازل عنه كما أبدت بعض الدول التحفظــات عند مصادقته .

وفي عام ١٩٣٣ اجتمعت لجنة الامن وهي احدى اللجان التابعة للعصبة للنظر في أمر حرب الاعتداء ووضع تعريف لها ، وتوصلت اللجنة الى تعريف حرب الاعتداء والحالات التي تعتبر بها الدولــة معتدية وعرض تقرير اللجنة على المؤتمر فلم يبت فيه ، كما ساهمت دول أمريكا في الحركة السلميــة وبذلت جهودهــا لتحريم حرب الاعتــداء .

ميثاق هيئة الامم المتحدة ١٩٤٥ :

لم يحل ميثاق عصبة الامم والمؤتمرات والاتفاقات والمعاهدات التي تلته دون نشوب الحرب بين الدول ، كما أن المحاولات التي بذلت لتحريم الحرب وخاصة حرب الاعتداء قد باءت بالفشل وقامت الحرب العالمية الثانية في أيلــول ١٩٣٩ التي ظلت مستعرة ست سنوات تدمر وتهلك وتبيد بأحدث الاسلحة وأشدها فتكا وتدمــيرا وامتدت آثارها الى الحقول والمصانع والقرى والمــدن وأصــاب المدنيين من الكوارث والنكبات اضعاف ما أصاب الجيوش وما ان وضعت الحرب أوزارها حتى اجتمعت الدول المحبة للسلام التي أعلنت الحرب على دول المحور في (سان فرانسيسكو) لبحث قواعد السلام العام وأقر ميثاق هيئة الامم المتحدة في عام ١٩٤٥ بعد أن سبقه ومهد اليه خلال الحرب (ميثاق الاطلسي) ومؤتمرات (موسكو) (دمبارتون أوكس) و (يالتا) وجاءت أحكام الميثاق معبرة عن آمال الشعوب في حياة حرة آمنة متلافية لنواحي الضعف والنقص التي ظهرت بعد التجربة في ميثاق العصبة وجاء في ديباجته (نحن شعوب الامم وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الاجيال المقبلة من ويلات الحروب

التي في خلال جيل واحد جلبت على الانسانية مرتين أحزانا يعجز عنها الوصف ... وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح وأن نعيش معا في سلام وحسن جوار وأن نضم قوانا كي نحتفظ بالسلم والامن الدولي وأن نكفل بقبولنا مبادىء معينة ورسم الخطط اللازمة لها ألا نستخدم القوة المسلحة في غير المصلحة المشتركة) ونصت المادة الاولى من الميثاق على أن من مقاصد الهيئة (حفظ السلم والامن الدولي وتحقيقا لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الاسباب التي تهدد السلم ورفعها وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الاخلال بالسلم والتذرع بالوسائل السلمية وفقا لمبادىء العدل والقانون الدولي) ونصت المادة الثانية على أن يمتنع أعضاء الهيئة جميعا في علاقاتهم الدولية عن أن يهددوا بالقوة أو يستخدموها ضد سلامة الاراضي أو الاستقلال السياسي لاية دولة .

وعهد الميثاق بمهمة حفظ السلام والامن الدولي ومنع الحروب الى مجلس الامن وزوده بسلطة حل المنازعات التي من شأنها تعريض حفظ السلم والامن الدولي للخطر حلا سلميا كالتحقيق والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية ، أما اذا لم تنفع الوسائل السلمية وتطور النزاع وأصبح يهدد السلم والامن الدولي فان الميثاق منح المجلس اختصاصات أوسع نص عليها في الفصل السابع .

ويلاحظ أن واضعي الميثاق لم يجددوا حاجة للنص على تحريم الحرب الذي أصبح مبدأ مستقرا ومسلما به بعد الجهود التي سبقت الحرب واكتفى الميثاق بنبذ الحرب كوسيلة لتنفيذ السياسة القومية أو كأداة لحل المنازعات الدولية وهكذا حرمت كل صور الحرب طبقا لروح ومبادىء الميثاق باستثناء حالة الدفاع عن النفس (٩) .

....

٩ — قانون الحرب ص ٥٢ و ٥٢ و ٥٤ — الاساتذة : عبد العزيز علي ، عبد الفتاح عبد العزيز ، حسين درويش ، مطبعة الانجلو مصرية ١٩٥٢ .

الفصل السادس
جرائم الحرب

قواعد الحرب :

كانت الحرب في قديم الأزمان تمثل الفوضى والعنف والقسوة ولم تخضع لقواعد معينة وكان هم الدولة الانتصار بأي ثمن وبكل وسيلة ولم تكن المعارك سوى مجازر دموية رهيبة ، ثم أخذت العوامل المختلفة من دينية واجتماعية وانسانية تعمل على تخفيف حدة القسوة وظهرت فكرة وجوب توقف العنف والقسوة عند الحد الذي يكفي لتحقيق الغرض الذي من أجله قامت الحرب كما لا يجوز اللجوء الى أعمال القسوة بدون مبرر أو الحاق الضرر بغير المقاتلين. وهكذا خضعت لفكرة الرحمة بالانسانية وتحريم أعمال القتال المنافية لمبادئها وقد أدت هذه الى تطور قواعد قانون الحرب التي تمنع القسوة والعنف وحصر آثار الحرب في أضيق نطاق وتنظيم حقوق وواجبات المحايدين قبل المحاربين وأصبحت قواعد الحرب ملزمة للدول التي يجب أن لا تخرج عليها وأن تعمل على احترامها بواسطة قواتها البرية والحرية والجوية وتتوصل الدول الى ذلك بعدة وسائل :

١ ــ قيام الدولة بسن تشريع خاص يضع نصوص المعاهدة موضع التنفيذ كي تحمل السلطات الداخلية المختلفة على احترامها وتنص أحيانا المعاهدات على وجوب اتخاذ هذا الاجراء في داخل كل دولة موقعة ومن ذلك ما نصت عليه اتفاقية الصليب الاحمر

عام ١٩٢٩ من وجوب اتخاذ الدولة الاجراءات اللازمة لابـــلاغ جيوشها والاشخاص المكلفين بالعناية بمرضى وجرحى الحـرب حسب نصوص هذه المعاهدة .

٢ ـ اصدار تعليمات وفق قانون الحرب .

٣ ـ تكلف الدول بعبء انشاء جيوش نظامية تخضع للنظـام العسكري وتخدم القواعد والتعليمات .

٤ ـ الحاق مستشارين قانونيين بالجيش تكون مهمتهم ارشاد رجال الجيش الى حقوقهم وواجباتهم .

٥ ـ تنص الدولة أحيانا في قوانينها على معاقبة كل من يخالف قانون الحرب سواء كان المخالف من رعاياهـا أو من المشتركين في جيوشهـا .

٦ ـ انشاء الدول لمحاكم الغنائم التي تقيمها على اقليمهـا ضمانا لاحترام أحكام هذا القانون .

الجزاءات المترتبة على الاخلال بقواعد الحرب :

اذا قامت الحرب ولم تلتزم دولة ما بحدود قانون الحرب أو تعمدت الخروج عليه اعتبرت مسؤولة عن تصرفاتها وتصرفـات جيشها وترتب تعرضها لبعض الجزاء وحق الدولة في محاكمة جنود العدو الذين يرتكبون مخالفات لقانون الحرب حق مسلم به وجرى عليه العرف الدولي. وقد يرتكب المخالفة بعض رعايا دولة العدو أو بعض رجال جيش العدو ثم يقعون في قبضة الدولة كأسرى حرب وحينئذ تستطيع الدولـة الآسرة محاكمتهم كالاجهـاز على القتلى والسرقات في ميادين القتال في الجرحى والاسرى أما الاعمـال التي يقوم بها العسكريون في حدود القانون فلا يجوز محاكمتهم عليها فلقد حاكمت ايطاليا بعض الطرابلسيين بتهمة الاجهاز على الجرحى الايطاليين في الحرب التركية عام ١٩١٢ كما حوكم بعض الضباط الالمان الاسرى لدى الحلفاء في الحرب العالمية الاولى كما تستطيع الدول القصاص وأخذ الثأر ، والقصـاص لا يعتبر حقا تتمتع بـه الدولة وانما هو اجراء استثنائي يلجأ اليه في الضرورة القصوى

ردا على مخالفة الدولة المعتدية لاحكام قانون الحرب شريطة أن تنعدم الوسائل الاخرى لحمل الدولة المخلة على الامتناع عن هذا الاخلال والا يكون هناك عدم تناسب غير عادل بين المخالفة والقصاص وألا تخرج الدولة في قصاصها على مبادىء الانسانية كما يجوز للدولة المطالبة بالتعويض عن الضرر الذي أصابها نتيجة الاجراء غير المشروع(١)وفي الحرب الايطالية الاولى اكتفي بالتعويض عن الاضرار المادية التي أحدثتها المانيا بالحلفاء ضمن التضمينات العامة التي فرضت على الحكومة الالمانية وكانت أشد العقوبات وأقساها فقد ألقيت على المانيا تبعة كل ما سببته الحرب من خسائر واضرار وفرض عليها أن تقدم للحلفاء عينا ومن غير ثمن كثيرا من البضائع كما طلب اليها أن تسلم كل أسطولها التجاري تقريبا ومقادير لا حصر لها من الفحم والماشية والآلات وغيرها وأعطت فرنسا حق استغلال وادي السار الغني (٢) .

الحرب العالمية الاولى :

تعتبر هذه الحرب أول حرب عالمية عصرية شملت جميع القارات والمحيطات فأهلكت من شبان العالم الكثير ودمرت الكثير من المرافق والمنشآت وخربت مصادر الانتاج والثروة وأصاب المدنيين مثلما أصاب المحاربين أو أكثر فلا عجب أن يتجه الرأي العام العالمي اثر انتهائها الى المطالبة بتوقيع العقوبات على مثيري الحرب وموقدي نارها واستجاب زعماء العالم فاشتملت معاهدة فرساي على قسم خاص بالجزاءات يتضمن المعاقبة على الجريمة ضد السلام وعلى جرائم الحرب.فالاولى لا يرتكبها الا الزعماء والحكام

....

١ ــ قانون الحرب ــ المبحث الثالث ــ الاساتذة : عبد العزيز علي ، عبد الفتاح عبد العزيز ، حسين درويش مطبعة الانجلو مصرية ١٩٥٢ .

٢ ــ النتائج السياسية للحرب العظمى ــ الناحية التأديبية ــ رمزي ميور ترجمة محمد بدران مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ .

الذين يدفعون دولهم الى الاعتداء على دول أخرى فهي في الحقيقة جريمة اشعال حرب الاعتداء بينما جرائم الحرب هي التي ترتكب اخلالا بقواعد ونظم وعادات الحرب كمعاقبة الاسرى بغير حق أو تعذيبهم أو عدم العناية بالجرحى أي مخالفة أحكام القانون الدولي المتعلقة بالحروب .

ولقد قررت المادة ٢٣١ من معاهدة فرساي مسؤولية المانيا عن الحرب تقريرا صريحا واضطرت المانيا الى الاعتراف بهذا القرار وتوقيعه كما نصت المادة ٢٢٧ على اتهام (وليم هوهنزلرن الثاني) امبراطور المانيا السابق بارتكاب جريمة كبرى ضد الاخلاق الدولية وقدسية المعاهدات وعلى أن محكمة خاصة سوف تؤلف لمحاكمة المتهم من خمسة قضاة تعينهم كل من الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان وان المحكمة تحاكم وفقا للمبادىء المستمدة من السياسة الدولية ومع مراعاة الالتزامات الصريحة والاتفاقات الدولية ، لكن الهولنديين الذين التجأ اليهم الامبراطور الالماني أبوا أن يسلموه . وكان في النية أيضا أن يحاكم أمام محكمة عسكرية من الحلفاء عدد من الضباط الالمان الذين خالفوا القوانين باعتبارهم مجرمي حرب ولم ينفذ هذا أيضا الا انه عرض على المحاكم الالمانية عدد قليل من القضايا الهامة وكانت حجة هولندة ان الجرائم المتهم بها الامبراطور السابق وأساسها انتهاكه للخلق الدولي ولحرية المعاهدات غير منصوص عليها في القانون الهولندي(٣) ضمن الجرائم التي يسلم المجرم الاجنبي اللاجىء من أجلها كما أنها غير واردة أيضا في المعاهدات التي تكون هولندة طرفا فيها والحقيقة فان حكومات الحلفاء لم تمارس ضغطا جديا على هولندة كما قامت في انكلترا دعاية ضد تسليمه وقال لويد جورج عبارته المشهورة (ان معنى شنق القيصر بدء حرب عالمية أخرى) .

....

٣ ــ قانون الحرب ــ المبحث الثاني ــ الاساتذة : عبد العزيز علي ، عبد الفتاح عبد العزيز ، حسين درويش المطبعة الانجلو مصرية ١٩٥٢ .

ويلاحظ أن تطورا هاما قد حدث لاول مرة عقب الحرب العالمية الاولى حيث اعتبرت الحرب جريمة ضد السلام تستوجب مسؤولية من أشعل نيرانها مسؤولية جنائية وتستوجب عقوبة بدنية توقع عليه شخصيا. ونصت المادة ٢٢٨ من معاهدة فرساي على وجوب تسليم المانيا للحلفاء وشركائهم بحقهم في محاكمة الذين اتهموا بارتكاب مخالفات ضد قوانين وعادات الحرب أمام محاكمهم العسكرية وتعهد المانيا بتسليم هؤلاء ونصت المادة ٢٢٩ على المحاكمة أمام المحكمة العسكرية التابع لها المجنى عليه واذا تعدد المجنى عليهم تشكلت المحكمة العسكرية من قضاة من الجهات المتعددة المختصة .

والمؤسف أن هذه النصوص لم تطبق تطبيقا عمليا ولم تتم المحاكمات كما تصورتها المعاهدة بسبب معارضة الالمان من جهة وتردد الحلفاء وتراجعهم من جهة أخرى .

ولم يقدم للمحاكمة الا نفر قليل من الضباط الالمان لدى المحاكم الفرنسية والانكليزية وحوكم بعضهم غيابيا ولم تنفذ الاحكام ضدهم أما كبار القواد والساسة الالمان من مجرمي الحرب أمثال هندنبرغ ولودندروف وغيرهم فقد طلب الحلفاء الى المانيا تسليمهم ثم عدل عن المحاكمة تناسيا للاحقاد ومن أجل فتح صفحة جديدة .

وقامت المانيا باجراء محاكمات شبه صورية انتهى أغلبها بالبراءة وبعضها بعقوبات بسيطة ثم طلب الحلفاء تسليم مجرمي الحرب فرفضت المانيا تسليمهم .

الحرب العالمية الثانية :

لقد وقعت في هذه الحرب كثير من الاعمال البربرية والجرائم الوحشية وعامل الالمان سكان المناطق المحتلة معاملة قاسية بعيدة عن الرحمة والانسانية كما قاموا بكثير من الاعتداءات على المدنيين . والعسكريين والمدن والقرى وتنكروا لاحكام وقواعد القانون الدولي الامر الذي دفع الدول المتحالفة الى التفكير جديا في محاكمة المسؤولين

من الالمان عقب انتهاء الحرب وصدرت عدة تصريحات خلال الحرب منها تصريح (سان جيمس) في ١٣ كانون الثاني ١٩٤٢ باسم الدول المتحالفة والحكومات اللاجئة في لندن لمعاقبة مجرمي الحرب الذين ارتكبوا جرائم حرب واتبعوا وسائل القسوة والوحشية ضد المدنيين ثم صدر تصريح موسكو في تشرين أول ١٩٤٣ وبين بوضوح اصرار الحلفاء على معاقبة المانيا وحلفائها على الجرائم الوحشية التي ارتكبها جنودها ورجالها بالاراضي المحتلة والمحررة وقررت روسيا والولايات المتحدة باسم الدول المتحالفة أنه سوف يطلب تسليم الضباط النازيين المسؤولين الذين ارتكبوا ضد الانسانية بمجرد منح الهدنة لالمانيا وسيحاكمون في البلاد التي اقترفوا فيها جرائمهم لمحاكمتهم طبقا لقوانين هذه البلاد كما قررت الحكومات الحليفة محاكمة كبار مجرمي الحرب الذين ارتكبوا جرائم بالجملة وستكون محاكمتهم بقرار من الدول الحليفة .

وقدمت روسيا في ١٨ كانون الاول ١٩٤٣ ثلاثة من الجنود الالمان وجندي روسي مشترك معهم للمحاكمة بتهمة تعذيب الاهالي الروس والخروج على القانون أثناء احتلال الجيش الالماني (لخاركوف) وحكم عليهم بالاعدام ونفذ فيهم ، وأعلنت المانيا في ٢٥ كانون الاول عام ١٩٤٣ انها اتخذت التدابير لمحاكمة الطيارين الانكليز والامريكيين الاسرى لديها بتهمة الخروج على القانون لضربهم السكان المدنيين أثناء غاراتهم على المدن الالمانية .

ولجأ الروس الى القسوة والعنف أثناء تقدمهم في الاراضي الالمانية عقب تراجع الالمان ، وحدثني شاهد عيان كان موجودا في برلين عن أعمال النهب والسلب والحرق والاغتصاب التي قام بها الروس عند دخولهم المدينة وتفتيش البيوت ولجوئهم الى قتل كل من يحاول ان يحمي عائلته او يدافع عن ابنته او زوجته (٤) .

....

٤ ـ كان الاستاذ عبد اللطيف الكمالي موجودا في برلين أثناء دخول القوات الروسية وقد حدثني عن اعمال الجنود الروس في المدينة .

من العسير تقيد المحارب بالقوانين والانظمة في ساحة القتال مهما بلغت حضارة وتقدم الدولة التي ينتمي اليها والجنود في الغالب يتصرفون بقسوة ويعاملون السكان بوحشية عند دخولهم أرض العدو واحتلالهم لقراه ومدنه وقد يتحولون الى وحوش ضارية عند استيلائهم على موقع دفاعي أو حصن أو مدينة قاومت بعنف واستبسلت في الدفاع وليس من المستبعد أن تنتهي المعركة بمذبحة يتم فيها القضاء على جميع المدافعين .

لقد وصف المارشال (كونييف) احد القادة الروس سير معركة (كورسن — تشافشانكوفسكي) التي تقارن عادة في الاتحاد السوفييتي بمعركة (ستالينغراد) فقال : لقد رفضت المانيا التسليم ، فحوصر حوالي مائة ألف الماني ولم يستسلموا ، فبعثرت الدبابات أسلحتهم ثم قضى عليهم الفرسان القوزاق نهائيا ، لقد تركنا للقوزاق حرية التصرف ، فقطعوا تلك الايدي التي ارتفعت للتسليم (٥) .

ويقول (ميلوفان دجيلاس) في كتابه محادثاتي مع ستالين : « خلال حديثي له عن أسلوب الحرب في يوغوسلافيا ، أشرت الى اننا لم نأخذ اسرى المان ، لانهم قتلوا جميع الاسرى اليوغسلاف ، قاطعني ستالين ضاحكا وقال : كان أحد رجالنا يقود فريقا من الاسرى الالمان ، وخلال الطريق قتل الجميع الا واحدا ، وعندما وصل الى مقره سألوه : واين الاخرون ؟ فأجاب : لقد نفذت اوامر القائد العام فقد قال لنا : اقتلوا الجميع حتى الرجل الاخير ، وهذا هو الرجل الاخير ! »

كما اقدم الجنود الروس اثناء عبورهم بروسيا الشرقية على قتل جميع الالمان من نساء واطفال ، وقد نقل خبر ذلك الى ستالين وسئل : ماذا يجب أن نفعل ؟ فأجاب « اننا نسرف في القاء

....

٥ — ميلوفان دجيلاس — محادثاتي مع ستالين — ترجمة ذو الفقار القبيسي وسمير عطاالله ص ٥٣ بيروت ١٩٦٢ .

المواعظ على جنودنا .. فلنترك لهم قليلا من حرية التصرف» (٦) .

واذا كانت تصرفات الجنود الروس في المانيا تبرر على انها من قبيل الثأر والانتقام فكيف نفسر تصرفاتهم مع الشعب اليوغسلافي وهو شعب صديق ، وبالرغم من ان السلطات اليوغسلافية لم تحص الاعمال المنافية للقانون التي قام بها جنود الجيش الآخر الا بعد مضي فترة طويلة فقد تبيين من الشكاوى التي تقدم بها السكان وجود ١٢١ حالة اغتصاب ، منها ١١١ قضية اغتصاب وقتل ، و١٢٠٤ قضية سلب وهي أرقام كبيرة اذا علمنا أن الجيش الاحمر لم يعبر الا الزاوية الشمالية الشرقية من يوغوسلافيا (٧) .

والحقيقة فان العداء والحقد قد بلغ اشده بين الشعبين الالماني والروسي خلال الحرب العالمية الثانية تجلى في القسوة والوحشية التي عومل بها السكان المدنيون والقوات المسلحة واسرى الحرب ، فقد بلغ عدد الاسرى الالمان في ستالينغراد (٩١٫٠٠٠) عاد منهم (٥٠٠٠) اضطروا الى السير لمسافات طويلة فوق الثلوج والجليد بالرغم من تعبهم واصابتهم بجروح فتفشى فيهم مرض التيفوس . ولقد بقي الاسرى الالمان في روسيا فترة طويلة اذ لم يعودوا الا في عام ١٩٥٦ بعد زيارة (اديناور) لروسيا اما عدد الاسرى الروس في المانيا فقد تجاوز الخمسة ملايين فقد منهم مليونان .

وبعد هزيمة المانيا واعلان الهدنة ، بدأ الحلفاء بالتهيؤ لمحاكمة مجرمي الحرب وصدر تصريح في ٣ آب ١٩٤٥ من الدول الثلاث : روسيا وانجلترا والولايات المتحدة يؤكد عزمها على محاكمة كبار

....

٦ — ميلوفان دجيلاس — محادثاتي مع ستالين — ترجمة ذو الفقار القبيسي وسمير عطاالله ص ١٠٧ .

٧ — ميلوفان دجيلاس — محادثاتي مع ستالين — ترجمة ذو الفقار القبيسي وسمير عطا الله ص ٨٥ .

مجرمي الحرب بأسرع وقت ، ثم وقعت الدول الكبرى في لندن في ٨ اب ١٩٤٥ ميثاقا خاصا لمحاكمة مجرمي الحرب من دول المحور وسمي ميثاق لندن الذي وضع أسس الجريمة والعقوبة وكيفية المحاكمة وابيح لسائر الحكومات الانضمام اليه ، وقد فرق بين جرائم الحرب الكبرى وهي التي ارتكبها كبار المسؤولين بدول المحور والخاصة باشعال نار الحرب واصدار الاوامر المخالفة للقوانين والاتفاقات الدولية وبين الجرائم العادية التي ارتكبت في داخل البلاد المحتلة من قبل الجيوش الالمانية ، وجعل الميثاق للدول صاحبة الشأن حق المطالبة بتسليم المتهمين بالجرائم العادية ، اما بالنسبة لجرائم الحرب الكبرى فقد نص على تشكيل محكمة عسكرية دولية عليا (٨) .

....

٨ ــ قانون الحرب ــ مشه ..ية الحرب الاسآتذة : عبد العزيز علي ، عبد الفتاح عبد العزيز ، حسين ..رويش ، مطبعة الانجلو مصرية ١٩٥٢ .

الفصل السابع

محاكمات نورمبـــــرغ

بينات ووثائق

في ٢١ تشرين الاول بدأ في نورمبرغ استجـــواب الزعماء النازيين بتهمة جريمة الحرب وكان عددهم (٢٣) وفي تشرين الثاني عقدت المحكمة جلستها الصباحية وبدأت اقامة الدعـــاوى والمرافعـــات وتليت التهم لتسجيلها وكانت :

١ ــ التهمة الاولى : المؤامرة العامة ضد السلام واضطهـــاد النازيين للاجانب .

٢ ــ التهمة الثانية : الجرائم التي ارتكبـــت ضـــد السلام وانتهاك حرمة المعاهدات والاتفاقات الدولية .

٣ ــ التهمة الثالثة : اعمال القتل والمرض والتخريـــب التي اصابت السكان المدنيين واسرى الحرب وقتل الرهائـــن وتسخير العمـــال .

٤ ــ التهمة الرابعة : وتشمل الجرائم الموجهة ضد الانسانية وجرائـــم الابـــادة والاستعبـــاد والاضطهـــاد واحتـــلال الاراضي .

وقد نفى جميع المتهمين التهم والقى ممثل العدالة خطبة طويلة تعرض فيها الى تاريخ حزب النازي الحافل بالقتـــل والارهـــاب والاضطهاد وتوالت جلسات المحاكمة صباحا وعصرا وقدمت جميع الادلة من شهادات وخطب وتصريحات واحاديـــث تلفونية وافلام

ووثائق ومستندات نكتفي بايراد شذرات منها لنقف على وحشية الالمان وجرائمهم الفظيعة .

لقد شق حزب النازي طريقه نحو الحكم بمساعدة فرق العاصفة التي استطاعت عن طريق الارهاب اخماد الحركة الديموقراطية ثم قام النازيون باحراق مجلس الرايخستاغ بعد مضي شهر واحد من استيلاء هتلر على الحكم وكان خدعة منهم لارغام هندنبرغ على وقف دستور (فيمار) واعطاء هتلر سلطة دكتاتورية واسعة ثم ألغيت الاتحادات والنقابات وزج بالكثير من رجال الدين في معسكرات الاعتقال والتعذيب ومضى الادعاء العام يذكر الجرائم التي اتخذت ضد اليهود زاعما انها من افظع الجرائم وعرض فيلم ظهرت فيه مناظر المعتقلين يحرقون وهم احياء في عنابر الاعتقال واستمر الفيلم وسلط الضوء بوضوح على جثة بشرية وبدأ احد الضباط المشاهدين يعلق فقال لقد تم حتى الآن دفن (١٧٠٠) جثة ووصف ما تعانيه الاسر في معسكرات الاعتقال وظهرت في الفيلم جثة امرأة عارية رميت في حفرة وتوالت المناظر المؤلمة وظهرت جثث الموتى والقتلى .

ووصف الشاهد الجنرال لاهوزن خطة قصف (وارسو) عاصمة بولندة بالقنابل وافناء النبلاء ورجال الفكر البولنديين والقضاء على اليهود والتخلص من رجال الدين واضاف الشاهد ان هملر حصل على ملابس بولندية وأخرج من المعتقلات بعض المعتقلين البسهم الملابس البولندية ثم امرهم بالهجوم على محطة اذاعة (جلاوتيز) الالمانية لتبرير الهجوم على بولندة وأضاف الشاهد أن (كيتل) قال في احد الاجتماعات ان هتلر قد اتخذ قرار اعدام المواطنين البولنديين واليهود ورجال الدين وفي حالة رفض الجيش تنفيذ ذلك فسيعهد الى رجال الحرس الاسود والمنظمات النازية بهذه المهمة وقيل في الاجتماع ايضا بوجوب احراق اليهود وجلد البولنديين حتى الموت .

ثم تليت وثائق عثر عليها في مخلفات (هملر) والحرس الوطني

وفيها تفاصيل وافية عن معسكرات الاعتقال وعمليات الاحراق في افران الغاز وقرأت المحكمة محضرا لجلسة عقدها هانس فرانك حاكم بولندة في (وارسو) عام ١٩٤١ وحضرها رجال الحرس الاسود وكبار موظفي الجستابو قال فيها (لقد آن الاوان لتصفية الموقف مع اليهود فقد كفانا ترددا فانهم في المانيا ينتقدون تدابيرنا ضد اليهود ويصفونها بالقسوة والفظاعة ، ولكن يجب أن نقيم وزنا لتلك الانتقادات وان تكون الرحمة من نصيب الالمان فقط واما اليهود فليس لهم سوى العنف والتدمير كما يجب قتلهم وسحقهم اينما وجدوا من دون رحمة أو شفقة ، ولقد اعترف فرانك بأنه أشرف بنفسه على افناء المعتقلين (١) وان هتلر بنبوغه وعبقريته وسيطرته وقسوته استطاع ان يسيطر على قلبه وروحه وعقله فجعل منه سفاكا متعطشا للدماء بل جعل منه اعظم سفاح عرفه التاريخ وان هتلر هو المحرك لجميع الرجال والدافع لارتكابهم افظع الجرائم فهو الذي ابتكر غرف الغاز وهو الذي استنبط كلمة (المعاملة الخاصة) الواردة في اوامر الابادة والافناء ومعناها الاعدام شنقا .

ثم تليت بعض الادلة والوثائق عن المجاعات وعمليات الابادة، وتابع الادعاء العام قراءة الوثائق والبينات التي تنص على ابادة اليهود في بولندة وجاء في مذكرة (فرانك) (سوف تعامل بولندة كمستعمرة ويجب ان نسخر البولنديين كالعبيد لخدمة شعب الامبراطورية الالمانية العظمى ، كما يجب أن نبيد اليهود أنى وجدناهم وجاء في شهادة (اولندروف) الذي تولى قيادة فصيل القتال (د) من حزيران عام ١٩٤١ حتى حزيران ١٩٤٢ في جنوب أوكرانيا وكان في الوقت نفسه رئيس دائرة الامن العسكري لدى الجيش الحادي عشر بأن مهمته كانت تنفيذ الاوامر الصادرة بتصفية اليهود وجميع المفوضين السياسيين الشيوعيين الملحقين بالجيش الاحمر الى

....

١ ــ محاكمات نورمبرغ الفصل الثاني ج.م. جلبرت ترجمة فتح الله محمد وجورج شاهين ــ مطبعة المنار ــ دمشق .

قتلهم وان هتلر هو الذي اصدر امر تصفية اليهود وغيرهم وان فصيله أفنى (٩٠) ألف شخص من اليهود والمفوضين الشيوعيين وان عمليات افناء الرجال كانت تجري في الحفر الطبيعية في خنادق الدبابات حيث يطلق عليهم الرصاص اما افناء النساء والاطفال فكان يجري في غرف الغاز بناء على اوامر هملر الذي ارسل الى الجبهة سيارات تحمل هذه الغرف أما بقية السكان فكانوا يعاملون كأسرى حرب عاديين وقد حدثت بعض الاخطاء عند تنفيذ هذه الاوامر في المراحل الاولى حيث أعدم بضعة آلاف من مسلمي القرم والقفقاس خطأ اذ ظنتهم دائرة الفرز يهودا بسبب ختانهم .

وفي أواخر آب عقدت محكمة نورمبرغ جلستها قبل الاخيرة لاستماع دفاع المتهمين الاخير عن انفسهم وقد اكمل المتهمون دفاعهم الواحد بعد الآخر واعيدوا الى غرفهم ينتظرون صدور الحكم وتوالت الاسابيع وفي اليوم الاول من تشرين الاول عام ١٩٤٦ صدر حكم المحكمة وتقرر اعدام ١١ شخصا من المتهمين وبرىء ثلاثة وحكم على هيس بالسجن المؤبد وعلى البارون فون فورات بالسجن ١٥ سنة واستطاع غورنغ ان ينتحر قبل موعد اعدامه ببضع ساعات (٢) .

مدى مسؤولية مجرمي الحرب

وجه الاتهام لكبار رجال المانيا الرسميين والنازيين طبقا للمادة (٦) من ميثاق لندن بصفتهم الشخصية اولا وبصفتهم اعضاء في وزارة الرايخ الالماني ثانيا ، ولكونهم اعضاء في الحزب النازي ثالثا واخيرا بصفتهم اعضاء في القيادة العليا وهيئات الاركان العسكرية والبوليس السري .

ولقد خرج ميثاق لندن على القواعد المرعية في الحروب

....

٢ — محاكمات نورمبرغ الفصل الثالث والرابع الدكتور ج.م. جلبرت ترجمة فتح الله محمد وجورج شاهين ، مطبعة المنار — دمشق .—

السابقة التي تقضي بتمتع رؤساء الدول وقادتها بالامان والضمان والعفو في حالة الهزيمة والتسليم فتصف المادة السابعة من ميثاق لندن على أن مركز المتهمين الرسمي كرؤساء للدولة أو من كبار رجالها وموظفيها لا يعتبر مبررا لاعفائهم من المحاكمة او تخفيف العقوبة كما لا يرفع المسؤولية ادعاؤهم بأنهم ينفذون اوامر ووصايا قيادتهم العليا .

لكن الحلفاء خرجوا على هذا النص بالنسبة لليابان حيث أعفى الامبراطور هيروهيتو من المحاكمة والمسؤولية وحوكم رئيس الوزراء ومن يليه .

لقد طبقت المحكمة ميثاق لندن سنة ١٩٤٥ واسترشدت باتفاقيات لاهاي ونصوص معاهدة فرساي واتفاقات لوكارنو وميثاق بريان كيلوغ ومعاهدات المانيا بعدم اعتدائها على جيرانها المبرمة خلال عام ١٩٣٨ و١٩٣٩ واتفاق ميونيخ سنة ١٩٣٧ وغير ذلك من التعهدات والمواثيق التي التزمت فيها المانيا بحفظ السلام وعدم الاعتداء على غيرها ، وقد برر واضعو الوثيقة اتهامهم للالمان بأن اساس المحاكمة هو الرأي العام في البلاد المنتصرة الذي لا يرضيه محاكمة المتهمين وعقابهم لانهم خسروا الحرب ولكنهم يحاكمون محاكمة عادلة فاذا ثبتت ادانتهم نزل بهم العقاب لانهم تعمدوا اثارة الحرب وانتهكوا حرمة القوانين والمعاهدات الدولية ولا عبرة للاحتجاج بأن هذه الاعمال ارتكبت في وقت لم تكن فيه القوانين تقضي بعقابها فهي عبارة عن قتل وابادة بالجملة على نطاق لم يسبق له مثيل ، ففي كل حرب وفي هذه الحرب عوقب كثيرون ممن ارتكبوا جرائم ضد الاسرى. فمن العدل بل من الواجب أن يعاقب كبار المدبرين والموجهين والمخططين. ولقد اثار الدفاع عن المتهمين اعتراضات قوية حول شرعية المحاكمة ومدى مخالفتها لمبدأ لا جريمة ولا عقاب الا بنص وان رجعية القانون امر تستنكره القوانين الجنائية الحديثة وردت المحكمة عليها وأخيرا صدرت الاحكام وكانت

نهائية غير قابلة للنقض او اعادة النظر .

وأهم ما يلاحظ على المحاكمة :

١ ـ ان المحاكمة فيما يتعلق بجريمة ضد السلام لا يمكن اعتبارها قانونية اذ هي في الحقيقة انتقام المنتصر من المهزوم .

٢ ـ ان المحاكمة ذهبت الى حد اباحة اعدام رؤساء الدول والحكومات وهذا يتنافى مع العرف الدولي ومعاملة المثل بالمثل .

٣ ـ خلو المحكمة من قضاة محايدين لانها كانت تتكون من ممثلي الدول الاربع المنتصرة على المانيا (٣) .

....

٣ ـ قانون الحرب ـ المبحث الثاني ـ الاساتذة : عبد العزيز علي ، عبد الفتاح عبد العزيز ، حسين درويش مطبعة الانجلو مصرية ١٩٥٢ .

الفصل الثامن

اتفاقية جنيف بشأن معاملة اسرى الحرب المؤرخة ١٢ اب ١٩٤٩

لم تحقق اتفاقية جنيف سنة ١٩٢٩ أو اتفاقية لاهاي سنة ١٩٠٧ اهدافها وعجزت عن تأمين الحماية والرعاية للجرحى والمرضى والاسرى كما ان الحروب التي تلتها الحقت اضرارا جسيمة بالسكان والمدن الامر الذي دعا الى وجوب اعادة النظر في الاتفاقيات وتطويرها حماية للانسان وحفظا لكرامته فانعقد المؤتمر الدولي السابع للصليب الاحمر في استوكهلم والذي دعا اليه مجلس الاتحاد السويسري بقصد اعادة النظر في الاتفاقيات السابقة ووضع اتفاقية خاصة بحماية الاشخاص المدنيين وقت الحرب ثم انعقد المؤتمر السياسي في جنيف في المدة من ٢١ نيسان الى ١٢ اب وتباحث في مشروع الاتفاقيات الاربع التي سبق أن بحثها واقرها المؤتمر الدولي في استوكهولم فأقرّت ومنها اتفاقية جنيف بشأن معاملة اسرى الحرب المؤرخة في ١٢ آب ١٩٤٩ . كما اتخذ المؤتمر أحد عشر قرارا .ومهما يكن الامر فان الاتفاقية تعتبر خطوة تقدمية وانسانية ضمنت للاسرى معاملة كريمة ورعاية مناسبة وتلافت نواقص وعيوب اتفاقية جنيف السابقة ، لكن العبرة في تطبيق النصوص والتقيد بها ، فقد اظهرت حرب كوريا وفيتنام عدم

التزام الدول بها وعومل الاسرى معاملة سيئة .

لقد تناولت هذه الاتفاقية شؤون الاسرى باسهاب وعالجت مشاكلهم وكفلت حقوقهم وحمايتهم ولا بد من بحثها بالتفصيل باعتبارها احدث اتفاقية دولية .

نطاق الاتفاقية

نصت المواد من (١) الى (٧) على من تشملهم الاتفاقية وحالات تطبيقها فاشترطت المادة (٢) تطبيقها في جميع حالات اعلان الحرب او في حالة اشتباك مسلح ينشب بين طرفين او اكثر من الاطراف المتعاقدة ، وان لم يكن احد الاطراف قد اعترف بحالة قيام الحرب وذلك بالاضافة الى الاحكام التي تنفذ وقت السلم ، وحتى اذا لم تكن احدى الدول المشتبكة في القتال طرفا موقعا على الاتفاقية فان الدول الموقعة تبقى ملتزمة باحكامها في علاقاتها المتبادلة وعليها ايضا ان تلتزم بها مع الدول غير الموقعة اذا قبلت هذه الاخيرة احكام الاتفاقية وطبقتها اما المادة (٣) فتناولت قيام اشتباك مسلح ليست له صبغة دولية في أراضي أحد الاطراف المتعاقدين وأوجبت ان يطبق اطراف النزاع كحد ادنى الاحكام التالية :

١ ـ معاملة الاشخاص الذين ليس لهم دور ايجابي في الاعمال العدائية بما فيها افراد القوات المسلحة الذين ابعدوا عن القتال بسبب المرض أو الجروح أو الاسر أو لاي سبب آخر معاملة انسانية في جميع الاحوال وان لا تتأثر معاملتهم او يصيبهم ضرر بسبب العنصر او اللون او الدين او العقيدة او الجيش او النسب او الثروة واعتبرت الاعمال التالية محظورة في كل الاوقات والاماكن بالنسبة للاشخاص المذكورين اعلاه :

أ ـ أعمال العنف ضد الحياة والشخصية وعلى الاخص القتل وبتر الاعضاء والمعاملة القاسية والتعذيب .

ب ـ اخذ الرهائن .

ج ــ الاعتداء على الكرامة الشخصية وعلى الاخص التحقير والاهانة والمعاملة المزرية .

د ــ اصدار أحكام وتنفيذ عقوبات دون محاكمة سابقة أمام محكمة قانونية تكفل جميع الضمانات القضائية .

٢ ــ جمع الجرحى والمرضى والعناية بهم .

وتناولت المادة (٤) من هم اسرى الحرب بالنسبة للاتفاقية فاعتبرت جميع الافراد الذين يتبعون احدى الفئات التالية ويقعون في ايدي العدو :

١ ــ افراد القوات المسلحة التابعون لاحد اطراف النزاع وكذلك أفراد الميليشيا المتطوعة التي تعتبر جزءا من هذه القوات المسلحة .

٢ ــ أفراد الميليشيا الاخرى وأفراد الوحدات المتطوعة الاخرى بما في ذلك الذين يقومون بحركات مقاومة نظامية ويتبعون احد اطراف النزاع ويعملون داخل او خارج اراضيهم حتى لو كانت هذه الاراضي محتلة بشرط توفر ما يلي :

أ ــ ان تكون بقيادة آمر مسؤول .

ب ــ ان تكون لها علاقة مميزة واضحة .

ج ــ ان تحمل اسلحتها بشكل ظاهر .

د ــ ان تطبق قوانين وتقاليد الحرب في عملياتها الحربية .

٣ ــ افراد القوات المسلحة النظامية الذين يعلنون ولاءهم لحكومة او سلطة لا تعترف بها الدولة الحاجزة .

٤ ــ الاشخاص الذين يرافقون القوات المسلحة دون أن يكونوا جزءا منها كالمراسلين الحربيين ومتعهدي التموين وفرق الترفيه والتسلية بشرط ان يكون لديهم تصريح خاص .

٥ ــ نوتية البواخر التجارية وملاحي الطائرات المدنية التابعين لاطراف النزاع .

٦ ــ سكان الاراضي غير المحتلة الذين يحملون السلاح باختيارهم عند اقتراب العدو لمقاومته دون ان يكون لهم الوقت الكافي

لتنظيم انفسهم في وحدات مسلحة بشرط احترام قوانين وتقاليد الحرب وحمل السلاح بشكل ظاهر .

كما نصت المادة نفسها على معاملة الاشخاص التالين كأسرى حرب بمقتضى هذه الاتفاقية :

١ ــ الاشخاص الذين يتبعون او كانوا تابعين للقوات المسلحة الخاصة بالاراضي المحتلة اذا رأت دولة الاحتلال ضرورة اعتقالهم بسبب ولائهم وعلى الاخص اذا قاموا بمحاولة فاشلة للانضمام للقوات المسلحة التي يتبعونها والمشتبكة في القتال .

٢ ــ الاشخاص الذين يتبعون أي فئة من الفئات المبينة أعلاه الذين يصلون الى اراضي دولة محايدة او غير محاربة ويطلب الى هذه الدولة اعتقالهم بمقتضى القانون الدولي .

ونصت المادة (٧) على عدم جواز تنازل الاسرى عن بعض او كل الحقوق الممنوحة لهم بمقتضى هذه الاتفاقية او الاتفاقيات الخاصة .

الحماية العامة لاسرى الحرب

نصت المادة (١٢) على اعتبار اسرى الحرب تحت سلطة دولة العدو ، لا تحت سلطة الافراد او الوحدات العسكرية التي اسرتهم ، والدولة الحاجزة هي المسؤولة عن كيفية معاملتهم ويجوز نقلهم الى دولة أخرى تكون طرفا في الاتفاقية اذا رغبت الدولة المنقول اليها الاسرى وتوفرت لديها الامكانات وحينئذ تنتقل اليها مسؤولية تطبيق المعاهدة اما اذا قصرت هذه الدولة فعلى الدولة التي نقلت الاسرى أن تتخذ الاجراءات الكفيلة بتلافي التقصير او تطلب اعادة اسرى الحرب اليها .

ونصت المادة (١٣) على معاملتهم معاملة انسانية في جميع الاوقات وحظرت الاعمال التي يتسبب عنها موت أسير أو تعريض صحته للخطر واعتبرته اخلالا خطيرا بهذه الاتفاقية ومنعت بتر أي

عضو من الاسير او ان يكون موضعا لتجارب طبية وعلمية من اي نوع كان مما لا تقره الهيئة الطبية المختصة بعلاج الاسير كما اوجبت حماية الاسرى في جميع الاوقات من اعمال العنف والاهانة ومنعت شتمهم وتحقيرهم امام الناس او الالتجاء الى الاخذ بالثأر من اسرى الحرب. ونصت المادة (١٤) على حق الاسرى في احترام أشخاصهم وشرفهم واوجبت معاملة النساء معاملة تليق بجنسهن وان يحصلن على نفس المعاملة الحسنة التي يعامل بها الرجال كما يحتفظ الاسرى بكامل اهليتهم المدنية التي كانت لهم عند وقوعهم في الاسر ولا يجوز تقييد ممارسة الحقوق التي تكفلها الاهلية الا بالمقدار الذي تقتضيه دواعي الاسر. ونصت المادة (١٥) على تكفل الدولة الحاجزة بمعاشهم والعناية الطبية دون مقابل. ونصت المادة (١٦) على معاملتهم معاملة حسنة وعلى قدم المساواة دون ان يكون للنوع أو الجنس أو العقيدة الدينية أو السياسية أو ما شابه ذلك بأثر سيء على هذه المساواة مع مراعاة أي معاملة أفضل يمكن أن تمنح بسبب الحالة الصحية او السن او المؤهلات المهنية.

واجب الاسير وابتداء الاسر

نصت المادة (١٧) على كل اسير اذا سئل ان يذكر فقط اسمه الكامل ورتبته العسكرية وتاريخ ميلاده ورقمه فاذا لم يتمكن فمعلومات مماثلة واذ اخل مختارا بهذه القاعدة فقد يتعرض لانتقاص المزايا الممنوحة لرتبته أو حالته وعلى الدول المتحاربة أن تزود الافراد التابعين والمعرضين للاسر ببطاقة شخصية تضم المعلومات آنفة الذكر ويمكن ان تتضمن توقيع او بصمات حاملها او كليهما او أي معلومات اخرى ترغب الدولة المتحاربة في اضافتها بخصوص الاشخاص التابعين لها وعلى الاسير تقديم البطاقة اذا طلب اليه ولكن لا يجوز اخذها بأي حال من الاحوال.

ولا يجوز الالتجاء الى التعذيب البدني او المعنوي او اي نوع

من انواع الاكراه على اسرى الحرب لاستخلاص معلومات اضافية منهم من اي نوع كان ويمنع تهديد او اهانة او اساءة معاملة الذين يرفضون الاجابة اما الذين تمنعهم حالتهم الصحية والعقلية مـــن الادلاء بمعلومات شخصية فيسلمون الى القسم الطبي وتتخذ جميع الوسائل الممكنة لتمييز شخصيته مثل هـؤلاء ويجـري استجواب اسرى الحرب بلغة يفهمونها .

ونصت المادة (١٨) على ابقاء الاشياء والادوات الخاصــة والامتعة الشخصية مع اسرى الحرب ما عدا الاسلحـــة والخيول والمهمات الحربية والمستندات الرسمية كما لا يجوز ان تؤخذ منهـم شارات رتبهم وأوسمتهم وأدواتهم التي لها قيمة شخصية أو تذكارية ولا يجوز ان تؤخذ من اسرى الحرب النقود الا بأمـــــر رسمي وان تقيد المبالغ في سجل خاص واعطاء ايصال تفصيلي بها وتسلم الى اسرى الحرب بعد انتهاء اسرهم .

ونصت المادة (١٩) و (٢٠) على ترحيل الاسرى في أسرع وقت ممكن ونقلهم بطريقة انسانية وفي ظروف مشابهة لظروف تنقلات الدولة الحاجزة الى معسكرات أمينة بعيدة عن منطقة القتـــال . ويمكن ابقاء الجرحى والمرضى في منطقة الخطر مؤقتا اذا كان النقل يعرضهم لاخطار أشد . وعلى الدولة الحاجزة أن تزود أسرى الحرب المنقولين بطعام كاف ومياه صالحة للشرب وملابس ملائمة وعقاقير ومواد طبية واتخاذ الاحتياطات المناسبة لضمان سلامتهم أثنـــاء التنقل واعداد سجل خاص بأسرى الحرب المنقولين بأسرع ما يمكن .

حجز أسرى الحرب :

أجـــازت المـــادة (٢١) للدولة الحـــاجزة اخضـــاع أسرى الحرب للاعتقال ولها ان تعرض عليهم التزاما بعدم تجـــاوز حدود معينة بمعسكر اعتقالهم او بعدم تجاوز محيط المعسكر اذا كان محاطا بالاسلاك الا انها منعت حجز الاسرى حجزا شديـــــدا الا كاجراء ضروري تقتضيه حماية صحتهم ويقتصر ذلك على المدة التي تستمر فيها الظروف التي استوجبت الحجز ويجوز الافراج جزئيا او كليـــا

عن أسرى الحرب ازاء وعد أو تعهد منهم بقدر ما تسمح بذلك قوانين الدولة واوجبت المادة (٢٢) حجزهم في مباني مشيدة على الارض تتوفر فيها جميع الضمانات الصحية ولا يجوز حجزهم في مناطق غير صحية أو يضر جوها بصحة الاسرى ومنعت المادة (٢٣) حجزهم في مناطق معرضة للنيران او استغلال وجودهم لجعل بعض الاماكن والمناطق في مأمن من الخطر وينبغي أن تتوفر لهم أماكن تقيهم اخطار الغارات الجوية وان تميز معسكراتهم بحروف لاتينية واضحة من الجو كلما سمحت الاعتبارات الحربية .

السكن والاعاشة والملابس

نصت المادة (٢٥) على ان تتوفر في اقامة اسرى الحرب الشروط الملائمة المماثلة لقوات الدولة الحاجزة المعسكرة في نفس المنطقة وأن تكون صحية ملائمة لعادات وتقاليد الاسرى واشترطت المادة (٢٦) أن تكون وجبات الغذاء الاساسية كافية كما ونوعا بحيث تكفل سلامة الحالة الصحية للاسرى وعلى الدولة الحاجزة ان تصرف لهم اغذية اضافية اذا كانوا يؤدون اعمالا غير اعتيادية وان يزود الاسرى بمياه شرب كافية ويسمح لهم بالتدخين ويمنع ان تمس الاجراءات التأديبية الجماعية غذاء الاسرى .

ونصت المادة (٢٧) بتزويد الاسرى بكميات كافية من الملابس والملابس الداخلية والجوارب بحيث تكون ملائمة لجو الاقليم وأمرت المادة (٢٨) باقامة حوانيت في جميع المعسكرات تجهز الاسرى بالمواد الغذائية والصابون والسجائر وادوات الاستعمال الاخرى بأسعار مناسبة لا تزيد عن أسعار السوق المحلية .

العناية الصحية والطبية

يجب على الدولة الحاجزة اتخاذ جميع الاجراءات الصحية اللازمة لضمان النظافة ومنع الامراض الوبائية وان تتوفر مرافق صحية صالحة للاستعمال اما المعسكرات التي يوجد فيها اسرى

حرب من النساء فينبغي أن تخصص لهن مرافق خاصة . وبالاضافة الى الحمامات يجب تزويد الاسرى بكميات كافية من المياه والصابون لنظافة أجسامهم وغسل ملابسهم وأن يضم كل معسكر مستوصفا يجد فيه الاسرى كل ما يحتاجونه من عناية ودواء وغذاء وأماكن لعزل المصابين بأمراض معدية او عقلية اما المصابون بأمراض خطيرة او تقتضي حالتهم عملية جراحية او علاجا خاصا فيجب نقلهم فورا الى اي وحدة طبية عسكرية او مدنية لمعالجتهم حتى لو كانت عودتهم الى وطنهم قريبة جدا .

ويجب ان يمنح العجزة كالعميان وغيرهم تسهيلات خاصة ويفضل ان يقوم على العناية الطبية بأسرى الحرب افراد من الهيئة الطبية التابعة لدولة الاسير ولا يجوز منع اسرى الحرب من عرض انفسهم على السلطات الطبية لفحصهم وتتحمل الدولة الحاجزة جميع نفقات العلاج والاجهزة والمعدات اللازمة لسلامة صحة اسرى الحرب ويجري التفتيش الطبي مرة كل شهر على الاقل ويجوز تكليف اسرى الحرب من الاطباء والجراحين واطباء الاسنان والمرضات والمضمد الصحي بمباشرة الواجبات الطبية لفائدة الاسرى التابعين لنفس الدولة .

النشاط الديني والعقلي والبدني

يمارس اسرى الحرب شعائرهم الدينية بحرية تامة ولهم حضور الاجتماعات الدينية الخاصة بعقيدتهم بشرط مراعاتهم الاجراءات والتعاليم التي وضعتها السلطات العسكرية وتعد اماكن مناسبة لتقام فيها الخدمات الدينية ويستفاد من رجال الدين الذين يقعون في قبضة العدو والذين هم من نفس عقيدة الاسرى فيوزعون على مختلف المعسكرات ومناطق العمل .

وعلى الدولة الآسرة ان تشجع الاسرى على ممارسة النشاط الفكري والثقافي والرياضي والالعاب والمسابقات وان تهيء الاماكن والادوات اللازمة لذلك وان تتيح لاسرى الحرب فرص القيام بالتمرينات الرياضية .

الضبط والنظام

يوضع كل معسكر من معسكرات اسرى الحرب تحت السلطة المباشرة لضابط مسؤول يرتبط بالقوات المسلحة النظامية للدولة الحاجزة وعلى اسرى الحرب من ضباط صف وجنود اداء التحية لضباط الدولة الحاجزة اما الضباط الاسرى فيؤدون التحية لمن اعلى منهم رتبة فقط ولقائد المعسكر مهما كانت رتبته ويسمح بلبس علامات الرتب والاوسمة ويجب معاملة الضباط الاسرى ومن في حكمهم المعاملة التي تناسب رتبهم وسنهم ويخصص لخدمة مطاعم الضباط الاسرى مراتب من نفس قواتهم المسلحة .

عمل اسرى الحرب

يجوز للدولة الحاجزة استخدام اسرى الحرب اللائقين طبيا مع مراعاة سنهم وجنسهم وقدرتهم البدنية بقصد احتفاظهم بحالة صحية جيدة ومعنويات عالية ، ويقتصر عمل ضباط الصف على المراقبة فقط ولا يجوز تكليف الضباط بأي عمل الا اذا طلبوا عملا مناسبا فيجب ايجاده لهم ، كما لا يجوز استخدام الاسير في عمل غير صحي او خطير ما لم يتطوع للقيام به .

العلاقات بين اسرى الحرب والخارج

يسمح للاسير بمجرد وقوعه في الاسر او في خلال مدة لا تزيد عن اسبوع منذ وصوله الى المعسكر حتى لو كان معسكر انتقال وكذلك في حالة مرضه او نقله الى مستشفى او معسكر آخر بأن يكتب مباشرة الى عائلته من جهة والى المركز الرئيسي لاسرى الحرب المنصوص عنه بالمادة ١٢٣ من جهة اخرى ، بطاقة تشابه النموذج المرفق بالاتفاقية الحالية اذا أمكن ليخبر أقاربه بأسره وعنوانه وحالته الصحية ويجب ان ترسل هذه البطاقة بسرعة ولا يجوز تأخيرها مطلقا ولا يجوز ان يقل عدد الخطابات عن اثنين والبطاقات عن أربع في كل شهر كما يسمح لاسرى الحرب عند الاقتضاء بارسال برقيات تحتسب أجورها على حسابات أسرى

الحرب التي لدى الدولــة الحــاجزة أو تدفــع بالعملة التي تحت تصرفهم .

ولقد تناول القرار رقم ٩ المرفق بهذه الاتفاقية أهمية تخفيض مصاريف مثل هذه البرقيات التي غالبا ما تكون مرتفعــــة وضرورة ايجاد وسيلة ما من الرسائل الجماعية يمكن بواسطتهــا ارسال مجموعـــة من رسائل قصيرة خاصــة بالاخطار عن صحة المرسل الشخصية وصحة الاقارب و ..... وطلب المؤتمر الى اللجنـــــة الدولية للصليب الاحمر تجهيز مجموعة من نمــاذج المراسلات تؤدي هذه الاغراض وتقديمها الى الاطراف المتعاقدة للموافقة عليها .

وسمحت المادة (٧٢) من الاتفاقيــة لاسرى الحـــرب بأن يستلموا اما عن طريق البريد او اي طريقة اخرى طرودا فردية او جماعية تحوي مواد غذائية أو ملابس أو مــواد طبية أو نشرات دينية او تعليمية للترفيه ومنعت المادة (٧٦) تعرض المواد والاشياء المرسلة للتلف بسبب الرقابة البريدية واوجبت ان تتم اعمال الرقابة بسرعـــة .

العقوبات الجنائية والتأديبية

يخضع اسرى الحرب للقوانين والتعليمات والاوامر الجاري العمل بها في القوات المسلحة بالدولة الحاجزة والتي لها الحـــق باتخاذ جميع الاجراءات بخصوص اي ذنب يقترفــــه الاسرى اخلالا بتلك القوانين او التعليمات او الاوامر ويحاكم اسير الحــــرب فقط امام محكمة عسكرية الا اذا كانت القوانين القائمة للدولة الحاجزة تسمح صراحة للمحاكم المدنية بمحاكمة أحد أفراد القوات المسلحة بالدولة الحاجزة عن هذا الذنب بالذات الذي اقترفه اسير الحرب ولا يحاكم اسير الحرب في محاكم لا تتوفر فيها الضمانــــات الضرورية للاستقلال وعدم التحيز كما لا يجوز معاقبة اسير الحرب اكثر مـــن مرة واحدة عن نفس الذنب او التهمة وتحضر العقوبات الجماعية عن اعمال فردية والعقوبات البدنية والسجن في مباني لا يدخلها ضوء

النهار وبوجه عام اي نوع من التعذيب او القسوة ولا يجوز للدولة الحاجزة حرمان احد اسرى الحرب من رتبته او منعه من لبس شارته .

ونصت المادة (٨٨) على ان لا يعامل الضباط وضباط الصف والجنود من اسرى الحرب الذين تنفذ فيهم عقوبة تأديبية او قضائية معاملة أشد من المعاملة التي تطبق عن نفس العقوبة على أفراد قوات الدولة الحاجزة من رتبة مماثلة ، كما لا يجوز ان يعامل الاسرى بعد تنفيذ الاحكام التأديبية او القضائية عليهم معاملة تختلف عن باقي اسرى الحرب .

ونصت المادة (٩٠) بعدم جواز زيادة مدة العقوبة الواحدة عن ثلاثين يوما ، اما المدة التي يقضيها الاسير في الحبس في انتظار المحاكمة فتخصم من الحكم الصادر ضد اسير الحرب واعتبرت المادة (٩١) هروب اسير الحرب ناجحا في الحالات التالية :

١ ــ اذا انضم للقوات المسلحة للدولة التي يتبعها او قوات دولة متحالفة .

٢ ــ اذا ترك الاراضي الواقعة تحت اشراف الدولة الحاجزة او حليفة للدولة المذكورة .

٣ ــ اذا انضم الى باخرة ترفع علم الدولة التي يتبعها او دولة حليفة لها في المياه الاقليمية للدولة الحاجزة ولا تكون الباخرة المذكورة تحت اشراف هذه الاخيرة ، شريطة ان لا يتعرض اسرى الحرب الذين نجحوا في الهروب بالكيفية التي تعنيها هذه المادة ، ويقعون في الاسر مرة اخرى ، لاي عقوبة بسبب هروبهم السابق ونصت المادة (٩٢) على عقاب اسير الحرب بعقوبة تأديبية عند القبض عليه وهو يحاول الهرب واوجبت ان يسلم دون تأخير الى السلطة العسكرية المختصة واجازت فرض مراقبة خاصة على الاسير الذي يعاقب نتيجة لهروب غير ناجح على ان لا تضر هذه الرقابة بحالته الصحية كما نصت المادة (٩٣) بعدم اعتبار الهروب او محاولته ظرفا مشددا .

الاجراءات القضائية

نصت المادة (٩٩) بعدم جواز محاكمة أسير الحرب أو الحكم عليه لذنب لا يحظره قانون الدولة الحاجزة او القانون الدولي الذي يكون نافذا وقت اقتراف هذا الذنب واوجبت عدم اكراه اسير الحرب مدنيا او معنويا لاغرائه على الاعتراف بالتهمة المنسوبة اليه واوجبت المادة (١٠٠) بتبليغ اسرى الحرب والدول الحامية في اقرب وقت ممكن بالذنوب التي تستوجب عقوبة الاعدام طبقا لقوانين الدولة الحاجزة ولا تصدر عن الذنوب الاخرى احكام بعقوبة الاعدام الا بموافقة الدولة التي يتبعها اسرى الحرب ولا يجوز صدور الحكم بالاعدام على احد اسرى الحرب الا اذا صار توجيه نظر المحكمة — طبقا للفقرة الثانية من المادة (٨٧) — بوجه خاص الى ان المتهم لكونه ليس من اهالي الدولة الحاجزة فهو غير ملزم بأي واجب من واجبات الولاء لها ، وانه لم يوجد تحت سلطتها الا نتيجة لظروف خارجة عن ارادته .

ونصت المادة (١٠١) بعدم تنفيذ حكم الاعدام على احد اسرى الحرب الا بعد مضي ستة اشهر على الاقل من التاريخ الذي يسلم فيه الحكم الى الدولة الحامية واشترطت المادة (١٠٢)ان يصدر من نفس المحاكم وطبقا لنفس الاجراءات التي يخضع لها افراد القوات المسلحة الحاجزة واوجبت المادة (١٠٣) السير في التحقيقات القضائية الخاصة بأسير الحرب بأسرع ما تسمح به الظروف ليحاكم بسرعة ولا يمكن حبس اسير الحرب انتظارا للمحاكمة الا اذا حبس لنفس السبب احد افراد القوات المسلحة في الدولة الحاجزة اذا اتهم بنفس الذنب او اذا كان هذا ضروريا لصالح الامن العام ، ولا يجوز بأي حال ان تزيد مدة الحبس عن ثلاثة اشهر .

ومنحت المادة (١٠٥) أسير الحرب حق الحصول على معاونة احد زملائه الاسرى والدفاع عنه بواسطة محام ذي مؤهلات يختاره واستدعاء شهود ، وخدمات مترجم قدير اذا رأى ضرورة لذلك .

انتهـــاء الاسر

نصت المادة (١٠٩) على اعـــادة أسرى الحرب الذين يصـــابون بجراح خطيرة او امراض خطيرة الى اوطانهم بصرف النظر عن العدد والرتبة وذلك بعد ان ينالوا من العناية الصحية ما يمكنهم من السفر كما نصت المادة (١١٨) على الافراج عن اسرى الحـــرب واعادتهم الى اوطانهم دون تأخير عند وقف الاعمال العدائية الفعلية وتناولت المادة (١٢٠) و (١٢١) وفاة اسرى الحرب فأوجبت تدوين وصايـــا الاسرى ووجوب الفحص الطبي للجثة لاثبات حالة الوفاة قبل دفن جثة الاسير او حرقها واوجبت اجراء تحقيق عاجل عن كل وفـــاة او اصابة خطيرة تقع لاسير حرب او يشتبه ان تكون قـــد وقعت بواسطة حارس او اسير حرب آخر أو أي شخص آخر وكذلـــك الوفاة التي لا يعرف سببها .

مكتب الاستعلامات وجمعيات اغاثة اسرى الحرب

نصت المادة (١٢٢) بوجوب قيام كلدولةمتحاربة بانشاء مكتب للاستعلامات خاص بأسرى الحرب الذين في قبضتها وذلـــك عند نشوب الاعمال الحربية وفي جميع حالات الاحتلال ويتلقى هذا المكتب من الادارات المختصة المعلومات الخاصة بالنقل والافراج والاعادة للوطن والهروب والدخول في المستشفى والوفيات وعليه نقل هـــذه المعلومات وكذلك المعلومات الخاصة بالحالة الصحية لاسرى الحرب الذين أصيبوا بمرض خطير أو جرح خطير .

ونصت المادة (١٢٣) على انشاء مركز استعلامات رئيسي لاسرى الحرب في دولة محايدة مهمته جمع ما يمكنه من المعلومات بالطرق الرسمية والخاصة المتعلقة باسرى الحرب وابلاغها باسرع ما يمكن الى وطن الاسرى الاصلي او الدول التي يتبعونهـــا وتقدم له الدول المتحاربة جميع التسهيلات .

الفصل التاسع

الاسرى في الميدان

يعتبر الاسير مصدرا هاما لاحدث المعلومات كما تعتبر الوثائق المضبوطة معه منبعا للمعلومات أيضا وقد يؤلف الاسرى اذا كثر عددهم معضلة لقيادة الميدان من ناحية تأمين النقل والحراسة والطعام والماء والقضايا الصحية .

وبالرغم من أن اتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩ كفلت للاسرى حقوقهم وضمنت لهم الرعاية والحماية والاحترام وتناولت بالتفصيل واجبات الاسير وحقوقه وواجبات الدول الحاجزة ، لكن الدول لا تتقيد بهذه الاتفاقية وتضع مصلحتها الخاصة فوق كل اعتبار وقد ثبت ذلك في حرب كوريا وفيتنام . كما يحاول ضباط الاستخبارات وخبراء الاستنطاق عن طريق الضغط والاكراه المادي والمعنوي الحصول على أحدث المعلومات مستفيدين من فترة ذهول وهلع الاسير التي لا تدوم طويلا بالاضافة الى استخدام بعض الاجهزة والوسائل الحديثة لاستراق محادثات الاسرى او ادخال بعض الاشخاص كاسرى او دس الوكلاء بين الاسرى وقد تعلق بعض خرائط المنطقة في غرف الاسرى المتهمين علهم يعلقون عليها فتنقل تعليقاتهم أجهزة حديثة مخيفة .

وهناك صراع ظاهر وخفي بين الاسير والمستنطق ، فالاول يحرص على عدم اعطاء اية معلومات قد تؤدي الى زيادة القتلى

من مواطنيه أو فشل جيشه في المعركة بينما يحرص الثاني على الحصول على المعلومات ليتسنى لقيادته بناء خطة واقعية محكمة ومهما يكن فبوسع المستنطق الماهر الذي سبر غور النفس البشرية وعرف نواحي ضعفها الحصول على احدث المعلومات وأدقها بشأن الوحدات وتسليحها ومعنوياتها ونوايا العدو المقبلة .. الخ ولا عجب ان تسعى الجيوش عن طريق دوريات القتال وغارات الفدائيين لاسر احد الاعداء .

ولقد أدركت الدول الحديثة هذا الصراع ووعته فأصدرت نشرات صغيرة تضم تعاليم واضحة ومختصرة ووصايا امن دقيقة لتذكير الاسرى وتحذيرهم وتناولت اغلب هذه النشرات ما يسمح للاسر باعطائه من معلومات والاسئلة الاخرى المتوقعة والتي يجب الامتناع عن الاجابة عليها ، وما يسعى لمعرفته والطرق والوسائل التي يستخدمها للحصول على المعلومات ووصايا أمن يجب على الاسير مراعاتها وتطبيقها خلال فترة الاسر .

واجبات الاسير

١ ـ نصت المادة (١٧) من اتفاقية جنيف لسنة ١٩٤٩ أن من واجب الاسير اذا سئل ان يذكر اسمه الكامل ورتبته العسكرية وتاريخ ميلاده ورقمه بالجيش او الفرقة او رقمه الشخصي او المسلسل او معلومات مماثلة وعلى الدول المتحاربة ان تزود افراد قواتها ببطاقة مزدوجة ابعادها التقريبية ٦٫٥ × ١٠ سنتيمترا تضم المعلومات آنفة الذكر ويمكن ان تضم اية معلومات اخرى ترغب الدولة المتحاربة في اضافتها وقد تحمل توقيع او بصمات حاملها وعلى الاسير ان يقدم بطاقته الشخصية اذا طلب اليه ذلك ولكن لا يسمح بأخذها بأي حال من الاحوال .

٢ ـ على الاسير الامتناع عن اجابة اي سؤال يوجه اليه وعدم ذكر اي شيء باستثناء المعلومات التي نصت عليها المادة (١٧) من

الاتفاقية وليعلم ان الاتفاقية منعت اللجوء الى التعذيب البدني او المعنوي او اي نوع أو اهانة اسرى الحرب الذين يرفضون الاجابة او تعريضهم لاي معاملة سيئة .

٣ ــ يجب اتلاف جميع الرسائل والوثائق لاسيما الخرائط المؤثرة عند الاشتباك بالقتال .

٤ ــ تذكر ايها الاسير ان من يتحدث اليك قد يكون عدوك وان صديقك الوحيد هو الذي عرفته قبل الاسر .

٥ ــ اياك والثرثرة واعلم ان هناك اجهزة تنصت في كل مكان .

ق ــ تذكر ان كل سؤال تجيب عليه يعني انك تساعد عدوك .

ماذا يريد العدو او يسعى للحصول عليه

يسعى العدو بجميع الطرق ويستخدم أكفأ الخبراء وأبرع المستنطقين وأحدث الاجهزة للحصول واستنباط ما يلي :

١ ــ مكان وقوة كتيبة او فوج او وحدة الاسير وتحركاتها الاخيرة .

٢ ــ ماذا يعرف الاسير عن الوحدات الاخرى وحركاتها الاخيرة .

٣ ــ الاشاعات التي سمعها الاسير عن الحركات المقبلة وماذا يعرف عن الخسائر التي لحقت بجيشه .

٤ ــ موقف التجهيز والتسليح في وحدته ، وهل استلمت مؤخرا تجهيزات واسلحة جديدة .

٥ ــ معلومات عن التعبئة والتدريب .

٦ ــ معلومات عن المطارات واراضي النزول داخل البلاد وخارجها .

٧ ــ معلومات عن الاحوال والظروف السائدة في الوطن فيما يتعلق بالاعاشة والصناعة والمواصلات والمعنويات والموقف السياسي .

من أين وكيف يستقي العدو المعلومات

١ — يحصل العدو على المعلومات من المصادر التالية :

أ — الخرائط والوثائق والمفكرات ودفاتر الملاحظات والرسائل والامتعة الشخصية المستولى عليها .

ب — المواد والعلامات المستولى عليها .

ج — الرسائل المتبادلة بين الاسرى .

٢ — يستخدم الخصم الوسائل التالية للحصول على المعلومات :

أ — ادخال اسرى مزيفين مع الاسرى الحقيقيين .

ب — استخدام الوكلاء كالممرضات والخـــدم في معسكرات الاسرى والذين يتظاهرون بالود والاخلاص وقد يقومـــون بخدمات خاصة للاسرى ويظهرون نحوهم اهتماما زائدا .

ج — اسكان أسيرين يعـرف أحدهمـا الاخـر في غرفـــة واحدة رتبت فيها اجهزة مخفية لنقل احاديثهما .

د — تعليق خريطة فيها كل ما يذكر الاسرى ويثير اشجانهـم ويغريهم بالتعليق وتسجيل ذلك بأجهزة حديثة مخفية .

هـ — الايعاز الى ضابط او جندي للتكلم بحرية وهذا يعطـي الانطباع للاسرى بعدم جدوى الصمت ويشجعهم على الحديث .

و — الاستقبال الودي والمعاملة الحسنة عند الاسر وتقديـم المشروبات قد يطلق الالسنة .

ز — اعادة الاستنطاق بعد فترة طويلة باسلـوب غير مباشر جديد طافح بالود والمحبة .

ح — الايحاء الى الاسير بتعذر ابلاغ اهله وذويه بالاسر ما لم يذكر كل التفاصيل العسكرية الخاصة كوحدته ومكانها .. الخ .

وصايا وتعليمات

١ — لا تحمل معك اية ورقة رسمية او خاصة حتى لو كانت بطاقة ترام او سينما او غلاف رسالة .

٢ — لا تدع اية علاقة او اشارة على تجهيزاتك وامتعتك تشير الى الموقع او المعسكر او المدرسة .

٣ ــ لا تذكر سوى اسمك ورتبتك ورقمك عند الاستنطاق .

٤ ــ لا تذكر او تشير الى وحدتك بأي حال من الاحوال وقد تؤدي كلمة واحدة بحياة رفاقك .

٥ ــ الزم الصمت وتجنب المناقشات والاحاديث وتذكر ان المستنطق في غاية البراعة .

٦ ــ اياك ان تدلي بمعلومات كاذبة او ملفقة واعلم ان المستنطق اكثر منك مهارة .

٧ ــ تجنب الثرثرة ويفضل ان تكون احاديثك في العراء مع التزام الحذر أيضا .

٨ ــ الزم الحذر في غرفتك او قاعتك دوما ولا تتصور خلوها من اجهزة التنصت بسبب عدم عثورك عليها .

٩ ــ لا تثق بما يقوله عدوك او تعتمد على مصادر الاعداء المحتملين .

١٠ ــ لا تكتب عنوان وحدتك على الرسالة ولتكن رسائلك الى اصدقائك بعناوين بيوتهم .

١١ ــ اياك ان تعمل في اذاعة العدو .

١٢ ــ لا تيأس ففرص النجاة والهرب كثيرة .

١٣ ــ لا تثق بأحد ولا تعطي وعدا .

١٤ ــ افتح دوما عينيك واذنيك فجيشك يريد المزيد من المعلومات ايضا وقد تسنح لك فرصة الهرب .

١٥ ــ اذا نجحت في الفرار ووصلت الى منطقة موالية فلا تذكر اي شيء عن طريقة الفرار او الاشخاص الذين ساعدوك عليه .

١٦ ــ لا تتساهل بحقوقك وتمسك دوما باتفاقية جنيف .

واجبات الوحدة الآسرة

١ ــ يجب تفتيش الاسير فورا تفتيشا دقيقا وضبط اسلحته وجميع الوثائق الشخصية والرسمية التي يحملها .

٢ ــ لا بد من استنطاق تمهيدي سريع وقصير من قبل ضابط استخبارات الوحدة قبل اخلاء الاسير .

٣ ــ ان الاستنطاقات المفصلة تجري في المقرات الخلفية ومن قبل الخبراء والمختصين .

٤ ــ يجب اخذ ضباط العدو الاقدمين للاستنطـــاق فورا في المقرات الرئيسية اما الباقون فيرسلون الى المناطق الادارية بعــد استنطاق تمهيدي سريع .

٥ ــ يجب تصنيف الاسرى وفرزهم ان ساعدت الاحوال .

٦ ــ يجب الالتزام باتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩ وعدم ايــذاء او اهانة الاسير .

الفصل العاشر

حروب أخرى

الحرب الكورية

انتهت الحرب العالمية الثانية وانقسمت كوريا الى منطقتي احتلال: الروس في الشمال والامريكيون في الجنوب يفصل بينهما خط العرض (٣٨) وهكذا تنكرت الدول الكبرى لوعدها بمنح كوريا استقلالها وما اكثر ما تتنكر الدول الكبرى وتنسى حلفاءها الضعفاء انها سنة القوي وشريعة المنتصر ، واصبح هذا التقسيم مع الايام معترفا به عندما تعذر التعاون بين القسمين وسرعان ما نشأ في كل منهما نظام للحكم ، جمهورية كوريا الشعبية في الشمال وعاصمتها (بيونج يانج) وجمهورية كوريا في الجنوب وعاصمتها (سيئول) ، واجريت الانتخابات الجنوبية تحت رقابة الامم المتحدة عام ١٩٤٨ ثم انسحبت جميع قوات الاحتلال في منتصف عام ١٩٤٩ .

وفي ٢٥ حزيران ١٩٥٠ زحفت قوات كوريا الشمالية برا وبحرا فعبرت نهر (امجين) وراحت تكتسح القرى والمدن واصبحت على بعد عشرين ميلا من (سيئول) وفي ٢٧ حزيران اصدر الرئيس الامريكي امره الى القوات الجوية والبحرية الامريكية بالاشتراك في العمليات الحربية ضد جيش كوريا الشمالية وفي مساء ٢٨ حزيران احتل جيش كوريا الشمالية العاصمة (سيئول) وتدخل مجلس الامن واعتبر كوريا الشمالية معتدية وتراجعت قوات كوريا الجنوبية فعبرت نهر (هان) واستمر زحف كوريا الشمالية. وفي أول تموز أعلن

الجنرال ماك ارثر قائد قوات الامم المتحدة ان مقاومة جيش كوريا الجنوبية انهارت تماما وتوقفت عن مقاتلة قوات الشمال التي تواصل زحفها السريع وتمكنت قوات الامم المتحدة من وقف الغزاة وانشأت منطقة دفاعية على بعد ٨٠ كم من (بوزان) على الساحل الشرقي . وقامت القوات الامريكية بهجوم مضاد يهدف الى غزو (انشون) وتقدمت قوات الامم المتحدة حتى بلغت حدود (منشوريا) وتدخلت الصين في الحرب في تشرين الثاني واضطرت قوات الامم المتحدة الى التراجع جنوب خط العرض (٣٨) وفي اوائل ١٩٥١ بدأت قوات الامم المتحدة هجوما مضادا دفع الشيوعيين الى ما وراء خط العرض (٣٨) وفي تموز ١٩٥١ بدأت محادثات الهدنة في كيسونج واستمرت حتى الخريف وتأزم الموقف من جديد في تموز ١٩٥٢ عندما تقرر تبادل الاسرى ورفض الشيوعيون اقتراح الامم المتحدة بشأن اقتراح العودة الى أوطانهم فتأجلت محادثات الهدنة واشتد القتال في اواخر عام ١٩٥٢ وسعى كل من الفريقين لاحتلال منطقة التلال الواقعة في اواسط كوريا .

وفي عام ١٩٥٣ وافق الشيوعيون فجأة على اقتراح الحلفاء بشأن تبادل المرضى والجرحى من الاسرى واستؤنفت محادثات الهدنة وفي تموز ١٩٥٣ وقعت اتفاقية الهدنة في كوريا وأصبح خط العرض (٣٨) يفصل بين الدولتين واستمر النزاع حول تبادل الاسرى ، وعقدت كوريا الجنوبية معاهدة الدفاع المتبادل مع الولايات المتحدة الامريكية واقام جيش كوريا الجنوبية حكومة عسكرية في ٦ حزيران عام ١٩٦١ واضطر (سنجمان ري) الى الرحيل ووقعت كوريا الشمالية اتفاقيات التعاون مع روسيا والصين الشعبية(١) .

....

١ — الموسوعة العربية الميسرة — كورية — باشراف محمد شفيق غربال ، القاهرة ١٩٦٥ .

قضية الاسرى

وبرزت مشكلة اسرى الحرب كنتيجة حتمية للحرب الكورية ولم تكن الولايات المتحدة الامريكية والصين وكوريا الشمالية قد وقعت اتفاقية جنيف بشأن معاملة اسرى الحرب المؤرخة ١٢ آب ١٩٤٩ لكنها اعلنت جميعها انها تلتزم بالميثاق نصا وروحا وكان لدى الشيوعيين (٧١٩٠) أسيرا أمريكيا بينما بلغ عدد الاسرى الصينيين والكوريين الشماليين (١٢٠٫٠٠٠) ولقد تبادلت القوات المتقاتلة الاتهامات بخصوص اساءة معاملة الاسرى واضطهادهم والضغط عليهم لتقديم اعترافات غير صحيحة .

ويدعى الامريكيون ان معاملة الشيوعيين للاسرى كانت على العموم قاسية وان المئات منهم قد ماتوا أثناء مسيرهم من الجبهة الى معسكرات الاعتقال وان استحقاقهم من الطعام ضئيل ويتألف بصورة رئيسية من الارز وهكذا تعرضوا للموت البطيء بسبب الجوع والمرض وعدم العناية الطبية (٢) .

ورد الشيوعيون بأنهم حريصون على تطبيق اتفاقية جنيف عام ١٩٤٩ وان طعام الاسرى جيد ووفق ما نصت عليه اتفاقية جنيف وهو نفس الطعام الذي يتناوله لقواتهم المسلحة .

وادعت قيادة قوات الامم المتحدة أن الاسرى تعرضوا للضغط والاكراه لحملهم على الاعتراف باستعداد قوات الامم المتحدة لشن حرب جرثومية واستخدام هذا الاعتراف في اغراض دعائية كما تعرضوا لعمليات (غسل الدماغ) حيث مزج الاكراه والاقناع والترغيب والترهيب والايحاء والتثقيف بطريقة علمية فنية بغية حملهم على تغيير عقيدتهم واعتناق المبدأ الشيوعي .

وتضمنت اتفاقية الهدنة الموقعة عام ١٩٥٣ شروطا مفصلة حول عودة الاسرى الى اوطانهم وخيروا بين العودة الى بلادهم او

---

٢ ـ Encyclopedia Britanica — (Prisoners of War) — 15 th Ed.

البقاء في البلاد الحاجزة او الذهاب الى بلاد اخرى وعقدت اجتماعات عديدة لهذا الغرض باشراف لجنة الترحيل المؤلفة من الامم المتحدة كما عقدت (جلسات ايضاحية) وسمح لممثلي الدول المتحاربة بالتحدث الى الاسرى ومحاولة اقناعهم وترغيبهم بالعودة الى اوطانهم ولما جرى الاحصاء والتصنيف النهائي ظهر ان أكثر من واحد وعشرين الف اسير شيوعي لم يوافقوا على العودة الى أوطانهم كما آثر ٢١ أسيرا أمريكيا البقاء في البلاد الشيوعية. وظهرت قضية الترحيل القسري وحظيت باهتمام المحامين الدوليين ولا زالت الاراء مختلفة بصدد اتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩ وحق الاسرى في اختيار المكان الذي يذهبون اليه كما بذلت جهود اخرى لتسليط الاضواء على معاملة الاسرى والمبالغة فيما يلقونه في معسكرات الاعتقال وجعلها في خدمة اهداف الحرب الوطنية وقام الاسرى الشيوعيون بأعمال شغب وتمرد واعتداء على زملائهم الاسرى وعلى حراس الامم المتحدة وفرض الشيوعيون على اسرى الامم المتحدة منهجا تثقيفيا مركزا لحملهم على تغيير عقيدتهم باعتناق المذهب الشيوعي أو للادلاء بتصريحات ذات قيمة بالنسبة للدعاية وتعقدت قضية اسرى الحرب الكورية وجذبت الانتباه وشغلت العالم حينا من الدهر وظهر احتمال اعتبار الاسرى كالمقاتلين واعتبار معسكراتهم جزءا من ساحة القتال الامر الذي ينسف ما ضمنته لهم اتفاقية جنيف من حقوق ورعاية وحماية ، وما ان انتهت الحرب الكورية واعيد الاسرى الى اوطانهم حتى شرعت الولايات المتحدة بدراسة حالة ونفسية اسراها دراسة تفصيلية وألفت لجنة خاصة مختلطة من مدنيين وعسكريين شارك فيها عدد من علماء النفس والخبراء لهذا الغرض وفي تموز ١٩٥٥ قدمت اللجنة تقريرها وظهر ان تأثير عمليات (غسل الدماغ) لا يبقى طويلا كما وضعت اللجنة تعليمات يلتزم بها المقاتل الامريكي عند وقوعه في الاسر (٣) .

---

٣ _ Encyclopedia Britanica (Prisoners of War) 15 th Ed .

الحرب الفيتنامية

دعيت مجموعة المحميات الفرنسية التي كانت تضم تونكين وأنام وكمبوديا ولاوس ومستعمرة كوشين الصينية الفرنسية بالهند الصينية (٤) ولقد استعمر الفرنسيون هذه الاقاليم في اوقات مختلفة من القرن التاسع عشر واستخدم الغربيون عام ١٩٤٦ مصطلح فيتنام على الجزء الشرقي من الهند الصينية الممتد من حدود الصين حتى دلتا الميكونك وتبلغ مساحته ١٢٦,٠٠٠ ميل مربع ويضم كوشين الصينية وأنام وتونكين .

وفي عام ١٩٥٤ قسمت فيتنام الى دولتين : شمالية وهي جمهورية ديمقراطية يحكمها الحزب الشيوعي وعاصمتها هانوي وجنوبية ونظامها ملكي دستوري اصبح جمهوريا عام ١٩٥٦ وعاصمتها سايغون وتمتد الحدود بين الدولتين بمحاذاة نهر (بن هاي) وبموازات خط العرض ١٧ واغلب السكان اناميون .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية وعقب انهيار فرنسا دب النزاع بين حكومة فيشي وفرنسا الحرة وعينت حكومة فيشي في عام ١٩٤٠ الاميرال جان ديكو حاكما عاما على الهند الصينية واحتل اليابانيون قواعد في تونكين تمهيدا لغزو جنوب الصين واخرى في فيتنام الجنوبية ليستنى غزو بورما والملايو وكان انقسام الفرنسيين على انفسهم واضحا في الهند الصينية فاستغل ساسة فيتنام هذا الانقسام ووسعوا الهوة بين الحكومتين من جهة وبين الفرنسيين واليابانيين من جهة أخرى . وفي عام ١٩٤١ نشطت المقاومة السرية وعمل الحلفاء على توسيع نطاقها وتوجيهها ضد اليابانيين الغزاة ثم رأى الشيوعيون الفيتناميون ان الفرصة سانحة لتجميع كل القوى الوطنية من اجل قيام فيتنام موحدة مستقلة فتألف حزب (فيت منه) من الشيوعيين وبعض القوى الوطنية برئاسة هوشي منه .

....

٤ ــ الموسوعة العربية الميسرة ــ الهند الصينية ــ القاهرة ١٩٦٥ .

ثم جلا اليابانيون اثر تسليمهم بدون قيد او شرط وتركوا كميات كبيرة من الاسلحة وتسلمت الصين وبريطانيا ادارة الهند الصينية بموجب اتفاقية بوتسدام ١٩٤٥ بصورة مؤقتة ريثما تستطيع فرنسا ممارسة نفوذها وسلطاتها في البلاد .

ولقد استطاع حزب (فيت منه) من ممارسة الادارة في بعض اجزاء فيتنام واعلن هوشي منه قيام جمهورية فيتنام الديمقراطية كما بذل محاولة جادة لاملاء الفراغ في البلاد وكانت العصابات تسرح وتمرح في المدن والريف وواجهت القوات الصينية والبريطانية النازلة في الهند الصينية كثيرا من الصعوبات والمشاكل الداخلية لكنها أحجمت عن مقاتلة الانصار ورفضت التفاوض مع ممثلي جمهورية فيتنام الديمقراطية بسبب عدم الاعتراف بها دوليا .

ودخل الفرنسيون البلاد من جديد معتمدين على القوة في بداية عام ١٩٤٦ فانسحب الصينيون والبريطانيون واستطاع القادة الفرنسيون والفيتناميون ايقاف القتال غير القانوني بين اتباعهم وشرعوا بالمحادثات من اجل اعادة الحياة الطبيعية الى فيتنام (٥) واعترفت فرنسا بأنام وتونكين على انهما دولة فيتنام الحرة لكنها رفضت منحها الاستقلال كما لم توافق على ادخال كوشين الصينية في الدولة الجديدة وبدأت حرب العصابات من جديد وتمكن الفرنسيون من السيطرة على جميع المدن الرئيسية في فيتنام بينما كان (الفيت منه) أقوياء في شمال البلاد في المناطق الريفية واستمرت الحرب ضد الفرنسيين سبع سنوات من ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥٤ واقام الفرنسيون في عام ١٩٤٩ دولة فيتنام اخرى عينوا لها الامبراطور السابق باوداي حاكما لها وابرموا معه في عام ١٩٥٠ معاهدة منحت بموجبها فيتنام الاستقلال داخل الاتحاد الفرنسي وسرعان ما اعترفت بها الولايات المتحدة وبريطانيا اما روسيا

....

٥ ـ Encyclopedia Britaica (Vietnam) 15 th ed.

وحليفاتها فقد رفضت الاعتراف بها واعترفت بحكومة هوشي منه واشتدت المقاومة ولم تعد مقتصرة على فيتنام بل شملت جميع اتحاد الهند الصينية واتسعت حرب العصابات وفي عام ١٩٥٢ منحت الحكومة الفرنسية الامبراطور باوداي جميع السلطات والاختصاصات بعد سلسلة من الاتفاقات وتولت حكومته ادارة البلاد باستثناء شؤون الامن التي ظلت مرتبطة بالفرنسيين والف باوداي جيشا في عام ١٩٥٣ بلغ حوالي (٣٠٠٫٠٠٠) تولى الفرنسيون تجهيزه وتدريبه ونظمت الدولة الى ٣٢ مقاطعة ثم اصبحت عضوا في منظمة الامم المتحدة واستمر القتال بين الفرنسيين والقوات الشيوعية وتوالت الانكسارات والهزائم على القوات الفرنسية وكانت خاتمتها استيلاء الثوار على قلعة ديان بيان فو في ٧ مارس ١٩٥٤ بعد حصار دام خمسة وخمسين يوما وتعتبر من المواقع السوقية المهمة اذ انها تحكم في خطوط المواصلات التي تربط الصين وتونكين ولاوس واضطرت فرنسا الى قبول وقف القتال الذي اقترحه مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤ وظهرت اربع دول في المنطقة هي : فيتنام الشمالية ، فيتنام الجنوبية ، كمبوديا ، لاوس (٦) ولقد اقترح اجراء انتخابات في عام ١٩٥٦ لتوحيد فيتنام بمقتضى اتفاقية جنيفلكنها لم تنجح بسبب معارضة فيتنام الجنوبية ثم خلع باوداي في عام ١٩٥٥ وتعين نجودنه ديم رئيسا للدولة واعلن في تشرين الاول من العام نفسه فيتنام جمهورية مستقلة يؤيدها ويسندها الامريكيون الذين حلوا محل الفرنسيين وبدأت المعونات العسكرية والاقتصادية الامريكية تنهال على فيتنام الجنوبية لتستطيع مقاومة التهديد الشيوعي وانتخب نجودنه ديم رئيسا للجمهورية مرة ثانية لكنه صم اذنيه عن تذمر الشعب وامتنع عن ادخال الاصلاحات الديموقراطية وبلغ التذمر والسخط غايته واحرق بعض البوذيين انفسهم احتجاجا على ما يلاقونه من ظلم واضطهاد فاغتيل عقب

....

٦ ــ الموسوعة العربية الميسرة ــ فيتنام ــ القاهرة ١٩٦٥ .

انقلاب عسكري عام ١٩٦٣ وتألفت حكومة عسكرية موالية للولايات المتحدة برئاسة الجنرال نجوين خانة الذيتقلد رئاسة الجمهورية في آب ١٩٦٤ ثم استقال اثر انقلاب عسكري وتوالت الحكومات العسكرية تبعا لمشيئة الولايات المتحدة وتولى الرئيس ثيو رئاسة الجمهورية وظلت احوال البلاد غير مستقرة .

وفي بداية عام ١٩٦٠ قام الفييتكونغ بالتوغل في أراضي فيتنام الجنوبية وشنوا حرب عصابات امتازت بالجرأة والبراعة بعد سلام نسبي دام بضع سنوات ، واضطرت فيتنام الجنوبية ازاء هذا التهديد الخطر الىتجنيد (١٧٠٫٠٠٠) وقدمت الولايات المتحدة دعمها اقتصاديا وعسكريا وبلغ عدد البعثة العسكرية الامريكية والمستشارين الآلاف في منتصف عام ١٩٦٠ كما قدمت عددا كبيرا من طائرات الهيلوكوبتر لتقوم بنقل الوحدات الفيتنامية الى مناطق الريف المهددة ولم تحفل بالاحتجاجات التي قدمتها اللجنة الدولية للاشراف والسيطرة بمقتضى اتفاقية جنيف (٧) .

وفي ٥ آب ١٩٦٤ قامت الولايات المتحدة بغارات جوية عنيفة على منشآت وقواعد الاسطول في سواحل فيتنام الشمالية بناء على أوامر الرئيس الامريكي جونسن وذلك انتقاما لضرب زوارق الطوربيد الفيتنامية الشمالية للمدمرات الامريكية والحقت هذه الغارات اضرارا كبيرة بقواعد الاسطول كما اشتد القتال البري وقام الفييتكونغ بهجمات جريئة على القواعد والمعسكرات الامريكية وقامت الطائرات الامريكية بضرب الاهداف العسكرية في فيتنام الشمالية وتوالت الغارات وشملت المدن والقرى والحقول واتسع نطاقها وبدأت التعزيزات تترى على الجيش الامريكي الذي جاوز تعداده النصف مليون وكثرت الانقلابات العسكرية في فيتنام

....

٧ _ Encyclopedia Britanica (Vietnam 15 th ed .

الجنوبية وتبدلت الحكومات بسرعة واخيرا اتفق اطراف النزاع على عقد مؤتمر للتفاوض في باريس وظلت المفاوضات مستمرة لبضع سنوات من دون جدوى ، اما القتال فقد اشتد ضراوة وعنفا وبلغت الخسائر في الارواح والمعدات والممتلكات حدا مذهلا وخسر الامريكيون آلاف القتلى ومئات الطائرات ووقع عدد غير قليل من طياريهم اسرى كما تعرضت فيتنام الشمالية لغارات جوية فظيعة ، دمرت الكثير من أراضيها وحقولها ومصانعها ومرافقها وظلوا صامدين امام الولايات المتحدة الامريكية التي تملك اعظم قوة بل كال لها الفييتكونغ الضربات اثر الضربات ، وأخيرا تحرك الرأي العام الامريكي بسبب استمرار القتال وتزايد الخسائر الامريكية فطالب بايقاف القتال والانسحاب ، بينما تمضي الحكومة الامريكية في (فتنمة الحرب) والانسحاب بمراحل تبعا لتنامي قوة جيش فيتنام الجنوبية .

وبرزت مشكلة الاسرى وتبادل الجانبان الاتهامات بشأن اساءة معاملة الاسرى وتعذيبهم وعدم الالتزام بنصوص اتفاقية جنيف بشأن معاملة اسرى الحرب المؤرخة في ١٢ آب ١٩٤٩ ، واعلنت فيتنام الشمالية انها ستحاكم اسرى الحرب الطيارين الامريكيين باعتبارهم مجرمي حرب ، فهددت الولايات المتحدة الامريكية وتوعدت وأنذرت ، والظاهر أن الطرفين لم يلتزما باتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩ ، وان روح الانتقام والمقابلة بالمثل هي السائدة ، ووضعت العراقيل والعقبات في سبيل الاتصال بالاسرى ، او اتصال الاسرى بالخارج ، وعجزت منظمات الصليب الاحمر عن ممارسة نشاطها الانساني بسبب احجام اطراف النزاع عن تقديم اية معونة او معلومات او تسهيلات ، ووضع الاسرى في اقفاص وغرف ضيقة ، وضاعت الحقائق من جراء الدعايات والمبالغات وقام الامريكيون في مطلع ١٩٧١ بانزال جوي في أحد معسكرات فييتنام الشمالية ظنا بوجود اسرى امريكيين فيه ، ثم تبين خلوه منهم ،

وتصر فيتنام الشمالية على عدم النظر في أمر الاسرى او مبادلتهم الا بعد أن يعلن الامريكيون عن موعد انسحاب قواتهم النهائي ، وفي ٢ حزيران من عام ١٩٧١ أعلن الرئيس الامريكي نيكسون أن فيتنام الشمالية لم توافق على تبادل الاسرى ، لكنها ابدت استعدادها للشروع بالمفاوضة وربطت تبادل الاسرى بتعيين تاريخ نهائي لانسحاب جميع القوات الامريكية وظلت الجهود متواصلة والوساطات مستمرة . وفي ٤ حزيران من عام ١٩٧١ اذاعت وكالات الانباء العالمية رفض فيتنام الشمالية لقبول (١٣) أسير حرب مقعد وعاجز جيء بهم على ظهر سفينة امريكية غير مسلحة من فيتنام الجنوبية ، وكان من المقرر ان تصل السفينة الى المثابة التي اتفق عليها عند ساحل المنطقة المحررة من السلاح ، وادعت فيتنام الشمالية أنها خدعة وتضليل حيث أن العدد المتفق عليه كان (٦٠٠) أسير ويدعي الامريكيون أن الاسرى رفضوا العودة الى فيتنام الشمالية وبوسع منظمة الصليب الاحمر الاتصال بهم للتأكد من ذلك ، وهناك رأي يفيد أن فيتنام الشمالية أبلغت أسراها سرا بواسطة الفييتكونغ بعدم الموافقة على العودة بغية سد الطريق أمام الامريكيين وعدم تمكينهم من المطالبة باعادة اسراهم تنفيذا لاتفاقية التبادل . وفي اوائل شهر تموز عام ١٩٧١ قدمت جبهة التحرير الوطنية الفيتنامية مقترحات جديدة الى مؤتمر باريس بخصوص اسرى الحرب الامريكيين تضمنت اطلاق سراح جميع الاسرى الامريكيين على ان يتعهد الامريكيون بالانسحاب قبل نهاية عام ١٩٧١ ، ومهما يكن الامر ، فان قضية الاسرى في الحرب معقدة وعويصة ، وهي مهمة جدا وحساسة بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية ، التي تخشى الرأي العام الامريكي الذي كره الحرب في فيتنام وتظاهر ضدها ، ولم يغب ذلك عن فيتنام الشمالية التي عرفت كيف تستغل القضية لتزيد من هيجان الرأي العام الامريكي وسخطه على حكومته ، واخيرا وبعد مفاوضات مضنية طويلة امتدت من مطلع عام ١٩٦٩ ، وفشل السياسة الامريكية في (فتنمة

الحرب) ، تمّ في باريس التوقيع النهائي على اتفاقية السلام في فيتنام يوم السبت ٢٧ كانون الثاني ١٩٧٣ وتوقف القتال اعتبارا من منتصف ليلة الاحد حسب توقيت غرينتش ووقعها ممثل كل ، من الولايات المتحدة الامريكية ، وفيتنام الديموقراطية ، وجبهة التحرير الوطنية ، وفيتنام الجنوبية ، وتشكلت قوة دولية تضم (١٢٦٠) رجلا ساهمت فيها كندا وبولندة والمجر وأندونيسيا وبذلك انتهت الحرب التي استمرت (١٢) عاما والتي كانت حصيلتها قتل وجرح مليونين من الفيتناميين و ٣٥٠ ألف من الامريكيين وتدمير الاراضي الفيتنامية ، ولقد بلغ عدد القنابل التي ألقيت على أراضي الهند الصينية منذ عام ١٩٦٦ (٧ر١) مليون طن وهو يزيد عن ٣ امثال ما القي في الحرب العالمية الثانية في جميع الجبهات ، وبلغ ما انفقته امريكا في هذه الحرب (١٣٨) الف مليون دولار ، ونص الاتفاق على انسحاب القوات الامريكية واطلاق سراح الاسرى خلال شهرين وعلى حق شعب فيتنام الجنوبية في تقرير مصيره .

وبدأ انسحاب القوات الامريكية ، واطلاق سراح الاسرى بوقت واحد وباعداد متناسبة ، وقد حدث بعض التلكؤ والتأخير في البداية ، لكن التوقيتات المتفق عليها مضت الى غايتها وانتهى كل شيء في موعده المحدد ونقل اسرى الولايات المتحدة بالطائرات ، ثم بدأت الشكوى من سوء المعاملة وعدم الالتزام باتفاقية جنيف بشأن اسرى الحرب وتبودلت الاتهامات بعد وصول الاسرى جميعهم الى اوطانهم وهذه سنة المتحاربين في مختلف العصور والازمان ، عدم الالتزام وتبادل الاتهامات .

الفصل الحادي عشر

العرب واسرائيل

كان (تيودور هرتسل) اول من دعا الى اقامة دولة يهودية وترأس اجتماعا لهذا الغرض عام ١٨٩٧ م في مدينة (بال) في سويسرة واتخذ المؤتمرون قرارا بالاغلبية على انشاء الدولة اليهودية في فلسطين ووضعت الخطط لتحقيق هذا الهدف وتألفت لجنتان ، احداهما للعمل والاخرى لجمع المال ، وبدأ اليهود يعملون بدأب وجد وصبر مهتدين بقرارات (حكماء اسرائيل) (١) التي آمنت بسياسة العنف والارهاب والقسوة والقتل مع الاجانب كما حثت اليهود على نشر الفساد واثارة الحروب والثورات والفتن واشغال العالم بمشاكل مختلفة ، بينما ينصرفون هم للسيطرة وجمع المال ، وأكدت على ضرورة السيطرة على وسائل الاعلام والمصارف واستخدام الرشوة والمال لتحقيق الاهداف الصهيونية .

وتزايدت هجرة اليهود الى فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الاولى اثناء الانتداب البريطاني وبخاصة بعد ان صدر

....

١ — وتدعى أيضا بـ (البروتوكولات) ويبلغ عددها (٢٤) بروتوكولا وقد وضع أغلبها في صيغة توصيات واوامر في المؤتمر الذي عقد عام ١٨٩٧ ، ولقد تسربت اخبار هذا المؤتمر والقرارات الى الخارج فترجم الكاتب الروسي (سرجي نيلوس) القرارات التي لم تلبث ان ترجمت الى لغات اخرى فأغضبت الكثير من كتاب اليهود ومفكريهم ، ولقد ترجمها الى العربية الاستاذ محمد خليفة التونسي كما ترجمها الاستاذ كمال عبد المجيد .

وعد بلفور عام ١٩١٧ ، ثم اشتدت الهجرة اليهودية في أعقاب الحرب العالمية الثانية وبدأ المال يتدفق على المنظمات اليهودية في فلسطين من أمريكا واوربا ووقفت الولايات المتحدة الامريكية بتأثير النفوذ الصهيوني الى جانب اليهود تشجع على الهجرة الى فلسطين وتضغط لفتح باب الهجرة على مصراعيها.ورأت بريطانية وهي الدولة المنتدبة في فلسطين بعد أن اشتد ساعد اليهود وقويت منظماتهم وبعد أن اخفقت في ايجاد حل يرضى عنه العرب واليهود ، وتجنبا لكثير من المشاكل والضغوط واقتصادا بالنفقات ، أن تتخلى عن فلسطين فأعلنت أنها ستنسحب يوم ١٤ أيار عام ١٩٤٨ وبلغت ذلك الى منظمة الامم المتحدة وجميع الاطراف المعنية .

اعلنت الحكومات العربية عزمها على ارسال جيوشها الى فلسطين في تمام الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٤ — ١٥ أيار ١٩٤٨ (٢) ، واعلن اليهود فورا قيام (اسرائيل) وسرعان ما اعترفت بها الولايات المتحدة الامريكية وبعض الدول ، وهكذا قامت (اسرائيل) في فلسطين بعد جهد دائب وتخطيط وتصميم لتمثل اخطر مشروع استعماري استيطاني يهدف الى شق العالم العربي ، وضمت اخصب الاراضي واغنى المناطق واهم البقاع والمواقع ، فلقد هيأ لها الاستعمار والصهيونية والامبريالية العالمية كل اسباب الحياة ومقومات القوة والبقاء ، وفشل العرب في معاركهم بسبب ضعفهم وتفرقهم وانانية الحكام واستهانتهم بعدوهم ، وعجزوا حتى عن الاحتفاظ بالاراضي التي نص عليها قرار التقسيم الصادر في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ . لقد كان اليهود مستعدين لهذا اليوم منذ سنوات طويلة ، بينما كان عرب فلسطين منهمكين في خلافاتهم الحزبية قبل تشكيل الهيئة العربية

....

٢ — التأريخ الموحد للامة العربية — الدكتور علي حسين الخربوطلي ص ٢٩٥ — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام ١٩٧٢ .

العليا (٣) ، وكانت بريطانية لا تزال تهيمن على شؤون الشرق الاوسط وتسيطر على بعض الجيوش العربية وتتحكم في تسليحها وقيادتها .

واضطر السكان العرب الى هجرة حقولهم وقراهم ومدنهم ، بعد أن رأوا وسمعوا بانباء المجازر والمذابح التي ارتكبها اليهود وتبين لهم عجز الجيوش العربية عن حمايتهم ، وتدفقت جموع اللاجئين الى البلاد العربية لتعيش حياة الذل والتشرد والحرمان. وبدأت اسرائيل تنمو وتزدهر وامتد نفوذها الى اسيا وافريقية وامريكا اللاتينية بفضل مساعدات الولايات المتحدة الامريكية والتبرعات الصهيونية فازدادت قوتها ، واتسعت اراضيها اذ ضمت في حرب ١٩٦٧ القدس والضفة الغربية والجولان وقطاع غزة وسيناء ، بينما كانت الدولة اليهودية بموجب قرار التقسيم لا تشمل سوى منطقة الجليل الشرقية والسهل الساحلي ومنطقة بئر السبع التي يدخل فيها اقليم النقب المجاور لشبه جزيرة سيناء مباشرة (٤) .

ونجحت اسرائيل في ميدان الدعاية وأيدها الرأي العام العالمي في كثير من المواقف وبخاصة الدول الغربية التي أثرت فيها الدعاية الاسرائيلية ، وتحولت اسرائيل في نظر هذه الدول الى واحة السلام ، وبلد الديموقراطية ، وأرض الحرية والمساواة، وهكذا ضللت اسرائيل العالم فترة طويلة بفضل الدعاية الصهيونية وتخبط الدعاية العربية ، ثم أفاق العرب بعد نكسة عام ١٩٦٧ وعرفوا حقيقة عدوهم ومدى تخلفهم ، وأسباب فشل دعايتهم هذه السنين الطويلة ، ولم يلبثوا أن كشفوا للعالم كذب الدعاية الصهيونية وزيفها ، واظهروا حقيقة اسرائيل التي لم تكن

....

٣ — صفحات مطوية من فلسطين — احمد فراج طابع ص ٤٧ — الاتحاد الاشتراكي العربي — دار مطابع الشعب .

٤ — صفحات مطوية من فلسطين — احمد فراج طابع ص ٤١ — الاتحاد الاشتراكي العربي — دار مطابع الشعب .

سوى استعمار استطياني في أرض عربية أكره سكانها على الجلاء والنزوح خوفا ، لتحتلها طوائف قدمت من أرجاء العالم المختلفة بدعوى انه كانت لليهود دولة في فلسطين قبل آلاف السنين .

لقد قامت الحركة الصهيونية التي نمت وترعرعت في ظل الاستعمار البريطاني على تقديس الارض والتمسك بأسطورة ارض الميعاد وتفوق شعب (اسرائيل) (٥) ، وهي تلتقي مع الاستعمار والامبريالية العالمية وتخدم اهدافهما في فرض التخلف والتجزئة على الامة العربية ومنعها من التحرر والانطلاق لتساهم من جديد في صنع الحضارة وتقدم الانسان .

والاستعمار كان ولا يزال يسعى الى منع التطور القومي وعدم تمكين العرب من استغلال ثرواتهم وتنمية مواردهم ، وما أن انحسر ظله حتى تبنت الصهيونية اهدافه وغاياته ، فكانت اسرائيل الوريث الشرعي لاستعمار قام على استغلال الشعوب ونهب الثروات . لقد اعتمدت اسرائيل سياسة البطش والارهاب وان الحق للقوة ومجدت الجريمة والقتل ، والاغتيال للقضاء على اعدائها ، فاغتيل الوزير البريطاني اللورد موين والكونت السويدي برنادوت ، وكرم قتلة الوزير البريطاني ونقلت رفاتهم الى اسرائيل ، وها هم سفاحوها المأجورون يتجولون في أوربا للفتك والغدر بالاحرار الذين يناضلون من أجل استرداد اراضيهم وحقوقهم ، وهي ماضية بنسف البيوت وهدم القرى في الاراضي المحتلة بحجة تعاون اصحابها مع المقاومة الفلسطينية .

ان دولة كهذه قامت على اغتصاب الاراضي وذبح السكان لم ولن تلتزم بعرف او قانون او قرار لمنظمة عالمية لذلك كانت معاملتها للاسرى العرب في غاية الشدة والقسوة فهي لم تلتزم باتفاقية جنيف لحماية ضحايا الحرب الموقعة في ١٢ اغسطس

....

٥ ـــ انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي ـــ ايغال الون ـــ ترجمة عثمان سعيد ص ١١ دار العودة بيروت ١٩٧١ .

سنة ١٩٤٩ فهجرت السكان ونفت بعضهم واعتدت على الاماكن المقدسة ونهبت الكنوز والآثار أما معاملتها للمعتقلين من السكان العرب او افراد المقاومة الفلسطينية فقاسية وفظيعة تمثل عهود البربرية الاولى ، فالاهانات من صفع وركل وايذاء وشتم تبدأ بابتداء التحقيق ثم تتطور وتشتد لتتخذ افظع اشكال التعذيب الوحشي ثم يلقى بالمعتقلين في جحور رطبة مظلمة عفنة حارة ان كان الموسم صيفا او زنزانات هي أشبه بالثلاجة ان كان الموسم شتاء (٦) .

أما اساليبهم في التحقيق والاستنطاق فأساليب شيطانية ، اذ لا بد من تقييد يد المقبوض عليه بالاغلال اولا اثر القبض عليه، واذا ما احتج او اعترض انهالوا عليه بالضرب ثم ينقل بسيارة خاصة الى احد السجون القريبة حيث يجري فيها التحقيق الابتدائي الذي هو في الحقيقة تعذيب وايذاء واهانات ومن المفيد أن أنقل بعض ما جاء في (أوراق سجين) للاستاذ أسعد عبد الرحمن الذي قضى عشرة أشهر في المعتقلات الاسرائيلية لترى ما يلاقيه المعتقل من أذى وتعذيب وهوان في اسرائيل (واحة الديموقراطية والسلام) ، فقد ابتدأ التحقيق معه بالسؤال عن اسمه واسباب وجوده في البيت الذي وجدوه فيه ثم طلبوا منه نزع ثيابه : (وقفت وخلعت المعطف ثم جلست . وجاءني صوت سابير — المحقق — مستغربا « هذا فقط ؟ أخلع ! » وقفت للمرة الثانية ، ثم نزعت الجاكيت عن جسدي وحين هممت بالجلوس صرخ بي سابير : « اخلع ثيابك كلها ! » ورافق صراخه بسيل من الشتائم .

أدركت بصاعقة نخرت رأسي أن اللحظة الحرجة جاءت بأسرع مما كنت أتوقع . نظرت اليه وقلت أول كلمة خطرت على ذهني « لماذا ؟ » .

....

٦ — دراسات فلسطينية (٥١) اوراق سجين — اسعد عبد الرحمن ص ١٥ .

ويبدو أن كلمة « لماذا » كلمة مجرمة لا يجب أن تنطق أمام هؤلاء اذ وبسرعة البرق انقض علي الرجال الخمسة دفعة واحدة .. هذه لكمة في الوجه من أمام ... هذه صفعة على الصدغ ... هذه ركلة من خلف ... من أمام ... من أعلى ... من أسفل ...! ترنحت ... سقطت أرضا ... مغناطيس هائل يجذبني الى أعلى ليوقفني على قدمي ... والاسطوانة تتكرر ... تتكرر . عيناي زاغتا ... جرح معدتي الطويل يؤلمني .. جسدي تتقاذفه الايدي والارجل ... الارض تحت ساقي تدور ولا أسمع الا صراخي وشتائمهم ... رأسي يتحرك يمنة ويسرة كالبندول السريع ... وبحركة سريعة ، بعد مدة لا أستطيع تقديرها كشفت عن الجرح وصرخت : ماء ، أعطوني مـــاء !

ولكن الضرب مستمر والشتائم سيل لا ينقطع ، وبعدها — لا أعرف متى — أحسست بالماء على رأسي ووجهي . أجلست علـى الكرسي ... قدمت لي طاسة بها ماء ... حاولت أن أتكلم ولكـن جاءني صوت أحدهـم ناهـرا : « اشرب الآن .. اشرب ! » ... ساقوني الى غرفة . جلس أمامي شخص آخر (الشاويش ليفي) يسجل ما أقول :

— « من هو عاصم القاوقجي ؟ »

— « لا أعرف شخصا بهذا الاسم ! » .

هوت العصا على رأسي وكرر السؤال ... وأسئلة عديدة بعدها : من هو الاستاذ كذا ومن هو فلان . أسماء عديدة لاصدقاء لي في الجامعة الامريكية ، وبين كل اسم واسم كانت العصا تصطدم بعظام رأسي أو عضلات رقبتي .

ويمضي أسعد عبد الرحمن في سرد ما لاقاه من ضرب ولكم وشتم وأذى خلال فترة التحقيق وبخاصة عندما يلوذ بالصمت ، أو تكون اجابته سلبية ثم يصف معاملة السجانين والحراس والزنزانة والنزلاء الجدد فيقول :

(دخل علينا شرطيان اسم أحدهما جاكوب (يعقوب) لعـد

المساجين وتحدث هذه العملية ثلاث مرات في اليوم ... ونحن جلوس زمجر قائلا « أيها الكلاب قفوا ! حين يدخل شرطي اسرائيلي مطلوب من العرب ، العرب وحدهم أن يقفوا » .. وبعد ربع ساعة نقلنا جميعا الى الزنزانة رقم (٨) . الزنزانة غرفة واسعة نسبيا، بها حاجز من القضبان يجعلها عبارة عن غرفتين صغيرتين ، حين يوضع المرء خلف الحاجز الى الداخل يبتعد عن الكوة التي تشرف على باحة السجن وتسود الظلمة اذ لا يصل نور الشمس الى داخلها. رائحة الغرفة فاسدة . وعاء البول والبراز خلف حاجز القضبان ، جردل الماء أيضا خارج القضبان في القسم الثاني من الزنزانة .. الثلاثاء ٢٦ــ١٢ــ٦٨ كان اليوم التالي :

روتين الايام السابقة بكل ما فيها من توتر بل وبشكل أكثر اذ أصبح ينظر الينا على أننا متمردون ، شتائم وبصاق السجناء الاسرائيليين يأتينا من الكوة الضيقة أثناء خروجهم للتمشي في ساحة السجن .

بعد الظهر وضع معنا شخصان آخران معتقلان منذ ثلاثة أشهر وقادمان من سجن الرملة المركزي . أحدهما مصاب باسهال مستمر وحاد ومتروك دون علاج . قضينا ليلة ليلاء أضيف اليها ما يمكن أن يعنيه ــ ودون تفصيل في هذا الامر ــ شخص مصاب باسهال دائم في زنزانة ، وعاء البول والبراز فيها موضوع خارج حاجز القضبان الذي يقسم الزنزانة ...

وفي اليوم التالي الاربعاء ٢٧ــ١٢ــ١٩٦٧ أضيف الى نزلاء الزنزانة شخص جديد : بدوي من غزة ، متهم بتهريب السلاح ، أحضروه عندنا بعد أن كان في معتقل الجيش حيث يتم التعذيب . لا يستطيع المشي الا بانحناء كبير . جهازه التناسلي متورم ، جهازه البولي معطل ، الخدوش تملأ وجهه وجسده . طول النهار والليل نسمع أنينه ونساعده حين يريد قضاء حاجاته وبالكثرة ما كان المسكين يريد ذلك . يحدثنا عما لاقاه وعانى منه ... هواء الغرفة يثقل وأنين متواصل متواصل !

يوم الخميس ٢٨ـ١٢ـ١٩٦٧ مضى وجاء يوم الجمعة ٢٩ـ١٢ـ١٩٦٧ ... وقرابة الساعة الثالثة بعد الظهر سمعنا زميلنا القادم من معسكر التعذيب يصيح وهو ينظر ، بزاوية معينة ، عبر كوة الزنزانة : « لقد أتوا ! جاءوا مرة ثانية ليأخذونني الى المعسكر ، لا تدعوهم يأخذونني » . بعد لحظات دخل أحد الحراس ومعه اثنان من الشرطة العسكرية ومعهما ورقة بها أسماء ... ثم نظر الحارس في الورقة وقال : « من منكم اسمه أسعد عبد الرحمن » .

ـ « نعم » .

ـ « جهز نفسك » .

قيدوا يدي ، قيدوا ساقي ، عصبوا عيناي ومضوا بي وبزميلي ...) .

لقد نقل أسعد عبد الرحمن وزميله الى صرفند ... معسكر التعذيب الشهير ... في هذا المعسكر يتعرض السجناء لشتى أنواع التعذيب والارهاب .. اذ يتحول السجناء الى مجرد أرقام ، ويوضعون بزنزانات صغيرة طولها ٨٠ سم وعرضها ٦٠ سم ، والطامة الكبرى هي أن فيها جردلين اقتطعا حيزا ضروريا للغاية من حجم الغرفة ، جردل سال على الارض لشدة امتلائه واخر نصفه مليء بالبول والبراز ... ولادخال الخوف والرعب في نفوس المساجين ينادى على رقم ما ، وحين يجيء صوت الرقم : نعم نسمع طلقة نارية وصراخا عاليا ولا ينقطع الصراخ أثناء الليل ثم يأخذون السجين في اليوم التالي ليرى قبورا تخرج منها سيقان وهمية ويقولون له أن هذا مصير كل من لا يتكلم ويمتنع عن اجابة أسئلة المحققين ... في هذا المعسكر لا بد من الحصول على اعترافات المقبوض عليه مهما كلف الامر فيعمد المحقق الى تحطيم أعصاب المعتقل واضعاف مقاومته وعدم تمكينه من النوم اذ يعلو بين حين واخر صراخ يمزق حجب الليل واصوات رصاص تطلق عقب مناداة الارقام ... مع استمرار وضع العصابة على عيني المعتقل وحرمانه من السكاير

ولقد تطول فترة بقاء المقبوض عليه في هذا المعسكر الرهيب اذا كان صلبا شديد المقاومة وعندما ينتهي التحقيق ، يبدأ التحقيق السياسي ويصحب ذلك عملية غسل الدماغ واخيرا يكره المعتقل على توقيع ورقة مفادها انه عومل معاملة جيدة تمهيدا لابعاده الى الاردن .

لقد اهتمت اسرائيل بالتحقيق مع المعتقلين العرب وجندت فريقا من الخبراء والمختصين من مدنيين وعسكريين من اليهود الشرقيين والغربيين ويدخل ضمن هؤلاء افراد حصلوا على التدريب في اوربا فاتبعوا أحدث اساليب التعذيب الذي يبدأ بالضرب وقد ينتهي بالتشويه الجسمي والعقلي بالاضافة الى التعذيب الجنسي ، وتضمنت الوثيقة ٤٧٧ المنشورة في مجموعة الوثائق الفلسطينية لسنة ١٩٧٠ تفاصيل وافية عما يلقاه المعتقلون الفلسطينيون من ضروب التعذيب وألوان الايذاء في سجون اسرائيل (٧) ، لذلك رأيت من الواجب طبعها في الملحق لهذا الكتاب وهي تفضح مدى تردي اجهزة التحقيق الاسرائيلية واستهانتها بالقيم وتنكر حكومة اسرائيل لكل الاعراف والاتفاقات والمواثيق الدولية وتمجيد الصهيونية للقسوة والوحشية .

....

٧ ـ وللمزيد من الاطلاع على الاساليب الهمجية التي تتبعها اسرائيل مع الاسرى العرب ، انظر « ملحمة القيد والحرية ـ عالم سرى المقاومة الفلسطينيه في سجون العدو الاسرائيلي » تأليف عدنان جابر ، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٧٩ .

ملحـــق

بحث في أساليب الاعتقال والتعذيب التي تتبعها السلطـات الاسرائيلية *

فترة الاعتقـال :

باشرت سلطات العدو عمليات اعتقال المواطنين الفلسطينيين في المناطق المحتلة بعد حرب حزيران (يونيو) مباشرة ، واستمرت العملية حتى وقتنا الحاضر مختلفة الاسباب والمبررات المختلفة .أما بالنسبة لفترة الاعتقال فتمتد من أسابيع الى سنوات بحسب المراحل التي تتخذها عملية التحقيق ومحاولة نزع الاعترافات من الموقوفين وكذلك بحسب التهم التي تسند الى المعتقلين ، كما تتوقف فترة الاعتقال على مدى الاهمال والتأخير الذي تتعمده سلطات العدو في البت في قضايا الموقوفين والمعتقلين . وتعمد سلطات العدو الى الابقاء على المعتقلين في السجون أطول مدة ممكنة ، اذ أنهم يعتقدون أنه كلما طالت فترة بقاء المتهم تحت التعذيب في السجن كلما ساهم في الاسراع بالاعتراف والادلاء بالمعلومات التي تريدها السلطات المحتلة لاغراضها ، وعادة لا يتم الافراج الا بابعاد المعتقل أو ارغامه على مغادرة الارض المحتلة بشتى الاساليب .

* — (الوطن المحتل ، العدد ٣٢ — ١/٨/١٩٧٠) .

دوافع الاعتقال :

الدافع الاساسي لسلطات العدو في اعتقال شباب وفتيات المقاومة والثورة الفلسطينية في المنطقة المحتلة هو حصر هذه العناصر ومراقبتها واضعاف قوتها والحد من نشاطها . ونلاحظ أن حجم الاعتقالات أخذ بالتزايد الى أن غصت السجون في الوقت الحاضر بالآلاف . وتزداد حركة الاعتقال الجماعي بعد كل حادث يقوم به أبطال المقاومة والثوار في ضرب أهداف اسرائيلية سواء في المناطق المحتلة بعد حزيران (يونيو) أو في قلب فلسطين المحتلة .

ومن الدوافع الاخرى لحركة الاعتقالات الواسعة بتر وسائل الاتصال المباشر وغير المباشر بين المناضلين . وقطع العلاقات التنظيمية بين المنظمات الفدائية وبين الثوار في المناطق المحتلة .

أما بالنسبة للاتهامات التي توجهها سلطاتاحتلال الى المعتقلين للقبض عليهم فهي متنوعة . فقد يعتقل العديد من الشباب لمجرد الاشتباه بهم . وقد يكون سبب الاعتقال توجيه التهمة بحمل المتفجرات والتنظيم السري وتدريب آخرين على المقاومة وتوزيع النشرات والتحريض على الاضراب والمظاهرات والاتصال مع المنظمات الفدائية ، الى غير ذلك ، أو القيام بما يسمونه بالتسلل الى المنطقة المحتلة وحمل السلاح واستعماله ضد الاسرائيليين أو تفجير المتفجرات .

مكان الاعتقال :

عندما يتوفر لدى سلطات الاحتلال ما تعتبره براهين وأدلة أولية على اتهام أحد الافراد ، تلجأ الى اتباع أسلوب المفاجأة في مواجهة الفرد المطلوب في مكان عمله ، في الشارع ، في الاماكن العامة ، أو في البيت دون أي اعتبار الى القواعد الانسانية وحرية البيت أو المكتب . وتتم عملية الاعتقال بواسطة استخدام عدد من السيارات محملة بالجنود مدججين بكامل أسلحتهم ، ورجال المخابرات والشرطة بحيث يفرضون جوا من الارهاب لكي تستطيع

هذه القوة اجراء عملية الاعتقال دون اعطاء الفرصة للفرد لابداء وجهة نظره أو الدفاع عن نفسه أو الفرار . وكثيرا ما تكون علنية لارهاب المواطنين والقاء الرعب في قلوبهم . ولا يلتفت الجنود ورجال الشرطة الى توسلات ذوي المعتقل أو حتى لاعداد الملابس والحاجات اللازمة له في الطريق المجهول . ولالقاء القبض على الفرد المطلوب يقوم الجنود ورجال الشرطة بضرب طوق على البيت وتدخل قوة منهم مصوبة الرشاشات نحو الفرد ، ويأمرونه بالتوجه الى العربة تحت الحراسة الشديدة ، ثم يؤمر بالتمدد في أرضية العربة ملقى على وجهه بعد أن يعصبوا عينيه ويضعوا على جسمه كيسا من الخيش ، ويقوم الجنود المرافقون بوضع أرجلهم على جسم المعتقل الذي يبقى على هذا الوضع حتى وصوله الى أول مخفر للشرطة في المنطقة ويركلونه بين الفينة والاخرى .

مراحل الاعتقال :

تتخذ عملية الاعتقال عدة مراحل منذ اللحظة الاولى التي يلقى فيها القبض على المواطن في أحد الاماكن التي أشرنا اليها ، الى ابعاده للضفة الشرقية من الاردن أو الحكم عليه بالسجن لعدة سنوات في معتقلاتهم . ويجري في المرحلة الاولى المباشرة للاعتقال، التحقيق مع المناضل المعتقل في مراكز الشرطة أو في مكتب الحاكم العسكري الاسرائيلي ، وتحاول السلطات الاسرائيلية ارغام المعتقل على الاعتراف بالاسلوب اللين ثم بالتهديد والوعيد . واذا لم يعترف المعتقل يصار الى المراحل التالية التي تتميز بالانتقال من سجن الى اخر مع التعرض لانواع شتى من التعذيب والاذلال في كل حالة .

ينقل المعتقل من مركز الشرطة الى سجن المنطقة مثل نابلس لمنطقة محافظة نابلس ، وسجن غزة لقطاع غزة ، وسجن رام الله لمنطقة رام الله ، والمسكوبية لمنطقة القدس وبيت لحم ، وهكذا . واذا لم يحصل المحققون على أي اعتراف أو معلومات من المعتقل

تقوم السلطات الاسرائيلية بنقله الى سجن صرفند معصوب العينين وتحت الحراسة الشديدة ، ويكون في انتظاره برنامج حافل بشتى ألوان التعذيب لارغامه على الاعتراف .

أما اذا تمكن المعتقل من ضبط النفس وعدم الاعتراف أو الادلاء بأية معلومات قد تساهم في ادانته أو القبض على زملائه أو أفراد أسرته بالرغم من التعذيب الشاق الذي يتعرض له في سجن صرفند، فان عدم اعترافه هذا ، يؤدي بالسلطات المحتلة الى اخراجه من سجن صرفند تحت الحراسة الشديدة الى سجن المنطقة حيث يتم ايقافه لفترة ما الى أن يبت في أمره بعد المحاولات الاخيرة لنزع أي اعتراف منه حول نشاط المعتقل ، ومن ثم ابعاده الى الضفة الشرقية أو تشكيل محكمة صورية ، بحيث يعلن الحكم عليه بالسجن عدة اشهر أو عدة سنوات بحسب التهمة التي تتفق مع أهواء القضاة والمحققين العسكريين . وفي حالات أخرى ، يطلق سراح المعتقل ويبقى تحت المراقبة وتفرض عليه الاقامة الجبرية في منزله .

التحقيق والمحققون :

من يقوم بالتحقيق وعددهم ونمط التشكيلات المتنوعة التي تضم الاخصائيين في المجالات المختلفة ؟ وما هو الاسلوب المتبع في التحقيق ومدة التحقيق في كل جلسة والحالة الجسمية والنفسية التي يكون فيها المناضل العربي المعتقل قبل وأثناء وبعد التحقيق ؟ لقد جندت السلطات الاسرائيلية فريقا من الخبراء المدنيين والعسكريين من اليهود الشرقيين والغربيين ، ويدخل ضمن هؤلاء أفراد حصلوا على التدريب في أوروبا حيث تتبع أحدث الاساليب الجسمية والمعنوية في التعذيب الذي يصل الى التشويه الجسمي أو احداث الخلل العقلي للافراد المحقق معهم .

وقد تبين من الدراسة أن عدد المحققين في كل جلسة يتراوح

بين محقق واحد الى خمسة محققين من ذوي الاختصاصات المختلفة ، مثل علماء النفس ، وعلماء الجريمة ، والتحليل النفسي والخبراء العسكريين والسياسيين . وقد ترددت أسماء بعض المحققين الاسرائيليين بحيث تمكن المعتقلون الذين أجريت معهم الدراسة من معرفة الاسماء الاولى لهم أو ألقابهم وقد وردت الاسماء التالية على سبيل المثال لا الحصر : جولان ، ليفي سامي ، أبو الشوارب ، توفلسكي ، اسبير أبو زليخة ، مردخاي ، يعقوب سابير ، زكي ، هارون ، موشيه ، شواد ، باروخ ، هالبورن .

ويتضح لنا من التدقيق في هذه الاسماء أن أصحابها من الاسرائيليين الشرقيين والغربيين على السواء ، وبذلك فان السلطات الاسرائيلية تستخدم اليهود الشرقيين الذين ترعرعوا في الوسط الثقافي العربي وألفوا التقاليد والقيم العربية فعرفوا بالتالي الجوانب المختلفة للشخصية العربية ومقوماتها ، وتنعكس هذه الظاهرة في اختيار أساليب التعذيب التي تهز كيان المناضل العربي في الصميم .

وهناك ملاحظة أخرى تدور حول تقسيم العمل بين المحققين مع المناضل المعتقل ، اذ أن تقسيم العمل يبدو واضحا في عملية التحقيق حيث يعمل المحققون بالتناوب فترة زمنية قد تمتد من ثلاث الى أربع ساعات متتالية ، يتخللها الضرب والتعذيب الجسماني أو تخدير المعتقل بواسطة الشراب أو التطعيم بأمصال لها تأثيرها على فقدان الذاكرة، ويستهدف المحققون من اطالة فترة التعذيب وتنويعه ارهاق المعتقل جسميا وعقليا .

ويتراوح معدل عدد الجلسات الخاصة بالتحقيق ما بين عشر وخمس عشرة جلسة للمعتقل الواحد طوال فترة الاعتقال ، وقد يقضي المعتقل عدة أسابيع في السجن دون أن يطلب مرة واحدة للتحقيق . وهناك حالات يخضع المعتقل فيها لعدة جلسات من التحقيق والتعذيب خلال أيام قليلة . هذا وتتكرر جلسات التحقيق والتعذيب في حالة اعادة اعتقال المواطن العربي للمرة الثانية

أو الثالثة قبل ابعاده نهائيا خارج الضفة الغربية أو قطاع غزة .

وبالاضافة الى المحققين ، يقف حول المعتقل عدد من الاشخاص على أهبة الاستعداد للحراسة والتعذيب الجسماني اذا رأى المحققون ضرورة مثل هذا الاجراء . ونستنتج من هذا كله أن عملية التحقيق تتم بالتعاون مع فريق من الاختصاصيين والخبراء في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجرائم ، بالاضافة الى أولئك الاشخاص الذين توافرت لديهم الخبرة العملية من التحقيق مع المواطنين العرب منذ قيام دولة اسرائيل .

التعذيب أثناء التحقيق مع المعتقلين في سجون العدو :

أشرنا في الفقرات السابقة الى أن السلطات الاسرائيلية تسعى جاهدة لضرب المقاومة العربية بشتى الوسائل والاساليب الارهابية النازية . وبما أن اسرائيل تعمل على ضم الاراضي العربية التي احتلتها بعد حرب الخامس من حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ تحت شعار اسرائيل الكبرى ، فهي تعتقد بضرورة اخضاع المواطنين العرب في الضفة الغربية وغزة وسيناء والجولان تحت سيطرتها منتهجة أسلوب الترغيب والإغراء تارة ، والوعيد تارة أخرى . غير أنه أصبح من الواضح أنه فات اسرائيل أن تقدر حق التقدير أن اللاجئين الفلسطينيين الذين شردوا من ديارهم وسلبوا ممتلكاتهم ووطنهم عاشوا طوال فترة العشرين عاما على فتات ما تقدمه وكالة الغوث الدولية من قوت ومأوى ، قد هيأوا جيلا يحمل السلاح وشعار المقاومة ضد الاحتلال والصهيونية ولاسترداد الوطن السليب . وأصبح حمل السلاح والانخراط في سلك الفدائيين شرفا ينتظم تحت لوائه الفلسطينيون من سكان المخيمات وكذلك المقيمون في الضفة الغربية وقطاع غزة والمناطق المحتلة عام ١٩٤٨ . ولقد استعمل الاسرائيليون كافة الوسائل لتفريق وتمزيق وحدة المجتمع العربي في مدن الضفة الغربية وقراها ، وجندوا بعض العملاء

وقوى الامن لمتابعة الاجتماعات والحركات التي ينظمها أبناء فلسطين ، ونتيجة لهذه المتابعة زجت السلطات الاسرائيلية بالالوف من الشباب والفتيات في السجون ، واتخذت أحكاما متنوعة بعد عقد المحاكمات الصورية وتعرض المواطنون الى أشكال متنوعة من التعذيب والتنكيل على أيدي أناس لا يعرفون معنى للانسانية ولا يدرون شرف الدفاع عن الوطن والذود عن الكرامة .

ولكي نوضح الاساليب البشعة التي تتبعها السلطات الاسرائيلية في تعذيب المواطنين في السجون فقد اهتمت هذه الدراسة بتسجيل تفاصيل التعذيب كما رواها المواطنون الذين أبعدوا من منازلهم الى الضفة الشرقية . والهدف من السجن والتعذيب كما يتبين من خلال الوثائق والحقائق التي أفضى بها الاخوة الذين أمضوا فترة زمنية تمتد الى عدة شهور في سجون اسرائيل هو :

أ ـ تحطيم الشخصية واذلال المواطن العربي الحر .

ب ـ التعذيب النفسي عن طريق رفع الشهية الى أعلى حد ممكن .

ج ـ عملية غسل الدماغ أو تنظيف العقل الباطن حتى فقدان الذاكرة ثم محاولة تثبيت الدعاية الصهيونية في تفكير المعتقل .

مراحل التحقيق والتعذيب

ويمكن تقسيم أساليب التعذيب في السجون الى أربع مراحل بعد اعتقاله بالطريقة التي أسلفنا ذكرها . ويبدأ التعذيب باستعمال الطرق البدائية المعروفة ، ويقوم المحقق أو المسؤول في مركز الشرطة أو السجن باستجواب المعتقل وحثه على الاعتراف الفوري والتحدث معه بنوع من اللين ، مستخدما الجوانب العاطفية والثناء على المعتقل وابراز خصائصه ومقوماته وذكر تاريخ حياة المعتقل يمر بها المعتقل ، كل مرحلة لها خصائص ومميزات .

المرحلة الاولى :

تبدأ المرحلة الاولى في سجن المنطقة التي يقيم بها المواطن الحر

وأهم نشاطاته المختلفة وذلك لاقناع المعتقل بأن لدى السلطات الاسرائيلية المعلومات الوافية عن حياته وعن نشاطه السياسي ، وما عليه الا الاعتراف طالما أن السلطات تعرف عنه كل شيء . وبعد ذلك يأخذ المحققون في تهديد المعتقل بنسف منزله والتنكيل بأفراد عائلته والقضاء على حياته اذا أصر على عدم الادلاء بأية معلومات ، وفي هذه المرحلة يسعى المحققون جاهدين لتحطيم شخصية المعتقل والنفاذ الى مواطن الضعف لايجاد مداخل الى النفس البشرية ، وعلى ضوء استنتاجاتهم يحددون نوع الادوات التي سيستعملونها في المراحل التالية من التعذيب .

المرحلة الثانية :

ينقل المعتقل الى سجن اخر ويكون عادة سجن المسكوبية بالقدس ، وقد خصصت السلطاتالاسرائيلية هذا السجن لعمليات تعذيب الشهية لدى المعتقل ، ويقصد بالشهية أو (الانا ـ الهو) على رأي سيغموند فرويد وهي تلك الامور والحاجات الاساسية من ضرورات الحياة مثل المأكل والملبس والمشرب والنوم والجنس . وتعذيب الشهية لدى الانسان عن طريق منع الاكل والنوم والشرب والراحة والضرب وشد أطراف الجسم وتمرير التيار الكهربائي على الجسم والرأس والتعرض لحالات جنسية مهيجة .

ولا بد من التفصيل في أنواع التعذيب المختلفة في هذه المرحلة :

التعذيب الجسمي :

يتخذ التعذيب الجسمي للمعتقلين عدة أشكال نورد منها ما جاء على لسان المعتقلين الذين كانوا موضوع الدراسة ، والذين طردتهم السلطات الاسرائيلية وأبعدتهم بالرغم من ارادتهم الى الضفة الشرقية من الاردن .

١ ــ الضرب :

تستخدم العصي من الخيزران وأنابيب من الحديد والاسواط الجلدية في ضرب المعتقل على مختلف أنحاء الجسم من الرأس الى القدم دون تحديد ، ويستمر الضرب حتى يترك اثاره على الجسم أو أن يغمى على المعتقل . ويقصد بالضرب المبرح ايذاء المعتقل. هذا ويحرم المعتقل من مراجعة الطبيب في حالات الشعور بالالم أو الاصابة بسبب الضرب .

كما وتستخدم السلطات المحتلة اليدين والرجلين في ضرب المعتقل وركله مدركة بأن هذا النوع من الضرب يؤدي الى اهانة المناضل العربي وتحطيم شخصيته وكرامته .

٢ ــ التيار الكهربائي :

تستخدم السلطات الاسرائيلية التيار الكهربائي في التعذيب الجسماني للمعتقلين وذلك كما يلي :

أ ــ ربط اليدين أو الرجلين بتيار كهربائي تتراوح قوته بحيث ينتفض له جسم المعتقل .

ب ــ تسليط التيار بواسطة أسلاك مربوطة بجهاز يوضع على رأس المعتقل .

جـ ــ تيار كهربائي في الماء ويجبر المعتقل على وضع يديه فيحوض الماء المشحون بحيث يرتعش جسم المعتقل .

د ــ يرتدي المعتقل معطفا مبطنا بأسلاك كهربائية وكلما استنشق المعتقل الهواء (شهيق) يلتصق المعطف بالجسم التصاقا وثيقا وفي حالة اخراج الهواء (زفير) يضغط المعطف على صدر المعتقل المنكمش ، وتستمر العملية فترة عشر دقائق بشكل يشعر المعتقل معه بالاختناق نتيجة الضغط المتواصل من المعطف المكهرب على الصدر .

٣ – التعليق وتمديد الجسم :

يستعمل المحققون والقائمون على تعذيب المعتقلين العرب وسائل تهدف الى خلخلة مفاصل الجسم وتفتيت الانسجة والشرايين ، وقد يترتب على ذلك نزيف دموي داخلي . ويتم التعليق بواسطة ربط اليدين بسلاسل حديد ، وتثبت في بابين كل واحد في زاوية من زوايا الغرفة ، ثم تغلق الابواب بطريقة تدريجية بحيث تمتد يد المعتقل الى أقصى حد ممكن ، وكثيرا ما تسبب هذه العملية شل اليدين من مواقع الكتفين .

٤ – الزجاج والمسامير :

اتضح أن القائمين على التعذيب في سجن صرفند يجبرون المعتقلين على المشي حفاة في منطقة حول السجن مرشوشة بالزجاج المحطم والمسامير الصغيرة ، ويكون المعتقل في هذه الحالة معصوب العينين بحيث لا يتمكن من رؤية الطريق التي يسير فيها . وتكون النتيجة أن يعود المعتقل الى زنزانته مثخنا بجروح في أسفل القدمين .

٥ – الزنزانة :

الزنزانات التي يعيش فيها المعتقلون الفلسطينيون العرب هي عبارة عن غرف مظلمة معزولة عن ضوء الشمس ولا يزيد حجمها عن نصف متر في الطول والعرض ومترين في الارتفاع ، ويوجد فيها سطل يحتوي على الماء القذر ، ويستخدم أيضا كمرحاض للمعتقل ويثبت في أحد جدران الزنزانة مكبر للصوت بحيث اذا تحدث المعتقل أو طلب الماء يسمع صدى صوته في قاعة السجن ، وهذا يزيد من توتر اعصاب كافة السجناء في القاعة الواحدة .

ويجبر المعتقل على الوقوف طوال الوقت ، ويحال بينه وبين النوم ، اذ يقوم أحد الخفراء بالضرب على باب الزنزانة بحيث

تحدث دويا مزعجا ، هذا بالاضافة الى رش الماء على أرض الزنزانة ، وفي الشتاء لا يزود المعتقلون بالاغطية مما يعرض معظمهم الى أمراض الروماتيزم في مختلف أنحاء الجسم .

التعذيب الجنسي :

يتخذ التعذيب الجنسي أشكالا متنوعة نورد بعضها على سبيل المثال لا الحصر .

أولا — الضرب بعصي من البلاستيك على الاعضاء الجنسية للرجال ، ومحاولة ايلاج العصي البلاستيكية في العضو الانثوي التناسلي أو شرج الرجل ، وذلك لاهانة الكرامة وجرح كبرياء العرب .

ثانيا — استخدام المومسات الاسرائيليات في السجن في محاولة اغراء الشباب العرب بتقديم المشروبات الروحية وهن في ثياب مغرية لاستدراج الشباب الى ممارسة العملية معهن ، وهذا — بنظر الاسرائيليين — يضعف مقاومة الاسرى والمعتقلين ويدفعهم الى الاعتراف . ويقصد بالتعذيب الجنسي اغراء المعتقل ورفع شهيته الجنسية لاعتقاد الاسرائيلي بأن الشباب العرب يعانون من الكبت الجنسي خلال فترة المراهقة وما بعدها ، مما يعرضهم للضعف المعنوي ازاء العرض الجنسي للاناث .

أما المرحلة الثانية من التعذيب فتعتبر من أهم المراحل التي لها تأثيرات نفسية واضحة على المعتقل ومن أشد المراحل تأثيرا على العقل الباطن .

ويكون المعتقل في حالة جسمية منهكة بعد كل فترة تعذيب قد تصل حالته فيها الى الاغماء وعدم المقدرة على الحركة ، وان الانهيار الذي يصيب المعتقل لا يكون بتأثير الضرب والتعذيب الجسماني فحسب ، بل نتيجة الصراع النفسي الذى ينتاب المعتقل بين العقل الباطن والشهية . أي أن احتمال الانهيار والاعتراف في هذه المرحلة محتمل ، وذلك لان القوى الجسمية والمقدرة على المقاومة تضعف تدريجيا أمام التعذيب المتواصل

والتعرض الى مواقف قد يكون لها تأثير سلبي على صموده بحيث يحتمل المزيد من آلام الضرب والشد والارهاق والجوع .

المرحلة الثالثـــة :

اذا أصر المناضل المعتقل رغم المرحلتين السابقتين على عدم الاعتراف أو الادلاء بأية معلومات تفيد العدو ، واذا ما شعـــرت السلطات الاسرائيلية بأن جميع المحاولات السابقة الذكر لم تحقق النتائج المرتقبة ، فانهم ينقلون المناضل المعتقل الى سجن صرفند ، وفي هذا السجن يتركز توجيه التعذيب الى العقل الباطن بالاضافة الى التعذيب الجسماني .

والجدير بالذكر أن المعتقل الذي يساق الى سجن صرفند من سجن نابلس أو رام الله أو المسكوبية ، يكون معصوب العينين ، وتحتوي العصابة على مساحيق كيماوية لها تأثير على استنزاف الماء من أعين المعتقل .

وعندما تفك العصابة يتساقط المـــاء بحجم (كوب) ويكـــون مصدر الماء الدموع ألتي تذرفها العينان والتي ترتبط بالاعصـــاب المتصلة بالدماغ .

يدخل المعتقل الى غرفة صغيرة قذرة وملطخة بالدم ، ويمنـــع من الاكل والشرب لمدة ٢٤ ساعة ، وتقدم له وجبة صغيرة مؤلفة من قطعة من الخبز الجاف وحبة بندورة وكمية قليلة من الزيتون .

ومن الاساليب المتبعة في اثارة الرعب والخوف في نفس المعتقل استخدام الكلاب والتهديد بالرمي والقتل . عندما يخرج المعتقل من زنزانته وهو معصوب العينين (وذلك خوفا من رؤيـــة المعتقلـــين الآخرين في الزنزانات المجاورة) يتعرض لهجوم من الكلاب المدربة التي تقفز على صدره . وبعد ذلك يقاد الى ساحة خـــارج السجن ويتعرض نفسيا للقتل رميا بالرصاص اذا لم يعترف . واذا أصر المناضل أن لا شيء لديه ليعترف به ، فان المعذبين الاسرائيليين يقودونه الى مكان فيه حفرتان مما يعد لدفن الموتى ، وتكون في

الاولى دمية تشبه الرجل مغطاة باستثناء الرأس والقدمين ، ويقولون للمعتقل أن هذا الرجل قتل بالرصاص لانه لم يعترف وسيكون مصيرك مثله ويطلقون الرصاص على الحفرة الاولى ، وينطلق صوت رجل اخر مختبىء بجوار الحفرة الاولى ، ويظن المعتقل بأن الرصاص أصاب الرجل (الدمية) الممددة في تلك الحفرة . وبعدها يجبر المعتقل على أن يتمدد في الحفرة الثانية وهو معصوب العينين، ويقوم جندي باطلاق الرصاص في الهواء وعلى جانبي الحفرة ليوهم المعتقل بأنه يطلق الرصاص عليه ، وبعد أن ينتهي الجندي من اطلاق الرصاص ينهض المعتقل ، ويقول له الجندي هذه المرة لم نقتلك ولكن اذا لم تعترف ففي المرة الثانية لا مفر لك من الموت ، وتعاد الكرة مرة أخرى وثالثة ثم يعود المعتقل الى زنزانته اذا لم يعترف.

ويلجأ المحققون الصهاينة بعد ذلك الى التحقيق مع المناضل المعتقل بواسطة التحليل النفسي الجرائمي ، اما بواسطة شراب بارد بعد منع الماء عن المعتقل مدة من الزمن ، ويكون الشراب اما توتا أو برتقالا أو ليمونا يحتوي على كميات من المواد الكيماوية التي تلعب دورا هاما في تخدير المعتقل .

وهناك طريقة أخرى يتبعونها وهي الحقن ، حيث يعطى حقنة في العضل لها نفس المفعول مثل الشراب المخدر . وتساعد هذه العقاقير على وضع المعتقل في حالة يفقد فيها السيطرة على العقل الخارجي في حين أن العقل الباطن لا يزال نشيطا . ويقدر المحققون أنه في خلال ساعتين من تناول المخدرات يحصلون على الاعتراف الكامل من المعتقل ، ويقومون في الفترة المتبقية ، وهي مدة تتراوح ما بين ٢٢ ساعة و ٤٤ ساعة ، بعملية غسل دماغ حيث يقوم المحللون النفسيون بتلقين المعتقل أفكارا جديدة تستهدف بجوهرها اقناع المعتقل بالتخلي عن كافة المحاولات التي يقوم بها المناضلون وان لا فائدة ترجى من أعمال المقاومة ، وان الدول العربية برمتها غير قادرة على مقاومة اسرائيل ، وان لاسرائيل عملاء في جميع الدول العربية حتى بين كبار الشخصيات ، وان العرب لن يتمكنوا

من التغلب على اسرائيل مهما حاولوا ، وان الفدائيين لا يستطيعون تحرير فلسطين حيث أن الجيوش النظامية برمتها فشلت في تحقيق هذا الهدف ، الى غير ذلك من الافكار التي تقلل من قيمة العمل الفدائي والمقاومة الشعبية وجدواها .

وتهدف عملية غسل الدماغ الى تكوين عقل باطن جديد للمعتقل حسب رغبات المحققين النفسانيين وأهوائهم ، وتتم العملية بواسطة المحقق النفساني بمعدل ساعة كل ساعتين أو بواسطة المسجل ولنفس المدة المذكورة .

ولا بد من الاشارة في هذا الصدد بأن التحليل النفسي للمعتقلين قد حرم دوليا ، وتأخذ الدول المتقدمة كليا بهذا المفهوم ، ولا تطبق التحليل النفساني للمعتقلين مهما كانت دوافع السجن والاعتقال . أما السلطات الاسرائيلية فانها كالعادة لا تكترث بالقوانين الدولية أو الانسانية المحضة .

والسبب في تحريم التحليل النفسي للمعتقلين هو المضاعفات التي تلحق بالمعتقل بعد التحليل ، فربما يصاب المعتقل بمرض عقلي أو يفقد ذاكرته ولا يستفاد منه في المحاكمة ، ويصبح بعد ذلك عالة على المجتمع ويفقد المنطق العقلي المتزن (العقل الباطن) .
وبعد أن ينتهي الاسرائيليون من التحليل النفسي للمناضل المعتقل وغسل دماغه يعيدونه الى السجن الاول .

المرحلة الرابعة :

يضع المحققون تقريرا وافيا عن المعتقل ، وبيانات ببرنامج العمل بعد أن يعود من سجن صرفند الى السجن الاول ، ثم يخلى سبيله بعد فترة من الزمن ويبعد الى الضفة الشرقية نهائيا . هذا اذا لم يقدم للمحاكمة ويحكم عليه بالسجن للمدة المقررة .

المراجـــع

١ ـــ اسيا والسيطرة الغربية ، ك.م. بانيكار ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـــ دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

٢ ـــ الامبراطورية البيزنطيـــة ، أومـــان ، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر .

٣ ـــ الامويون والبيزنطيون ، الدكتور ابراهيـــم العدوي ـــ الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٣ .

٤ ـــ الحروب الصليبيـــة ، أنتوني ويست ، ترجمـــة شكري محمود نديم ـــ شركة النبراس للنشر والتوزيع بغداد ١٩٦٧ .

٥ ـــ الحرب في كورية ـــ سليم طه التكريتي ـــ مطبعة دار الهلال ، بغداد ١٩٥٠ .

٦ ـــ الحروب الصليبية ، أرنست باركر ، ترجمـــة الدكتور السيد الباز العريني ـــ مطبعة لجنة البيان العربي .

٧ ـــ التأريخ العسكري ، أسفار بعض القادة العظام ـــ كتاب رسمي وزارة الدفاع ـــ مطبعة الجيش ـــ بغداد .

٨ ـــ التعاون الدولي والسلام ، محمد رفعت ـــ دار المعـــارف بمصر ١٩٤٥ .

٩ ـــ السياسة ، أرسطوطاليس ، ترجمة أحمد لطفي السيد ـــ مطبعة دار الكشاف بيروت ١٩٧٠ .

١٠ ـــ اتفاقية جنيف لحماية ضحايا الحرب ١٩٤٩ ، نشرتهـــا مديرية التدريب العسكري ـــ وزارة الدفاع ١٩٥٦ .

١١ ـــ العرب ، الدكتور فيليب حتي ـــ دار العلم للملايين ـــ مطبعة الكشاف بيروت ١٩٤٦ .

١٢ ـــ الفن الحربي في صدر الاسلام ، جمال الدين عياد ـــ

مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦١ .
١٣ ـــ الرافدان ، سيتون لويد ، ترجمة طـــه باقـــر وبشير فرنسيس ـــ مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٤٣ .
١٤ ـــ الصفحة الاخيرة ، والتر ملز ـــ ترجمة المقدم الركن عبد القادر سعيد ـــ مطبعة الجيش ـــ بغداد .
١٥ ـــ القانون الدولي العام ، الدكتور محمود سامي حنينة ـــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـــ القاهرة ١٩٣٨ .
١٦ ـــ القانون الدولي العام في وقت السلم ، الدكتور حامد سلطان ـــ دار النهضة العربية ١٩٦٢ .
١٧ ـــ القانون الدولي العام ، الدكتور عبد المجيد عباس ـــ مطبعة النجاح بغداد ١٩٤٧ .
١٨ ـــ القوانين العسكرية ، الرئيس الاول ابراهيم الراشد ـــ مطبعة التفيض الاهلية بغداد ١٩٤٢ .
١٩ ـــ النظام العسكري العربي ، العقيد الركن صادق مهدي البياتي ـــ مطبعة العاني بغداد ١٩٦٨ .
٢٠ ـــ النتائج السياسيـــة للحرب العظمى ، رمزي ميور ، ترجمة محمد بدران ـــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ .
٢١ ـــ الوثائق الفلسطينية لعام ١٩٧٠ ـــ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـــ بيروت .
٢٢ ـــ القيان والغناء في العصر الجاهلي ، الدكتور ناصر الدين الاسد ـــ دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .
٢٣ ـــ اعصار من الشرق ، ثروت عكاشة ـــ دار الجمهورية للطباعة ١٩٥٧ .
٢٤ ـــ أمير الحرب هتلر ، فرانس هالدر ، ترجمة الدكتور عبد الحميد الهلالي ـــ مطبعة بغداد ١٩٤٩ .
٢٥ ـــ أوراق سجين، أسعد عبد الرحمن ـــ كانون الثاني ١٩٦٩
٢٦ ـــ أيام صلاح الدين ، عبد العزيز سيد الاهل ـــ مطابـــع دار الكتب بيروت ١٩٦١ .

٢٧ ـ بلاد ما بين النهرين بين ولاءين ، الجزء الاول ، ولسن ، ترجمة فؤاد جميل ـ الطبعة الاولى ١٩٦١ .
٢٨ ـ تأريخ العرب قبل الاسلام ج١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٨ ـ الدكتور جواد علي .
٢٩ ـ حكمة الاديان ، جوزيف كاير ، ترجمة المحامي حسين الكيلاني .
٣٠ ـ حرب العراق ، العميد طه الهاشمي .
٣١ ـ حياة محمد ، الدكتور محمد حسين هيكل ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨ .
٣٢ ـ حرب العراق ـ الصفحة الاخيرة ، المقدم اي.ايج. بيرن ، ترجمة الرئيس الاول عزيز داخل .
٣٣ ـ سيرة عمر بن الخطاب ، علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ـ مطبعة الترقي بدمشق ١ ـ ٦ ـ ١٣٥٥ .
٣٤ ـ سليمان القانوني ، هارولد لامب ، ترجمة شكري محمود نديم .
٣٥ ـ شريعة الحرب في الاسلام ، الرئيس محمد المعراوي (مخطوط) .
٣٦ ـ صفحات مطوية عن فلسطين ، أحمد فراج ـ دار ومطابع الشعب .
٣٧ ـ فجر الاسلام ، أحمد أمين ـ الطبعة الثانية ١٩٣٣ .
٣٨ ـ فرقة المشاة في المعركة ـ كتاب رسمي ، ترجمة مديرية التدريب العسكري ، وزارة الدفاع ـ بغداد .
٣٩ ـ قانون الحرب ، عبد العزيز علي جميع ، عبد الفتاح عبد العزيز ، حسين درويش ، مكتبة الانجلومصرية ١٩٥٢ .
٤٠ ـ لمحات اجتماعية في تأريخ العراق الحديث ، الدكتور علي الوردي ـ الجزء الاول ـ الفصل الاول ـ بغداد ١٩٦٩ .
٤١ ـ مدونة جوستنيان ، ترجمة عبد العزيز فهمي ١٩٤٦ .

٤٢ ــ مهد العرب ، الدكتور عبد الوهاب عزام ــ سلسلة اقــرأ .
٤٣ ــ محاكمات نورمبرغ ، الدكتور ج.م. جلبرت ، ترجمــة فتح الله محمد وجورج شاهين .
٤٤ ــ محمد محرر العبيد ، محمد شوكت التوني .
٤٥ ــ مختصر تأريخ العرب والتمدن الاسلامي ، سيد أمير علي ، ترجمة رياض رأفت ــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ .
٤٦ ــ مختصر دراسة التأريخ ، أرنولد توينبي ، ترجمــة فؤاد محمد شبل .
٤٧ ــ مذكرات في القانون الروماني ، عبده حسن الزيات .
٤٨ ــ محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك ، محمد حسن عواد ــ مؤسسة دار الشعب ١٩٧٦ .
٤٩ ــ نور الدين محمود ، الدكتور حسين مؤنس ــ القاهرة ١٩٥٩ .
٥٠ ــ نظم الحرب في الاسلام ، جمال الدين عياد .
٥١ ــ الاسلام ورأي في جريمة الزنا ، مصطفى كمال رفعت ــ مطبوعات الشعب ١٩٧٥ .
٥٢ ــ فتح العرب لمصر ، الدكتور الفرد بتلر ، تعريب محمد فريد أبو حديد ــ مطبعة دار الكتب ــ القاهرة ١٩٣٣ .
٥٣ ــ تأريخ التشريع الاسلامي ، الشيخ محمد الخضري ، الطبعة الخامسة ــ مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٣٩ .
٥٤ ــ تيمورلنك ، محمد محمد فياض ــ سلسلة اقرأ ١٣٩ .
٥٥ ــ الموسوعة العربية الميسرة ــ الطبعة الاولى ١٩٦٥ .

المراجــع الاجنبيــة

1 — Encyclopedia Britannica 15 Th Edition .
2 — Ancient World , Breasted .
3 — The World's Earliest Laws , Chilperic Edwards .
4 — Precautions to be taken by British personnel in the event of Capture — Code No 8649 .

الفهرس

المقدمة ٥

الباب الاول : الاسرى في العصور الاولى ٩

الفصل الاول : الاسرى في بلاد ما بين النهرين ١٠
الفصل الثاني : الاسرى في بلاد الفراعنة ١٩
الفصل الثالث : الهند والصين ٢٥
الفصل الرابع : الاسرى عند الاقوام الشرقية الاخرى ٣٢
الفصل الخامس : فارس ٣٨
الفصل السادس : اليونان ٤٢
الفصل السابع : الاسرى في عهد الرومان ٤٩
الفصل الثامن : دول الجزيرة العربية ٥٦

الباب الثاني : العصور المتوسطة ٦٩

الفصل الاول : المسيحية ٧٠
الفصل الثاني : الامبراطورية الرومانية ٧٦
الفصل الثالث : الامبراطورية الساسانية ٨٣
الفصل الرابع : اليابان والصين والهند ٨٧
الفصل الخامس : العرب ٩٩
الفصل السادس : الاسلام ١٠٩
الفصل السابع : عصر الاقطاع والفروسية ١٢١
الفصل الثامن : الحروب الصليبية ١٢٦
الفصل التاسع : التتر والمغول ١٣٦

الفصل العاشر : الامبراطورية العثمانية ١٤٥
الفصل الحادي عشر : نهاية وبداية ١٥٤
الفصل الثاني عشر : أمريكا قبل أكتشافها ١٦٢

الباب الثالث : العصور الحديثة ١٦٧

الفصل الاول : القانون الدولي ١٦٨
الفصل الثاني : حرب العراق ١٧٣
الفصل الثالث : اتفاقية جنيف سنة ١٩٢٩ ١٧٨
الفصل الرابع : الحرب العالمية الثانية ١٨٦
الفصل الخامس : مشروعية الحرب ١٩١
الفصل السادس : جرائم الحرب ١٩٩
الفصل السابع : محاكمات نورمبرغ ٢٠٨
الفصل الثامن : اتفاقية جنيف بشأن معاملة اسرى الحرب ٢١٤
الفصل التاسع : الاسرى في الميدان ٢٢٧
الفصل العاشر : حروب اخرى ٢٣٣
الفصل الحادي عشر : العرب واسرائيل ٢٤٤
ملحق : بحث في أساليب الاعتقال والتعذيب التي تتبعها
السلطة الاسرائيلية ٢٥٣

٣٠٠٠/٧٩/٦٧٠

هذا الكتاب

مجلدات لا حصر لها كتبت حتى الآن عن الحرب ، عن معالمها وتحولاتها ، عن مسبباتها ونتائجها ، عن آفاقها واحتمالاتها وحتى عن أبطالها ونوابغها ... ولكنها قليلة ، بل نادرة جداً ، تلك الكتب التي تناولت جانبا من جوانب الحرب الحتمية ، أقصد الأسر ، بما يستحقه من عرض وتحليل ودراسة الباحثين كظاهرة متواصلة أبداً . فمما لا شك فيه ان ظاهر « اسرى الحرب » صفحة مأساويـــة مستمرة ، تدمي خاصرة الانسانية وتبكت ضميرها وتصمها وصماً في الصميم ... كيف لا ، والأسر يبزّ أحياناً الابادة بشاعة وهمجية .

هذا كتاب يحاول ان يسد الفراغ المشار اليه ، فيبحث في قضية الأسرى من كل النواحي وعبر مختلف العصور والازمان ، منذ عصور التاريخ الاولى وحتى اليوم ، ويتحدث عما لقيه « الخاسرون » على الدوام سواء في الانتصار أو الانكسار ، من استرقاق وتعذيب وأذى وهوان وغيرها من صنوف التدمير النفسي والجسدي ، بما يكوّن في النهاية قصة مؤثرة الى أبعد حد ، فصولها هذه المأساة الانسانية التي لا يبدو لها نهاية .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ١٣,٥٠ ل.ل.
او ما يعادلها